

عذب البيان

في أصناف البشر في القرآن

الجزء الأول

المؤمنون

فكري حج حمد السكاوي

عذب البيان
في
أصناف البشر في القرآن



الطبعة الأولى

1444 هـ - 2023 م

إهداء

للذي يرجو النجاةً
ويجافي للسُّبَاتِ
في دعاء وصلاة
مؤمناً يرجو الثباتُ
عاملاً بالصالحاتُ
من جحيم وسقر
حاذراً يخشى الخطر
راجياً رب البشر
في خشوع وحذر
لا يوالي من كفر

المقدمة

الحمد لله العظيم الحميد، المتفرد بالتوحيد، المنفرد بالتمجيد، له ذلت الرقاب، وعنت الوجوه، ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليخرج الناس باذن ربه من ظلمة الديجور الى وهدة النور، وأنزل الكتاب موعظة وهدى وشفاء لما في الصدور، له الحمد في الأولى والآخرة، سبحانه العزيز الغفور. والصلاة والسلام على مصباح الهدى، وضياء الدجى، من هدى به الله الناس من بعد الضلالة، به أكمل الدين، وبشريعته أتمّ النعمة، وأقام به الحجة، فلم يبق من بعده لغافل عذر، ولا لمتنكب عن الجادة سبيل. أما بعد،

فهذا هو الجزء الأول من عذب البيان في اصناف البشر في القرآن، ومن تمام فضل الله على الناس أن جعل الدين واضحا، والكتاب ميسرا، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة. ومنذ بداية آيات القرآن الكريم اقتضت حكمته دلالة الناس الى طبائع النفوس البشرية وحالها مع تشريع الله سبحانه، فإذا ما علم الإنسان صفات قوم علم حاله منهم، فإذا ما يتوافق معهم، فيكون منهم، أو يخالف ما هم عليه فيكون من غيرهم، كما في الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ " حسنه الألباني.

ولا شك أن مجرد قراءة المسلم لآيات الكتاب فيه غنى عن كل كلام، وهو ما عملت جاهدا على جمعه تفصيلا وتبيانا في صفات كل صنف من أصناف البشر الذين ذكرهم الله في كتابه العزيز، وهي أصناف ثلاث لا تتعدى غيرها، إما مؤمن تقي، أو منافق غوي، أو كافر شقي، وهو ما يتناوله هذا الكتاب في جمع المزايا الأساسية

في كل صنف منهم، بما قام عليه الدليل في نصوص الوحيين، وبيان ذلك في أقوال أهل العلم المعترين من أهل التفسير، وأهل الحديث، وأهل الفقه.

وفي هذا الكتاب عملت على إيضاح وبيان الأدلة مع شرحها إن لزم مما نقله أهل العلم مع عزو الكلام الى قائله، وتمحيص السليم من السقيم فيه. واحتججت بصحيح الحديث مما ورد في كتب أعلام الهدى وأئمة الرشاد من أهل الحديث، فنقلت ما ذكروا مع بيان صحته وتخريجه، وما كان من حديث رواه البخاري أو مسلم رحمهما الله تعالى اكتفيت فيه بروايتهما لما استقر عند أهل السنة من صحة شروطهما وقوتها.

فإن كنت وُفقت فيما كتبت وجمعت فبفضل الله وحده وتوفيقه، وما أخطأت فيه من شيء فمن نفسي ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه. والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكتب لنا الأجر والرضوان، والحمد لله على نعمه وفضله.

هذا هو الطريق

أرسل الله سبحانه رسوله بالهدى ودين الحق، وجعل الكتاب الحكيم على ما أتى به محمد صلى الله عليه وسلم حجة ودليلاً، وجعل القرآن بوابة العابرين الى طريق الحق والهدى، وأودع فيه من مكنون رحمته، وعظيم حكمته، ما يبهر الألباب، ويهدي للخير والصواب. فأعجز به المنكرين، وأحيا بعضهم وآياته ما مات من قلوب الجاحدين، وبهر العلماء والمفكرين. فمن اهتدى زاده هدى، ومن ضلّ فإنما جعل الله الرجس على قلوب الكافرين. وأعجب ما يمكن ان يشاهده الإنسان من غرائب الأحوال غفلة أهل الإيمان عن كتابهم، وما فيه من البيّنات الساطعات، التي لو ساروا على نهجها؛ واهتدوا بمهديها لتبدّلت أحوالهم إلى أحسن الأحوال. ولكنهم اغتروا بالدنيا وزخرفها، فوكلهم الله الى أنفسهم، فذلوا بعد عزة، وهانوا بعد كرامة، فلا دامت لهم دنيا ولا استقام لهم دين.

ولقد افتتح الله جل وعز كتابه بفاحة الكتاب، لتحدد للناس منهج تعاملهم مع كتاب الله، مع بيان الحال والمآل. فحدد أصنافاً ثلاثة تتعامل مع الوحي المنزل من الله، فمن أخذ بطريق المهتدين الذين أنعم الله عليهم، فقد سلك طريقاً لا تعاريج فيها ولا أوهام، ومن سلك غير ذلك فقد ضل سعيه في الحياة الدنيا، وان كان يحسب أنه من الذين يحسنون صنعا.

ولما كانت أولى طرق الرشاد اتباع سبيل الذين انعم الله عليهم كما ذكر في سورة الفاتحة، فقد افتتح سورة البقرة بالتعريف بهم، لكي لا يتأول الناس الآيات على غير ما أراد الله سبحانه، اذ لما كان طلب الذين آمنوا من ربهم إهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، فاقتضت الدلالة أن يرشدتهم الى مسألتين

الأولى: الصراط المستقيم الذي عليهم أن يسيروا عليه.

الثانية: صفات الذين أنعم عليهم ممن يسيرون على هذا الصراط المستقيم.

وجاءت الآيات في الفاتحة تذكر الأصناف التي خلقها الله في تعاملها مع منهج الله مجرد ذكر دون تفصيل، ثم جاءت آيات سورة البقرة تكشف الملام الأساسية لكل صنف، ولتجذب انتباه الداخلين الى عالم الوحي الرباني، وما فيه من أسرار العظمة، ووضوح البيان. ولتؤكد على حقيقة مهمة تقوم على أن هذا الكتاب كلُّ متكامل، تستطيع الغوص في كل جزء منه على حدة، وتستخرج لآلئ الحكمة في كل آية من آياته، لكنك لن تحصل المطلوب إلى إذا رجعت الأبعاض الى أصلها الواحد، فأخذت بالكل دون التجزئة.

ولو أجرينا مقابلة بسيطة لما ورد في الفاتحة وما ورد في افتتاحية سورة البقرة لوجدنا مسألة في غاية الأهمية، تدلنا على فهم الآيات على ما يجب ربنا ويرضى، فقد جاء ما طلبه الناس في سورة الفاتحة بقولهم " اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ " الذين أنعم الله عليهم يقابلها تعريف بالصراط المستقيم وتعريف بالذين أنعم الله عليهم إذ قال ربنا سبحانه: " ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ " البقرة 2، فالذين طلبوا في الفاتحة الهدى والصراط هم المتقون فقال لهم الله سبحانه الصراط الذي طلبتم ان تهتدوا اليه سيهديكم اليه هذا الكتاب دون ذرة شك إن كنتم من المتقين. ثم نجد أن المغضوب عليهم هم الذين لا ينتفعون بالآيات والهدى " سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ " البقرة 6، فمن غضب الله عليه لا يمكن أن ينتفع بما أنزل الله من الآيات والحكمة. وأما الضالون فيقابلهم قوله تعالى: " وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ " فهؤلاء ايمانهم مجرد قول أجوف فارغ المحتوى، ومحصلته عمل بلا علم. ومقصود العلم هنا اليقين بما تعلم ومآل العمل به.

إن المطلب الأساس لتحقيق الدخول في النعيم لا يتحقق الا بالدخول في أمة المتقين، إذ هو مطلب الهداية، ولكن الرب سبحانه قيّد الهداية المطلوبة بقيد لا تتحق الا به، فقد يطلب الانسان ان يهتدي للوصول الى مآرب دنيوي، أو غاية ومنفعة عاجلة، ولذلك جعل الله سبحانه طلب الهداية مقيدا بكلمة الصراط المستقيم، ليُعلم أن المقصود طلب الهداية إلى الطريق الموصل إليه، فلا يصل المخلوق الى ربه سبحانه إلا بأن سلك الطريق الذي جعله موصلا اليه، فلا يصلح أي طريق دونه، ولهذا جاءت الدلالة عليه واضحة لا لبس فيها ولا غموض، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، ولهذا جاء النص النبوي كما في حديث ابي شريح الخزاعي قال: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «أَبْشِرُوا أَبْشِرُوا، أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا»¹.

وبالدخول الى رياض القرآن وحدائقه الزاهرة وبساتينه اليانعة بحثا عن شجرة الهدى لاقتطاف الثمرة المتمثلة بالصراط المستقيم، نجدتها باسمها وتفصيلها كما أخبر عنها سبحانه وتعالى بقوله: " وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " الانعام 153. وبهذا يتضح الارتباط الوثيق بين كافة عناصر المعادلة، والتي لا يتحقق للانسان نتائجها وثمرتها بفقدان شيء منها، هدى + صراط مستقيم = تقوى.

فمن أراد الانضمام الى معسكر المتقين لا بد له من تحقيق السير على الصراط المستقيم، ولكي يسير الإنسان على هذا الصراط المستقيم لا بد له من أن يهتدي إليه، ولا بد

¹ أخرجه ابن ابي شيبة في المصنف 30006، وابن حبان في صحيحه 122، وصححه الالباني في السلسلة الصحيحة 713.

من خارطة تبين له معالم السير لكي لا تختلط عليه السبل والطرق، والخارطة هي الكتاب الذي أنزله الله لا ريب فيه، فإن غمّ على الإنسان شيء من هذه الخارطة فلا بد له من مفتاحها المتمثل بسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن أعظم ما يمتاز به هذا المنهج الرباني هو انتفاء العبثية في كله وأبعاضه، وذلك مما يتمثل في حقيقة الأداء المرتبطة بعدالة الجزاء، وفي كلتا الحالتين أداءً وجزاءً لا فائدة إلا للعامل نفسه، إذ الرب سبحانه هو الغني اسماً وصفة عن خلقه جميعاً، "وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ، يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ" الأنبياء 19-20. وفي الحديث عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: "إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَنْطَبَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعٌ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ. لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَلَخَرَجْتُمْ عَلَيَّ، أَوْ إِلَى، الصُّعَدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ" ¹.

وما يؤديه الناس من عمل إنما هو خير لأنفسهم هم أو شرا يعود عليهم سواء في الدنيا أو الآخرة، إذ يتمتع على الإنسان بكفره ايقاع ضرر على الرب سبحانه كما يتمتع عليه ايقاع النفع بطاعته، وفي الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله عز وجل أنه قَالَ: " يَا عَبَادِي، إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتَهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا. يَا عَبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتَهُ، فَاسْتَطْعَمُونِي أَطْعَمْتُكُمْ. كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتَهُ، فَاسْتَكْسَوْنِي أَكْسَمْتُكُمْ. يَا عَبَادِي، إِنَّكُمْ تَخْطَعُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ. يَا عَبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ

¹ رواه احمد 21515، والترمذي 2312، والحاكم 3883، والبيهقي في الكبرى 13337، وصححه الالباني في تراجماته الألباني وفي الحديث زيادة لا تصح بقوله وما تلذذتم بالنساء على الفرش وفيه موقف على أبي ذر بقوله رضي الله عنه وددت لو أني شجرة تعضد.

تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبّادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا. يا عبّادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئا. يا عبّادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، وسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا دخل البحر. يا عبّادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يُلومن إلا نفسه¹.

وهكذا يتضح مراد الله من خلقه، وحكمته فيما افترض عليهم، "أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ" المؤمنون 115، فما الرجعة إلا ليجد الإنسان جزاء ما عمل في الدنيا من جهد مدخراً عند الله خيرا ونعيما سرمديا في الآخرة، "وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا يُنْفِسْكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ" البقرة 272.

لكن ليتحقق هذا لا بد من الوصول الى معالم الصراط المستقيم الذي يضمن تحقيق الوعد الإلهي، ولا بد أن يظهر الصراط واضحا جليا للسائرين، فما للأعمى أن يهتدي لما لا يرى، وما للجاهل أن يسير الى طريق على غير هدى، ولهذا جاء النداء الرباني لنبيه صلى الله عليه وسلم دالاً الناس الى الاتجاه الصحيح الذي يجب ان يسلكوه فقال سبحانه: قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ" الأنعام 161-163.

¹ رواه مسلم 375

وفي الخطاب الرباني للنبي صلى الله عليه وسلم تتجلى حقيقة ساطعة تنبأ الناس وتنبههم إلى أن الطريق الذي يسلكون وإن برزت معاملته في الكتاب فلن يهتدي أحد بنفسه إليه حتى يسير على هدي من أنزل عليه الكتاب، واقتفاء أثره والاقتداء بسنته، وما ضل أقوام إلا بتركهم الهدى في اتباعه ومخالفة أمره، ولهذا جاء التحذير الإلهي واضحا من اتباع غير هذا المنهج الذي هُدي إليه محمد صلى الله عليه وسلم فقال سبحانه: وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" الانعام 153. فالسبيل واحد مستقيم، لا تفرعات فيه ولا تعرجات، وله دليل واحد لن يهتدي أحد إن خالفه، جعله الله سبحانه نورا وسراجا مبينا يكشف للناس ما أجهم عليهم، ويضيء الطريق للسالكين، فهو واقف على رأس الطريق ليردشدهم، ينادي المؤمنين " قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ" يوسف 108.

وعلى مدار سور القرآن كلها يتجلى للمسلم صور ناطقة، ومشاهد حية لكل صنف من أصناف البشر، يُجَلِّها ربنا سبحانه بالمثُل والتصوير للحدث بيانا للمراد وتوضيحا له، وذلك إتماما للبيان وإقامة للحجة.

المؤمنون

لا شك أن التوحيد هو أول حقيقة يجب أن يتمثلها الإنسان في حياته، ذلك أن من الظلم عدم إعطاء كل ذي حق حقه، ولما كان الإنسان لا يضر الله شيئاً، فإن الظلم هنا عائد على ذات الإنسان ونفسه، وهو ما ذكره الله سبحانه وتعالى إليه في غير موضع في القرآن الكريم، ومنه ما أوصى به لقمان ولده قائلاً: [وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ] [لقمان 13]، وهو ما أخبر عنه ربنا سبحانه بقوله: [إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ] [يونس 44]، ثم جاءت الآيات لتربط الإنسان بحقيقة وجوده، بل ورفعته وكرامته عند الله بشرف المهمة التي أناطها به سبحانه، وهي حقيقة من حقائق القرآن يجب أن لا تغيب عن ذهن الإنسان وذاكرته، لكي لا ينسى حقيقة وجوده وكرامته على الله سبحانه.

تكررت قضية خلق آدم وقصة وجوده في مواضع عدة من القرآن الكريم، فأخبر سبحانه عن خلق آدم وأمره للملائكة بالسجود له، وامتنأهم لأمر ربهم جل وعز إلا إبليس، ولو لم يأت دليل على أن الإنسان خُلق وفُطر على الهدى والإيمان لكفى بهذا دليلاً، إذ ما كان الله سبحانه ليُسجد الملائكة المؤمنين لمن لم يكن على الإيمان، وهو دليل على أن بدأ الإنسان عند تكوينه وخلقه مجبول على الإيمان مفطور عليه. وما كان لغير المؤمن أن يسكن الجنة، ولهذا جاء الأمر الإلهي بطرد إبليس من الجنة لما عصى وكفر،: [قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ] [الاعراف 13].

وعندما استزل الشيطان آدم فأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها، أخرجته وزوجه من الجنة، رغم أنه استغفر وتاب، قال تعالى مخبراً عن ذلك: [فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ هُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ

فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى [طه 121 – 122]، ذلك أن الجنة دار جزاء لمن أطاع، وليست دارا للمعصية. ولكن حقائق القرآن لا تنتهي، وعجائبه لا تنقضي، فآدم مذ أخبر الله سبحانه ملائكته قبل خلقه بأنه سيخلقه؛ أبلغهم بأن آدم مخلوق للأرض. قال جلّ وعزّ: [وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ] [البقرة 30]، وكان في هذا الحوار الرباني بيان لحقيقة فيها الجواب عما سأل الملائكة ربهم عنه، فجعله سرا في قوله سبحانه: [قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ] [البقرة 30].

وقد بدأت دلائل السر تتضح للملائكة ولإبليس، ومن بعدهم لآدم بعد تتابع الأحداث. فقد حُدِّدت مهمة آدم قبل خلقه، أنه مخلوق ليكون خليفة في الأرض، ثم يأتي الأمر الإلهي: [وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ] [البقرة 35]. وكانت هذه المسألة هي أولى المسائل التي كشفت الغموض الذي اكتنف الأمر كله منذ بدايته، والذي لم تدركه الملائكة عندما أبلغهم الله سبحانه بالأمر، وأخفى عنهم حكمته فيه، حيث كان في إسكان آدم الجنة، ثم إبقاء إبليس رغم عصيانه واستكباره، والأمر الإلهي بطرده، ثم وسوسته لآدم، ومعصية آدم واستغفاره وتوبته، ثم الأمر بنزوله إلى الأرض مسائل في غاية الأهمية ومن ذلك:

الأولى: أن الجنة ليست دار عمل ولا تكليف، وهو ما كان معلوما للملائكة ولإبليس، وما أخبرتنا به نصوص الوحيين، ومن ذلك ما أخرجه مسلم في باب صفة الجنة من حديث جابر رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « يَا كُلُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ، وَلَا يَتَعَوَّطُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ وَلَا يَبُولُونَ، وَلَكِنْ طَعَامُهُمْ ذَلِكَ جُشَاءٌ

كَرَّشِحِ الْمِسْكِ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالْحَمْدَ، كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفْسَ»¹، فكان صدور الأمر بالنهي عن الأكل من الشجرة تكليف، لتحقيق الأمر الأول باستخلافه في الأرض. فعلمت الملائكة أن الأمر لن يطول بآدم في الجنة، وأنه سيحدث فيها ما سيخرجه منها. وعلم إبليس ذلك أيضاً، وأراد أن يُسارع بإخراج آدم من الجنة؛ ظناً منه أن خروجه آدم من الجنة سيسهل عليه إغواءه وذريته من بعده، بما سيعرض له من التعب والشقاء على الأرض. وهذا مما علمه من قوله تعالى: [فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى] [طه 117-119]، ثم تجلّت الحقيقة الثانية بأن الفطرة الأيمانية ستدفعه للاستغفار مما يطرأ عليه من المعصية ومجانبة الصواب.

الثانية: أن الوطن الأساس لآدم وذريته هو الجنة، وأن إسكانه فيها وخلقه بقربها قبل مباشرة مهمته في الأرض ليظل الشوق اليها محتدماً في نفسه ونفس ذريته من بعده، ليكون دافعاً يدفعهم دائماً للعمل للعودة اليها لأنها موطنهم الاصيلي، كما قال الشاعر ابو تمام²:

نَقَلْ فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ
كَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلَفُهُ الْفَتَى وَحَيْنُهُ أبدأً لِأَوَّلِ مَنْزِلِ

¹ رواه مسلم 2835

² أبو تمام 188 - 231 هـ / 803 - 845م، حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، أحد أمراء البيان، ولد بمدينة جاسم من قرى حوران بسورية) ورحل إلى مصر واستقدمه المعتصم إلى بغداد فأجازته وقدمه على شعراء وقته فأقام في العراق ثم ولي بريد الموصل فلم يتم سنتين حتى توفي بها.

الثالثة: أن الله قد كرم الإنسان على كافة ما خلق الله، إلا أن هذا التفضيل ليس مطلقا على عواهنه، فلا يمكن بحال من الأحوال تفضيل كافر أو منافق على ملائكة الرحمن، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولهذا ورد النص القرآني بأن بعض البشر كالأنعام بل هم أضلّ. ولذلك فإن تفضيل الإنسان على الملائكة مرهون بحسن الطاعة، وإقامة التوحيد، والعمل بالأمر والنهي. ومن أهل العلم من قال أن البشر يفضلون على الملائكة يوم القيامة بعد دخولهم الجنة، وفيه نظر نظرا للأدلة الدالة على تفضيلهم في الدنيا والآخرة.

وقد تناول شيخ الإسلام المسألة وخص قضية التفاضل بين الملك والبشر؛ أو بين صالحى الملك والبشر بأربعة أنواع:

النوع الأول أن يقال: هل كل واحد من آحاد الناس أفضل من كل واحد من آحاد الملائكة؟! فهذا لا يقوله عاقل فإن في الناس: الكفار والفجار والجاهلين والمستكبرين والمؤمنين، وفيهم من هو مثل البهائم والأنعام السائمة؛ بل الأنعام أحسن حالا من هؤلاء كما نطق بذلك القرآن في مواضع، مثل قوله تعالى. {إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون}. وعلل ذلك بعدة أسباب منها: أن البهائم لها شهوة لكنها لم تؤت تمييزا وفرقانا بين ما ينفعها ويضرها والإنسان قد أوتي ذلك. وهذا الذي يقال: الملائكة لهم عقول بلا شهوات، والبهائم لها شهوات بلا عقول، والإنسان له شهوات وعقل. فمن غلب عقله شهوته فهو أفضل من الملائكة، أو مثل الملائكة. ومن غلبت شهوته عقله فالبهائم خير منه. لأنها في مأمن من العذاب يوم القيامة ولأنها تسبح الله ولا تكفر به.

النوع الثاني: أن يقال أنّ مجموع الناس أفضل من مجموع الملائكة. وهذا مردود، إذ لو صح هذا في الحكم على البشر، كما في تفضيل مجموع القرن الثاني على القرن الثالث؛ مع علمنا أن كثيرا من أهل القرن الثالث أفضل من كثير من أهل القرن الثاني، فإن هذا لا يصح في تفضيل مجموع البشر على الملائكة. إذ الأكرم عند الله الأتقى، وكذلك من قوله تعالى: [**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**] [الحجرات 13].

النوع الثالث: أنا إذا قابلنا الفاضل بالفاضل، والذي يلي الفاضل بمن يليه من الجنس الآخر، فأبي القليلين أفضل؟ فهذا مع القول بتفضيل صالحى البشر، يقال: لا شك أن المفصولين من الملائكة أفضل من كثير من البشر، وفاضل البشر أفضل من فاضليهم، لكن التفاوت الذي بين " فاضل الطائفتين " أكثر والتفاوت بين " مفصولهم " هذا غير معلوم، والله أعلم بخلقه.

النوع الرابع أن يقال: حقيقة المَلِكِ والطبيعة المَلِكِيَّة أفضل أم حقيقة البشر والطبيعة البشرية؟ ورأى شيخ الإسلام أن حقيقة المَلِكِ أكمل وأرفع وحقيقة الإنسان أسهل وأجمع. وتفسير ذلك: أنا إذا اعتبرنا الحقيقتين، وصفاتهما النفسية، والتبعية اللازمة الغالبة - الحياة والعلم والقدرة - في اللذات والشهوات، وجدنا أولا خلق المَلِكِ أعظم صورة، ومحلّه أرفع، وحياته أشد، وعلمه أكثر، وقواه أشد، وطهارته ونزاهته أتم، ونيل مطالبه أيسر وأتم، وهو عن المنافي والمضاد أبعد. لكن تجد هذه الصفات للإنسان - بحسب حقيقته - منها أوفر حظا ونصيبا من الحياة، والخلق، والعلم، والقدرة، والطهارة، وغير ذلك. وله أشياء ليست للمَلِكِ من إدراكه دقيق الأشياء حسا وعقلا، وتمتعه بما يدركه بيدنه وقلبه، وهو يأكل، ويشرب، وينكح، ويتمنى، ويتغذى¹.

¹ مجموع الفتاوى لابن تيمية 350/4 - 354.

لكن أصح الأقوال قي ذلك ما عليه جمهور أهل السنة: أن الانبياء وصالحى البشر يفضلون على الملائكة، إلا أن اهل العلم كانوا يرون الخوض في تفضيل الانس على الملائكة من فضول الكلام، كما ذكر ابن ابي العز في شرح الطحاوية.¹

ولو نظرنا الى مسألة التفضيل بناء على الحالة النفسية للبشر كما ذكرها القرآن الكريم، فلربما يقودنا ذلك الى الوصول الى حقيقة المسألة، بعيدا عن الخوض في تأويل الآيات، إذ ما وقع الخلاف في المسألة إلا بسبب التأويلات. ولا شك أن التأويل رأي، قد يحتمل الصواب، وقد يحتمل الخطأ. أما لو تناولنا الأمر من زاوية النفس الإنسانية وتقلباتها فسنجد القرآن الكريم يوصلنا إلى نتائج قد ترتاح لها النفس في ظل الخلاف المحتدم بين من تنازعوا المسألة، سواء في الفريق الواحد أو الفرق المختلفة². فالإنسان وإن كانت فطرته الخير ابتداءً، إلا أنه غير معصوم من الوقوع في الزلل والمعصية، وفي الحديث عن ابي هريرة رضي الله عنه: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبَيْضًا مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِیضُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَّمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ دَاوُدُ فَقَالَ: رَبِّ كَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً، قَالَ: أَيُّ رَبِّ، زِدْهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا قُضِيَ عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَقَالَ: أَوْلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوْلَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ قَالَ: فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنُسِّيَ آدَمَ فَنُسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَحَطِيَ آدَمُ فَحَطِيَتْ

¹ شرح العقيدة الطحاوية لابن ابي العز ص 290، د

² المقصود أن الخلاف قد وقع بين أهل السنة وغيرهم وقد ذهب المعتزلة، وبعض الأشاعرة، وابن حزم، وبعض أهل السنة، وبعض الصوفية الى تفضيل الملائكة على البشر مطلقاً، وذهب جمهور أهل السنة وجمهور الأشاعرة الى تفضيل الأنبياء وصالحى البشر على الملائكة

وعليه فقد دلت النصوص على أن للتفضيل ضابط لا يمكن الخروج عليه، يقوم على التقوى والتزام أمر الله سبحانه. ولما كان البشر في ذلك متفاوتين بناء على سيطرتهم على النفس، وإلزامها الطاعة، فقد قسم الله سبحانه المكلفين تبعاً لحالهم، مع النفس وجهادها إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: النفس المطمئنة:

وهي النفس التي أُنارت بنور القلب حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة، وتخلقت بالأخلاق الحميدة². فهي النفس التي استقر فيها الإيمان، فهي مستسلمة لمقتضياته أمراً ونهياً، مؤمنة بأن ما فيه خير لها، فتصبر على اللأواء والبلوى، وتشكر على النعمة والخير، وترى في كل منهما خير، فلا تضطرب لتغير الأحداث، ولا تجزع لمداهم الخطوب، إذ آمنت أن ما يصيبها إنما هو بقدر الله سبحانه، [قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ] [التوبة 51]، وهي إذ كان حالها في الدنيا على هذا الإيمان استحقت بذلك أن تلقاه عند موتها، كما في الحديث عن البراء بن عازب رضي الله عنه، قَالَ: " حَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَنْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ، وَلَمَّا يُلْحَدُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُوْدٌ يَنْكُثُ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: " اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا، "، ثُمَّ قَالَ: " إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعِ

¹ رواه الترمذي 3076، والبخاري 8892، والحاكم 3257، وابن حبان 6167، والهيتمي في موارد الظمان 2082، وصححه

الألباني في مشكاة المصابيح 4662

² التعريفات للجرجاني ص 243.

مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهُهُمْ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتْهَا النَفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ ". قَالَ: " فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ القَطْرَةُ مِنْ فِي السَّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةٍ مِنْكَ وَوَجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ " قَالَ: " فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ، يَعْنِي بِهَا، عَلَى مَلَأٍ مِنَ المَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ بِنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيَشِيعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عَلِيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أَعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أَخْرَجْتُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ". قَالَ: " فَتَعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيَجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عَلِمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَقْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الجَنَّةِ ". قَالَ: " فَيَأْتِيهِ مِنْ رُوحِهَا، وَطِيبِهَا، وَيُفْسَخُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ ". قَالَ: " وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبَشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجَّهَكَ الوَجْهَ يَجِيءُ بِالحَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى

أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي، وَمَالِي"¹.

ولما كان أحد مقاصد القرآن الكريم بناء النفس المطمئنة؛ التي تخلد للسكينة رغم ما يعترضها في طريقها الى الله سبحانه، فقد جاءت الآيات دالة الى أن الوصول الى هذا الشرف العظيم، والمرتبة الرفيعة، أمر عظيم لا بد فيه من الجد والاجتهاد، والصبر والتحمل، واتخاذ الأسباب الواجبة الموصلة إليه. وفيما طلب إبراهيم من ربه عبرة وآية [وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لَيْطُمِّنَنَّ قَلْبِي] [البقرة 260]، وليس مقصود ابراهيم عليه السلام الشك في قدرة الله سبحانه، ولكنه بيان لمعنى الإطمئنان المنشود، وفي تفسير ذلك قال القرطبي: سألتك ليطمئن قلبي بحصول الفرق بين المعلوم برهانا والمعلوم عيانا. والطمأنينة: اعتدال وسكون، فطمأنينة الأعضاء معروفة، كما قال عليه السلام: (ثم اركع حتى تطمئن راععا). وطمأنينة القلب هي أن يسكن فكره في الشيء المعتقد. والفكر في صورة الإحياء غير محذور، كما لنا نحن اليوم أن نفكر فيها، إذ هي فكر فيها عبر، فأراد الخليل أن يعاين فيذهب فكره في صورة الإحياء"².

ولما كان الوصول الى الطمأنينة من أعظم مقاصد السالكين الى الله سبحانه، ذلك أن مآل اصحاب النفوس المطمئنة سكينه ورضا في الدنيا والآخرة، فأراد سبحانه أن يلفت أنظار المؤمنين أن الوصول إليها يحتاج الى الصبر والمثابرة وتحمل المشاق والشدائد، كما قال المتنبي³:

¹ اخرجاه احمد 18534، والحاكم 107، وابن ابي شيبة 12059، وعبد الرزاق في المصنف 6737 وصححه الالباني في

مشكاة المصابيح 1630

² الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي 300/3.

³ ديوان المتنبي ص 261.

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الاجسام

ولم تكن رحلة إبراهيم لتحقيق الطمأنينة المنشودة مسألة سهلة، كما قد يتخيل البعض فقد جاءه الأمر الإلهي: [قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] [البقرة 260]، وأيا كان الصواب في أقوال المفسرين في كيفية تقطيع الطيور، وكيفية وضع الاقسام على الجبال، فقد دلت الآثار على أنه عليه السلام قد وضع أقسام الطيور على أربعة جبال، كما في الأثر عن ابن عباس قال: قطعهن، ثم اجعلن في أرباع الدنيا، رُبْعًا ههنا، ورُبْعًا ههنا، ثم ادعهن يأتينك سعيًا¹، وللإنسان أن يتخيل مقدار ما بذله ابراهيم عليه السلام ليصل الى ذروة كل جبل من هذه الجبال، متنقلا بينها ليضع عليها أقسام الطيور.

المسألة للوهلة الأولى قد تبدو سهلة هينة، وما زال الناس يستسهلون المسائل لتلقيهم لها كأخبار مجردة؛ دون أن يصاحب ذلك تصور للحدث، ولما كانت حقائق الشيء لا تنجلي إلا بتصور الأحداث، وجه النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى جعل الخبر كصورة مشاهدة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لَيْسَ الْخَبْرُ كَالْمُعَايَنَةِ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَحَبُّ مُوسَىٰ بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي الْعَجَلِ، فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاحَ، فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا، أَلْقَى الْأَلْوَاحَ فَانْكَسَرَتْ"²، وفي المثال الذي ضربه النبي صلى الله عليه وسلم شرح للمسألة كلها. فالله سبحانه وتعالى عندما أتى موسى بالألواح وأخبره بخبر قومه وعبادتهم العجل، تملك منه الغضب على فعلهم، لكنه رغم ما اعتراه من الغضب لم يُلْقِ الألواح، ولم ييال - كما في رواية ابن حبان - إذ لم يكن الغضب

¹ تفسير الطبري 502/5

² رواه أحمد 2447، والحاكم 3250، والطبراني في الأوسط 25، وابن حبان 6213، وصححه الذهبي على شرط الشيخين،

والألباني في السلسلة الصحيحة 1008/6

متوازيا مع حجم الجرم الذي ارتكبه قومه باتخاذ العجل ربا من دون الله سبحانه. لكنه عندما جاء وعاین الحدث بعينه، بلغ الغضب أشده، الى درجة أنه القى الألواح فتكسرت، وقد أخبر الله سبحانه عن ردة فعل موسى عند سماع الخبر أولا، ثم عند معاينته فقال تعالى: [وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَا حَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ] [الأعراف 150].

كذلك في قصة ابراهيم عليه السلام، وتقسيم الطيور، ووضعها على رؤوس الجبال، ومناداتها لتعود حية تسعى. فإن مجرد تسلق جبل واحد يستنزف طاقة الإنسان، ويسبب له عنتاً شديداً، فما بالك والحديث يدور عن الذهاب الى اربعة جبال يتسلقها جميعاً، ناهيك عن المسافات بينها. وفي هذا إشارة إلى مقدار الجهد الذي يبذله صاحب الإيمان للوصول الى حقيقته المطلقة، وليصل إلى درجة اليقين بالمشاهدة لا بالخبر، وهذا ما ميّز الرعيل الأول من المؤمنين الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلم يكن آل ياسر وغيرهم ليصلوا الى هذا المستوى الإيماني العظيم؛ فيصبروا على العذاب الشديد، وقسوة الألم، لمجرد سماع كلمة من النبي صلى الله عليه وسلم، فلو لم تكن الكلمة في أذهانهم صورة حقيقة تكشف لهم تفاصيلها، حينما كان يقول لهم « صَبْرًا يَا آلِ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةَ »¹، لما استمدوا من ذلك. ولهذا شمر أهل الجد عن جدهم للوصول الى عالي قمم الإيمان تحقيقاً للطمأنينة المنشودة على منهج ابيهم إبراهيم، صابرين محتسبين كما فعل أصحاب الرسالات والدعوات من الأنبياء والمرسلين ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم، لا يقبلون الدنية في دينهم، ولا المداينة في الإيمان ومتطلباته طلباً لدنيا، أو خوفاً من أذى أو ضياع منفعة أو مصلحة.

النوع الثاني: النفس اللوامة:

هي التي تنوّرت بنور القلب قدر ما تنبهت به عن سنة الغفلة، كلما صدرت عنها سيئة، بحكم جبلتها الظلمانية، أخذت تلوم نفسها وتتوب عنها¹. وقيل هي التي لم تسكن تحت الأمر الإلهي سكونا مطلقا، فصارت مدافعة للشهوات وتعترض عليها، فسميت لوامة لأنها تلوم صاحبها بتقصيرها في عبادة مولاه². وقد ذهب الزمخشري إلى عدة أقوال منها: أنها نفس تقية تلوم ذاتها يوم القيامة على تقصيرها في التقوى وترك الزيادة إن كانت محسنة. وعلى التفريط إن كانت مسيئة. وقيل: هي نفس آدم، لم ترل تتلوم على فعلها الذي خرجت به من الجنة. وعن الحسن: إن المؤمن لا تراه إلا لائما نفسه، وإن الكافر يمشى قدما لا يعاتب نفسه³. وغاية القول في المسألة اللوامة أنها مشتركة بين المؤمن والكافر، فنفس المؤمن لوامة له في الدنيا عند الزلل والتقصير، وبعد الموت على قلة الإستزادة من الخير لما يرى من عظيم الجزاء. ونفس الكافر اللوامة معطّلة في الدنيا، لكنها لوامة للكافر على عدم إيمانه بعد أن يتيقن عند موته أن وعد الله حق، فتلومه على عدم الإيمان.

وهاتان الصفتان للنفس سواء المطمئنة أو اللوامة صفتان لنفوس المؤمنين؛ بحسب ما وقر فيها من الإيمان. فالمطمئنة ارتفعت بإيمانها بما ألزمت ذاتها به من العمل الصالح فما زالت تزداد إقبالا عليه، عملا بالأمر وتركها للنهي. فسكنت تحت الأمر الإلهي بما رسخ فيها من الفضائل، واستقر في كبنونتها من حسن السمائل، وتطهرت بخشية ربها من

¹ الجرجاني: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: 816هـ)، كتاب التعريفات ص243، تحقيق: مجموعة

من العلماء بإشراف الناشر، الطبعة: الأولى 1403هـ - 1983م، دار الكتب العلمية بيروت

² ، دستور العلماء للفاضي نكري 286/3.

³ الكشاف للزمخشري 659/4.

خسيس الرذائل. فارتفع الإيمان بها الى مراقبي العلى، إذ الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. قال تعالى: [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ] [الانفال 2]، وقال سبحانه وتعالى: [هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا] [الفتح 4]، فما أنزل السكينة عليهم إلا بما علم من استقرار الإيمان في قلوبهم، وعملهم بمقتضيات أمره ونهيته ورغبة ورهبة. فزادهم بحسن اليقين والعمل إيماناً الى إيمانهم. وقد دلت الأحاديث على أن الإيمان يزيد وينقص. ومن أدلته ذكر مستويات الإيمان كما في حديث الشفاعة عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم ومنه قوله: " فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، اِرْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ: يُسْمَعُ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: انْطَلِقْ، فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ بَرَّةٍ، أَوْ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَأَخْرَجَهُ مِنْهَا، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَىٰ رَبِّي فَأُحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، اِرْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ لِي: انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرَجَهُ مِنْهَا، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَىٰ رَبِّي فَأُحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، اِرْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ لِي: انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَذْنَىٰ أَذْنَىٰ مِنْ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرَجَهُ مِنَ النَّارِ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ" ¹.

وكذلك حديث عمر بن الخطاب قال: لما كَانَ يَوْمَ حَيْبَرَ، أَقْبَلَ نَفْرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: فَلَانَ شَهِيدًا، وَفُلَانَ شَهِيدًا، حَتَّىٰ مَرَوْا عَلَىٰ رَجُلٍ فَقَالُوا:

¹ متفق عليه، رواه البخاري 7410، ومسلم 193

فَلَانَ شَهِيدًا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَلَا، إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بَرْدَةٍ غَلَّهَا. أَوْ عِبَاءَةً " ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَذْهَبَ فَنَادِي فِي النَّاسِ: أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ " قَالَ: فَخَرَجَتْ وَنَادَيْتُ: أَلَا إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ¹.

قال أبو حاتم . رضي الله عنه .: في هذا الخبر دليل على أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وفيه دليل على أن المؤمن ينفي عنه اسم الإيمان بالمعصية إذا ارتكبها لا الإيمان كله، كما أن الطاعة يطلق على من أتى بها اسم الإيمان لا الإيمان كله². وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا زَنِى الرَّجُلُ خَرَجَ مِنْهُ الْإِيمَانُ كَمَا كَانَ عَلَيْهِ كَالظُّلَّةِ، فَإِذَا انْقَطَعَ رَجَعَ إِلَيْهِ الْإِيمَانُ»³

النوع الثالث: النفس الأمارة بالسوء:

وسنعرض للكلام عن النفس الأمارة بالسوء في معرض كلامنا عن الصنف الذي غلبت عليه بإذن الله تعالى. ولا يفوتنا معرفة الحقائق التي أخبر عنها الله تعالى وأراد من الانسان عدم الغفلة عنها ومنها:

أن الشيطان للإنسان عدو مبین، وأن على الإنسان إدراك هذه العداوة ومخاطرها لتتمكن من قلبه، لما يترتب على هذه العداوة من الحرص والحذر من الوقوع في حبال هذا العدو؛ ومخططاته الهادفة إلى هزيمة الإنسان وسلوكه على غير منهج الله؛ ليكون مآله الشقاء. ولهذا نجد أن الرب سبحانه وتعالى كرر التذكير والتحذير من الشيطان وعداوته

¹ صحيح مسلم 114

² التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان 209/7

³ رواه ابو داود 4690، وصححه الالباني في صحيح ابي داود

في كثير من آيات الكتاب الحكيم. سواء في معرض تكرار قصة آدم عليه السلام وما تعرض له من وسوسة الشيطان، أو في معرض ذكر الأمر الإلهي للناس بالعمل بأمر الله فيما آتاهم من الطيبات التي يحاول الشيطان صرفهم عنها إلى الخبائث. قال تعالى: [يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوًا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ] [البقرة 168]، ولم يترك ربنا سبحانه قضية العداوة مجرد خبر، بل جاءت الآيات بيان أسباب النجاة من العدو وحبائله، قال تعالى: [قُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى] [طه 117 - 119].

وأن الأرض دار شقاء وأن من أراد الراحة فيه سلك الأسباب الموصلة إليها، وأن الله سبحانه أبلغ عن أسباب الراحة فيها، وكل من خالف ما أخبر الله عنه من أسباب الراحة أتعب نفسه وأشقاها، قال سبحانه: [قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّي ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى] [طه 123 - 125].

وحتى يتحقق للإنسان الخير الذي أراده الله جل وعز، فلا بد له من انتهاج سبيل الإيمان، واتخاذ الإيمان درعا يحميه من غوائل الكفر وسهام المعصية، [وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ] [المائدة 5]. وحتى لا يضل الإنسان طريق الإيمان فقد بيّنه الله تعالى، وبيّن أنه الصراط المستقيم الذي ارتضاه لعباده. فأرسل الرسل، وأنزل معهم الكتاب فيه بصائر وهدى ونور للباحثين عن الهدى. واستنكر على

خلقه الضلال بعد أن أنزل الكتاب، فقال جلّ وعلا: [وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] [ال عمران 101]. وحتى تتضح معالم الطريق للسائرين، ولا يرتاب مرتاب فيما هو سائر فيه؛ فقد أرسل الله الرسل لتبيان ما اختلط على الناس. واقتضت حكمته جلّ وعزّ أن يصطفي من خلقه أنبياء من صفوة الناس حسبا ونسبا، يتكلمون لغتهم، ويعيشون بيئتهم، [وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ] [ابراهيم 4]. ومن رحمته تعالى أن جعل الخير هو مطمح النفس الطيبة، تألفه ويألفها، وأما ما خبث من النفوس فلا يستطيع الإحساس بما استودع الله في الطيبات من اللذة والخير والبركة بعد أن اعتل قلبه ومرضت حواسه كما قال المتنبي¹:

ومن يك ذا فم مُرّ مريض يجد مُرًا به الماء الزلالا

وهو ما أشار إليه سبحانه في وصف الإيمان وثمرته الطيبة فقال سبحانه: [أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ] [ابراهيم 24-25].
فما هو الإيمان؟ وما هي معلمه؟ وما هو أثره في الحياة، وما هي ثمرته؟

إن قيمة الشيء يحددها الأثر الذي يتحقق به من جلب منفعة، أو درء مفسدة عن الناس وبيئتهم، وعن كلّ ما سخره الله لهم من الموجودات، وهو ما أمر به الله سبحانه الخلق فقال سبحانه: [وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] [الاعراف 85]. وعليه فإن معرفة الايمان وثمرته وأثره في الحياة، ثم معرفة معلمه

¹ ديوان المتنبي ص 141.

الأساسية مسائل مهمة ينبغي معرفتها، فإذا ما ثبت جدواها ونفعها لحياة الإنسان،
وجب العمل بها ونشرها وتعميم فائدتها لإصلاح حياة الناس ودفعاً للشر عنهم.

الإيمان

الإيمان لغة: هو مصدر آمن يؤمن إيماناً، فهو مؤمن. واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه التصديق. قال الله تعالى: [قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ] [الحجرات 14]، وهذا موضع يحتاج فهمه، بحيث يُعلّم أين ينفصل المؤمن من المسلم وأين يستويان. فالإسلام إظهار الخضوع والقبول لما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم، وبه يحقن الدم، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب، فذلك الإيمان الذي يقال للموصوف به هو مؤمن مسلم، وهو المؤمن بالله ورسوله غير مرتاب ولا شك.

ومن أظهر قبول الشريعة واستسلم لدفع المكروه فهو في الظاهر مسلم، وباطنه غير مصدق، فذلك الذي يقول أسلمت. لأن الإيمان لا بد من أن يكون صاحبه صديقاً، لأن قولك آمنت بالله، أو قال قائل آمنت بكذا وكذا فمعناه صدقت، فأخرج الله هؤلاء من الإيمان فقال: ولما يدخل الإيمان في قلوبكم؛ أي لم تصدقوا إنما أسلمتم تعوداً من القتل. فالمؤمن مبطن من التصديق مثل ما يظهر، والمسلم التام الإسلام مظهر للطاعة مؤمن بها، والمسلم الذي أظهر الإسلام تعوداً غير مؤمن في الحقيقة، إلا أن حكمه في الظاهر حكم المسلمين. وقال الله تعالى حكاية عن إخوة يوسف لأبيهم: ما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين؛ لم يختلف أهل التفسير أن معناه ما أنت بمصدق لنا، والأصل في الإيمان الدخول في صدق الأمانة التي ائتمنه الله عليها، فإذا اعتقد التصديق بقلبه كما صدق بلسانه فقد أدى الأمانة وهو مؤمن. ومن لم يعتقد التصديق بقلبه فهو غير مؤد للأمانة التي ائتمنه الله عليها، وهو منافق. ومن زعم أن الإيمان هو إظهار القول دون التصديق بالقلب فإنه لا يخلو من وجهين:

أحدهما: أن يكون منافقا ينضح عن المنافقين تأييدا لهم.

ثانيهما: أن يكون جاهلا لا يعلم ما يقول وما يقال له، أخرجته الجهل واللجاج إلى عناد الحق وترك قبول الصواب. وفي قول الله عز وجل: إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون؛ ما يبين لك أن المؤمن هو المتضمن لهذه الصفة، وأن من لم يتضمن هذه الصفة فليس بمؤمن¹.

وليس من قبيل المصادفة أن يأتي فعل الإيمان آمن متوافقا في حروفه وتقارب لفظه مع فعل أمن ليتوافق معنى الإيمان والأمن كفعل ونتيجة. فكأنما يراد بالكلمة إعلان ثمرتها بتوافق الفعل والثمره، وفيه إشارة إلى أن تحقيق الأمن في الحياة لا يتحقق إلا بتحقيق الإيمان، وهو ما قاله الله سبحانه تعالى: [الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّسْتَدُونَ] [الانعام 82].

قال ابو السعادات بن الأثير: في أسماء الله تعالى «المؤمن» هو الذي يصدق عباده وعده: فهو من الإيمان: التصديق، أو يؤمنهم في القيامة من عذابه، فهو من الأمان، والأمن ضد الخوف²، قال الشاعر³:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يُحْيِ ديننا
ومن رضي الحياة بغير دين فقد جعل الفناء له قرينا

¹ تهذيب اللغة للهرودي 368/15-369.

² النهاية في غريب الحديث والأثر 69/1.

³ ديوان محمد اقبال 103/1.

كلمة الايمان ثابتة لا تتغير

عندما يتساءل الإنسان عن كلمة الإيمان فقد يعتقد من لا يعرف الإسلام أن المقصود هو فعل الإيمان الإيمان القلبي؛ وهو مجرد الاعتقاد. والاعتقاد من عقد. يقال: اعتقد فلان عُقْدَةً، أَي اتَّخَذَهَا. وَاعْتَقَدَ مَالًا وَأَخًا، أَيِ اقْتَنَاهُ. وَعَقَّدَ قَلْبَهُ عَلَى كَذَا فَلَا يَنْزِعُ عَنْهُ. وَاعْتَقَدَ الشَّيْءُ: صَلَّبَ. وَاعْتَقَدَ الْإِخَاءُ: ثَبَّتَ. عقد البناء، والجمع أعتقاد وعقود. وعقدت الحبل أعتده عقدا، وقد انعقد، وتلك هي العقدة. أعتدت العسل وانعقد، وعسل عقيد ومنعقد. وعاقدته مثل عاهدته، وهو العقد والجمع عقود. قال الله - تعالى: {أوفوا بالعقود} [المائدة: 1] ، والعقد: عقد اليمين، [ومنه] قوله - تعالى: {ولكن يؤاخذكم بما عقَّدم الأيمان} [المائدة: 89] . وعقدة النكاح وكل شيء: وجوبه وإيرامه. والعقدة في البيع: إيجابه. والعقدة: الضيعة، والجمع عقد. يقال اعتقد فلان عقدة، أي اتخذها. واعتقد مالا وأخا، أي اقتناه. وعقد قلبه على كذا فلا ينزع عنه¹.

والعقيدة في الشرع: انعقاد القلب والتزامه بما انطوى عليه دون شك أو ريب. فكل من انعقد قلبه على شيء والتزمه فهو به مؤمن، لكن مقصود الشريعة في الإعتقاد ينطلق من انعقاد القلب على تعليم الوحيين وما جاءت به الشريعة تصديقا وإقرارا. ولا اعتبار للتصديق والإقرار دون العمل، إذ الطاعات والعبادات إيمان لله وللرسول، ودليل ذلك قوله سبحانه: [وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّفَى الْجُمُعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] [الأنفال 41]، فدلّ على أن إيمانهم بالله ورسوله لا يتحقق إلا بتصديقهم بالتشريع والعمل به، وقد يلتبس الأمر على البعض؛ إذ كيف يكون العمل من الإيمان وحديث الفاروق عمر بيّن واضح لما سأل جبريل النبي

¹ معجم مقاييس اللغة لابن فارس 86/4

صلى الله عليه وسلم عن الاسلام فعدّ أركانه الخمسة، ثم قال: فأخبرني عن الإيمان فعدّ أركانه الستة. وعليه فقد فرّق بين الايمان والاسلام، وجعل الإسلام قائماً على القول والعمل، والإيمان قائم على التصديق فقط. وقد ردّ الحليمي في المنهاج في شعب الايمان على هذا القول قائلاً: " لا خلاف بيننا وبينهم أن الشهادة إيمان كالاعتقاد، وقد سميت في هذا الحديث إسلاماً، وألحقت بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة. فقد وجب بذلك أن يكون الإيمان والإسلام اسمين لدين واحد، وأن تكون الطاعات كلها إيماناً. غير أن الإيمان ما بطن والإسلام ما ظهر، ثم هما جميعاً إيمان، لأنه لا صحة للبطن إلا بالظاهر، ولا بالظاهر إلا بالبطن. وهما جميعاً إسلام، لأن كل واحد من تقويم الظاهر والبطن إذعان لله وخضوع، ولا يكون ذلك إلا مع التصديق"¹.

ولهذا جاء الإسلام ضابطاً لمسألة الإيمان في إطارها الصحيح، فليس انعقاد القلب على الخير إيمان حتى يكون الباعث له كلمة الإيمان وتحت غطائها وضمن دائرتها، وإلا فقدت الكلمات والأفعال روحها وقيمتها، واختلاط الإيمان بما ليس منه لا يعني بحال من الأحوال أن ما اختلط بالإيمان من الشوائب يأخذ صفة الإيمان. وهو ما أشار إليه ربنا سبحانه بقوله: [أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ الْأَمْثَالَ] [الرعد 17].

إن الإيمان يقوم على كلمة التوحيد التي أرسل بها الله الأنبياء وهو ما أوصى به نوح عليه السلام ابنه كما في حديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

¹ المنهاج في شعب الإيمان للحليمي 44/1

" إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ نُوحًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِابْنِهِ: إِنِّي قَاصُّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ: أَمْرُكَ بِاثْنَتَيْنِ، وَأَمْرُكَ بِإِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ، لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَتْ لِإِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ، رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ، كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً، فَصَمْتَهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ¹. وهي شهادة النجاة وتصريح العبور الى الجنة كما في حديث البطاقة عن ابن عمرو رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُنشَرُ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّةُ الْبَصَرِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَلَيْكَ عُدْرٌ، أَوْ حَسَنَةٌ؟ فَيَهَابُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَاتٍ، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ، فَيُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبَطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجَلَّاتِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تُظَلِّمُ، قَالَ: فَيُوضَعُ السِّجَلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبَطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ فَطَاشَتْ السِّجَلَّاتُ، وَثَقَلَتِ الْبَطَاقَةُ².

كلمة التوحيد:

من وحد، قال الراغب الاصفهاني: "الوحدة: الانفراد، والواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له البتة، ثم يطلق على كل موجود، حتى إنه ما من عدد إلا ويصح أن يوصف به، فيقال: عشرة واحدة، ومائة واحدة، وألف واحد، فالواحد لفظ مشترك يستعمل على ستة أوجه:

الأول: ما كان واحدا في الجنس، أو في النوع كقولنا: الإنسان والفرس واحد في الجنس،

¹ رواه احمد 6583، والحاكم 154، والطبراني في الكبير ج7/13 حديث رقم 1، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة 134

² رواه احمد 6993، والترمذي 2639، وابن ماجه 4300، والحاكم في المستدرک 9، والطبراني في الاوسط 4725، والهيثمي

في موارد الظمان 2524، وصححه الالباني في السلسلة الصحيحة 135

وزيد وعمرو واحد في النوع.

الثاني: ما كان واحدا بالاتصال، إمّا من حيث الحلقة كقولك: شخص واحد، وإمّا من حيث الصنّاعة، كقولك: حرفة واحدة.

الثالث: ما كان واحدا لعدم نظيره، إمّا في الحلقة كقولك: الشّمس واحدة، وإمّا في دعوى الفضيلة كقولك: فلان واحد دهره، وكقولك: نسيح وحده.

الرابع: ما كان واحدا لامتناع التّجزيّ فيه، إمّا لصغره كالهباء، وإمّا لصلابته كالأمّاس.

الخامس: للمبدإ، إمّا لمبدإ العدد كقولك: واحد اثنان، وإمّا لمبدإ الخطّ كقولك: النّقطة الواحدة. والوحدة في كلّها عارضة.

وإذا وصف الله تعالى بالواحد فمعناه: هو الذي لا يصحّ عليه التّجزي ولا التّكثّر، ولصعوبة هذه الوحدة قال تعالى: وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ [الزمر/ 45] ، والواحد المفرد، ويوصف به غير الله تعالى (كقولنا رجل واحد)

والسادس: أحد مطلقا لا يوصف به غيره سبحانه: قل هو الله أحد¹.

والتوحيد القائم على كلمة لا إله إلا الله بشقيها النفي والإثبات، إثبات الألوهية له وحده دون غيره. فهو المألوه المعبود الحق، وذلك بنفي الألوهية واستحقاق العبادة عن كل إله يُعبد من دونه سبحانه، إذ ذلك حق له لا منّة عليه. فوحدانيته بما صلاح الموجودات كلها، ما أوجده منها، وما سبق بعلمه قضاؤه بإيجاده، [لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ] [الأنبياء 22]، وفي إثبات العبادة

¹ المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص 857.

المتثلة بالعبودية الحق له وحده سبحانه؛ حقيقة أن تصوّر التعدد في الإله سواء فيما خلق، أو في صرف العبادة لن يأت بخير، لا على الإله المتعدد، ولا على ما ذرأ وأوجد من الخلق.

وقد ضرب الله سبحانه لذلك مثالين للدلالة على الفساد المترتب على تعدد الإله وعدم وحدانيته، فقال سبحانه في المثال الأول المتعلق بالإله نفسه: [مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ] [المؤمنون 91]، وضرب مثالا لشقاء الخلق بتعدد الإله بقوله: [ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ] [الزمر 29]. فالعبد المشترك بين شريكين يعيش مضطربا، لا يستقر، ولا يأمن غضب أحدهما، إن أَرْضَى هذا أغضب ذاك، وإن أَرْضَى ذاك أغضب هذا. وفي كلتا الحالتين لا يأمن السخط والعقاب من أحدهما أو كليهما. فتعدد الإله الى غيره مسألة يرفضها العقل، كما أن تعدد الواحد الى غيره يعني إمكانية التعدد الى أكثر من ذلك. ولهذا استنكر الله فعل المشركين بزعم الشريك له ففند قولهم ودحض إفكهم قائلا: [قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ] [الرعد 16]

ولتأكيد وحدانيته كصورة واضحة لا تقبل النقض ضرب مثلا للناس لكي لا يبقى في أنفسهم ذرة شك، فقال جلّ وعزّ: [ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُوهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنَّفُسَكُمْ

كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [الروم 28]. فما تملكه بمالك لا يكون لك شريكا فيما تملك إذ هو مملوك لك. فلا تستكبر عن أن تكون عبدا لمن يملك أمرك كله، ولا تدع معه شريكا، فلا يمكن ان يكون للمالك شريك مما خلق. ففي حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، وَكَأَدَّ أَنْ يُبْطِئَ، فَقَالَ لَهُ عِيسَى: إِنَّكَ قَدْ أَمَرْتَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ، وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، فَأَمَّا أَنْ تُبَلِّغَهُنَّ، وَإِمَّا أَنْ أُبَلِّغَهُنَّ. فَقَالَ: يَا أَخِي، إِنِّي أَحْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أُعَدِّبَ أَوْ يُخَسِّفَ بِي ". قَالَ: " فَجَمَعَ يَحْيَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، حَتَّى امْتَلَأَ الْمَسْجِدُ، فَقَعَدَ عَلَى الشَّرْفِ، فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَتَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَمُرْكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ. أَوَّهْنُ: أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بَوْرَقٍ أَوْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَعْمَلُ، وَيُؤَدِّي غَلَّتَهُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ، فَاعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا¹.

وكما تتضمن كلمة التوحيد أفراد الله بالعبودية، وصرف العبادة والدعاء له وحده دون غيره جلّ وعزّ، فإنها تتضمن كذلك ردّ الخلق والأمر إليه ربّا مدبرا خالقا ورازقا، [إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسْحَرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ] [الاعراف 54]. وكل ذلك مقترن بتوحيده بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى التي جاءت بها نصوص الوحيين، مع اليقين أن له أسماء لا نعلمها، ونؤمن

¹ رواه احمد 17170، 17800، والترمذي 2863، والحاكم 406، والطبراني في الكبير 3427، والهيثمي في موارد الظمان

1550، وصححه الألباني في المشكاة 3694

بها غيبا لا نتألى فيه على الله، ودليلها ما ورد في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ وَحَزَنٌ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَإِبْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أُمَّتِكَ، نَاصِبِي بَيْدِكَ، مَاضٍ فِي حُكْمِكَ، عَدْلٌ فِي قَضَاؤِكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ يَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا "، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ؟ قَالَ: " أَجَلْ، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ " ¹.

وكلمة التوحيد هي مدار دعوة الأنبياء ومن سار على نهجهم بإحسان، لا تتغير ولا تبدل بتغير الأزمان والأشخاص. [وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ] [الانبياء 25]. وقد يستغرب الإنسان استعمار العداء بين أهل الكفر وأهل الإيمان بسبب هذه الكلمة، ذلك أن معنى الإيمان بكلمة التوحيد يجعل الكل خاضعا لسلطان واحد، وحكم واحد، هو حكم الله الواحد. ولما كان حكم الله لا يسير وفق أهواء البشر، وتشريعاته تفضح فساد مسالكهم، وتقف عائقا أمام تحقيق مصالحهم بالإثم والبغي والعدوان، وتردعهم عن الظلم وأكل أموال الناس بالباطل، لهذا كله تجدهم حريصين كل الحرص على مجابتهها وحرجمها، ومنه ما رواه ابن جرير الطبري عن ابن عباس قال: " لَمَّا مَرَضَ أَبُو طَالِبٍ، دَخَلَ عَلَيْهِ رَهْطٌ مِنْ قُرَيْشٍ، مِنْهُمْ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالُوا: يَا أَبَا طَالِبٍ، ابْنُ أَخِيكَ يَشْتِمُ آهْتَنَا، يَقُولُ وَيَقُولُ، وَيَفْعَلُ وَيَفْعَلُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَاهَهُ، قَالَ: فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَبُو طَالِبٍ، وَكَانَ قُرْبَ أَبِي طَالِبٍ مَوْضِعَ رَجُلٍ،

¹ رواه أحمد 4318، والبخاري 1994، والحاكم 1877، والطبراني في المعجم الكبير 169/10 حديث 10352، وابن أبي شيبة 29318، وصححه الالباني في السلسلة الصحيحة 199.

فَحَشِيَّ إِنَّ دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عَمِّهِ أَنْ يَكُونَ أَرْقَى لَهُ عَلَيْهِ، فَوَثَبَ، فَجَلَسَ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ، فَلَمَّا دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمْ يَجِدْ مَجْلِسًا إِلَّا عِنْدَ الْبَابِ فَجَلَسَ، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّ قَوْمَكَ يَشْكُونَكَ، يَزْعُمُونَ أَنَّكَ تَشْتُمُ آهَتَهُمْ، وَتَقُولُ وَتَقُولُ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ، فَقَالَ: «يَا عَمِّ إِنِّي إِنَّمَا أُرِيدُهُمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، تَدِينُ هُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُوَدِّي إِلَيْهِمْ بِهَا الْعَجَمُ الْجُرَيْةَ» قَالُوا: وَمَا هِيَ؟ نَعَمْ وَأَبِيكَ، عَشْرًا، قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» قَالَ: فَقَامُوا وَهُمْ يَنْفُضُونَ ثِيَابَهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ: {أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ} قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ حَتَّى بَلَغَ: {لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابَ} ¹.

شروط كلمة التوحيد:

الشرط: هو ما يلزم من عدمه العدم ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم ². وكلمة التوحيد هي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وهي عصمة للمال والدم كما في حديث طارق بن أشيم قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَفَرَ بِمَا يَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، حَرَّمَ مَالَهُ وَدَمَهُ، وَحَسَابَهُ عَلَى اللَّهِ " ³. وهي مفتاح الجنة والنجاة من النار كما في حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: إِنْ اللَّهُ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مِنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ ⁴. وفي حديث معاذ، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صَادِقًا مِنْ قَلْبِهِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ " ⁵.

¹ تفسير الطبري، 150/21، واحمد 3418، والنسائي في الكبرى 8716، وابن ابي شيبة 36564، وابو يعلى 2583، وصححه

احمد شاكر وابن حجر العسقلاني، والذهبي وابن كثير، وضعفه الارناؤوط والالباني.

² القواعد والفوائد الأصولية وما يتبعها من الأحكام الفرعية لابن اللحام ص130.

³ متفق عليه، الجمع بين الصحيحين 3117، البخاري 1185، مسلم 23

⁴ متفق عليه، الجمع بين الصحيحين 699، البخاري 425، مسلم 33

⁵ رواه احمد 22003، والنسائي 10886، والطبراني في الصغير 34/2 حديث 733، وابو يعلى 3228 وصححه الالباني في

ولما كان الإرجاء أول ما ابتليت به الأمة فقد استنبط أهل العلم من نصوص الوحيين شروطاً لكلمة التوحيد لا يتحقق للانسان حقيقة الإيمان إلا بها، ولا ينال الانسان ثمرتها إلا بتحقيق هذه الشروط. وكانت هذه الشروط ضابطاً لمسألة الايمان، وردا لدعاة الإرجاء والتكفير، وهو ما درج عليه السلف الصالح، فقد قيل للحسن إن أناسا يقولون من قال لا إله إلا الله دخل الجنة. فقال من قال لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة. وسئل وهب بن منبه أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلى، ولكن ما من مفتاح إلا له أسنان فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك؛ وإلا لم يفتح لك¹. وأما شروطها فهي سبعة جمعها حافظ الحكمي في قوله:

وَبِشْرُوطٍ	سَبْعَةٍ	قَدْ	قِيَّدَتْ	وَفِي	نُصُوصِ	الْوَحْيِ	حَقًّا	وَرَدَتْ
فَأَنَّهُ	لَمْ	يَنْتَفِعْ	قَائِلُهَا	بِالنُّطْقِ	إِلَّا	حَيْثُ	يَسْتَكْمِلُهَا	
الْعِلْمُ	وَالْيَقِينُ	وَالْقَبُولُ	وَالْإِنْفِيَادُ	فَادِرٍ	مَا	أَقُولُ		
وَالصِّدْقُ	وَالْإِحْلَاصُ	وَالْمَحَبَّةُ	وَفَقَّكَ	اللَّهُ	لِمَا	أَحَبَّهُ		

الأول: "العلم" بمعناها المراد منها نفياً وإثباتاً علماً مناف للجهل بذلك، قال الله عز وجل: " فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ " محمد 19.

الثاني: اليقين المنافي للشك بأن يكون قائلها مستيقناً بمدلولها يقيناً جازماً، قال الله عز وجل: " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا " الحجرات 15، ولهذا نزع صفة الايمان عن المرتابين فقال سبحانه: إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ " التوبة 45.

¹ ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي (المتوفى: 795هـ)، كلمة الإخلاص وتحقيق معناها ص 21، تحقيق: عماد طه فرة،

الطبعة: الاولى 1408 هـ، دار الصحابة للتراث - طنطا - مصر

الثالث: "القبول" لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه: "إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ" الصافات: 36.

الرابع: "الانقياد" لما دلت عليه المنافي لترك ذلك، قال الله عز وجل: "وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له" وقال سبحانه: فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا" النساء 65.

الخامس: "الصدق" فيها المنافي للكذب وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ [البقرة: 8-10]

السادس: "الإخلاص المنافي للشرك" قال تعالى: وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنَفَاءَ [البينة: 5]

السابع: "الحبة" لهذه الكلمة ولما اقتضته ودلت عليه ولأهلها العاملين بها الملتزمين لشروطها، وبغض ما ناقض ذلك، قال الله عز وجل: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ [البقرة: 165] ، وقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ [المائدة: 54]¹.

¹ الحكمي، حافظ بن أحمد بن علي (المتوفى : 1377هـ)، معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول 418/2-424، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، الطبعة : الأولى ، 1410 هـ - 1990 م، دار ابن القيم - الدمام

الاسلام اسم والتزام

إن الله سبحانه جعل في ما اختاره لدينه من الأسماء حكمة وعبرة، فجعل ركيزة الايمان ومسمّاه التوحيد، وإن كان التوحيد يعني إفراد الرب سبحانه بالعبادة، فهو كذلك يعني توحيد المسلمين على اختلاف اعراقهم وألوانهم ولغاتهم ليكونوا أمة واحدة. ولا ينفك توحيد الرب سبحانه عن وحدة أهل الإيمان. ولهذا جاء الهدي النبوي منذ اللحظة الأولى لتأسيس دولة الإسلام بوضع ميثاق الأمة ودستور بنائها وفيه: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَيَثْرِبَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ، فَلِحَقِّ بِهِمْ، وَجَاهَدَ مَعَهُمْ، إِنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النَّاسِ¹.

ثم توالى النصوص لتكريس هذا الميثاق واقعا حيا في حياة الناس، تدعو اليه بالترغيب والترهيب، فقال جلّ وعزّ: [وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ] [آل عمران 103]. وحتى في ساعات النزاع والقتال، يُذَكِّرُ بحقيقة هذه الأخوة الدافعة الى بذل الجهد للإصلاح بين المتقاتلين لما يربطهم ببعضهم بعضا من الأخوة الايمانية: [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ] [الحجرات 10]. وتكمل السنة صورة الوحدة الايمانية بتوثيق عراها وروابطها، كما في حديث النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى "². بل نزع صفة

¹ ابن هشام ، جمال الدين أبو محمد عبد الملك الحميري المعافري، (المتوفى: 213هـ)، السيرة النبوية 501/1، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، الطبعة: الثانية، 1375هـ - 1955م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

² متفق عليه، رواه البخاري 6011، ومسلم 2586

الايمان عمن تسبب في مثلبة في وحدة المسلمين، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»¹. ومن أجمل ما انشد المنشدون في زماننا قول ابي الجود²:

إن أولى الناس بتوحيد شمل أمة كان دينها التوحيد

والإسلام بتشريعه جاء ضابطا لخضوع الكل المسلم وانضباطه ضمن الجسد الواحد، الذي لا تفرقه النعرات العصبية، أو العرقية، أو الحزبية. [يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ] [الحجرات 13]. ذلك أن الاسلام اسما وفعلا من ابتدائه الى أن تقوم الساعة دين الله سبحانه، ولا يستقيم إلا بما شرع في آيات كتابه، أو ما جاء على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم. [وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ] [الحج 78].

وما جاء في الآية حجة على من قال بخلافه، إذ جعل خاتمة الآية إقام الصلاة، وفيه معنى التجرد لله سبحانه من كل شيء إلا مما شرع، إذ الصلاة فرض الله على كل مكلف شهد أن لا إله إلا الله، بغض النظر عن حزبه وفرقة وفتته. فهل يمكن لحزب أو جماعة أن يمنعوا المسلمين من الصلاة معهم، أو يمتنعوا عن الصلاة مع المسلمين الذين

¹ متفق عليه، رواه البخاري 13، ومسلم 45

² ابو الجود: المنشد محمد منذر سرميني، من رواد النشيد الإسلامي المعاصر. ولد في حلب عام 1953م، حصل على بكالوريوس الهندسة المدنية عام 1977م. ثم انهى البحوث اللازمة لنيل الماجستير في الفكر الإسلامي من كلية الأوزاعي. بيروت.

ليسوا من حزبهم أو جماعتهم؟

لا شك أن فعلهم هذا إن فعلوه سيكون قادحا في إسلامهم، لما يخالفون به آيات الكتاب وصحيح السنة. وقد هلك قوم أخرجوا المسلمين من إسلامهم فما صلّوا معهم. وكذلك الامر بإيتاء الزكاة، فاعتبار دفع الزكاة كما نص عليه الشارع من بلوغ النصاب لتصرف في أبوابها الثمانية التي حددتها الآية في سورة التوبة على اعتبار الإسلام، لا على اعتبار الحزب. ولهذا جاء الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم، وللأمة بعد كل حوار ومناظرة مع من خالف الأمر الإلهي: [فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسَلَّمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَّمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ] [ال عمران 20]. وليس في الإسلام أي تقسيم على أي اعتبار من الاعتبارات التي ذهب إليها بعض المسلمين في زماننا؛ ممن قسّموا المسلمين إلى فئام وفرق وأحزاب وشيع. وما قد يحتج به البعض من ذكر المهاجرين والانصار، وما تضمنه ميثاق المدينة من تعاقل المهاجرين وفدائهم لعانيهم، وكذلك الانصار، ثم التفصيل لكل طائفة، فهذا في قضية الزام العشيرة بإبنائها في الفداء والقضاء عنه، لا في جعل كل طائفة وأمة منهم مستقلة بدينها عن الناس. ولم يبح الشرع لمسلم أن ينأى عن المسلمين إلا من كان صاحب بدعة منهم. وكانت دعوة ابراهيم بأرض مكة عند بناء البيت شعار الإسلام كله: [رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ دُرِّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ " البقرة 128.

ولهذا كان المهاجرون والانصار واحدا، وما ذكر الله فصلا بينهم الا في بيان الفضل في السبق للإسلام، وتحمل الشدائد لأجل الدين، ولحكّم أرادها الله وحتى لا تتفرق الأمة ولا تنساق خلف أذعياء الفتنة والفرقة، جاء الأمر الهى محكما واضحا: [فَأَقِمَّ وَجْهَكَ

لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ
الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [الروم
30-32].

ورغم كافة الأدلة المانعة من الفرقة والداعية الى وحدة الصف وجمع كلمة أهل الإيمان، إلا أنه لا يكاد يخلو زمن من أزمان المسلمين من دعاة للتحزب والفرقة، يظنون بما يفعلون خيرا لأنفسهم وللأمة. وتخرج جماعات وفئات بأسماء ومسميات ظاهرها الخير، وفي فعل كثير من أفرادها يكمن الخطر؛ بقصد كان أو عن غير قصد. وكل من هؤلاء يرى نفسه وحزبه الاسلام الحق، فلا يقبل الا من سار على خطاه، ولا يرى الحق الا عنده، وعند من سار على نفس هواه. فهذا يزعم أنه على خطى السلف، فإذا به يجعل من منهج السلف حزبا وجماعة يدعو اليها، ولا يقبل قولاً أو رأياً إلا اذا صدر عن دعواتها، وكل قول لغير من هو من منهجه فهو ضلال وابتداع. وذاك من حزب كذا وآخر من جماعة كذا، ورابع من تنظيم كذا. وأصبح الدين فئاما وأحزابا متناحرة، تملأ الضغينة والاحقاد قلوب أفرادها على بعضهم بعضا، ويتربص البعض بالبعض الدوائر. وتفرقت الأمة كل يقوده هواه إلى حزب يرى أنه الدين، فهو يدعو الى الإسلام المتمثل في حزبه، ويقا تل في سبيل إعلاء راية الحزب وبيان فضله وجهاده، لان الحزب في نظره بوابة الجهاد والاسلام، ويظن جهاده في صفوف الحزب هو الجهاد في سبيل الله. وأمثال هؤلاء من الحزبيين يشكك بعضهم بالحق إن صدر عن من هو ليس من حزبهم وفرقهم. بل أكاد أجزم أن ما هم عليه يوحى بأنه لو ظهر المهدي بينهم لرفضوا دعوته، ولناصبوه العداء لأنه على غير مناهجهم وتوجهاتهم الحزبية، ولربما زعموا أنه خارجي أو مبتدع. ثم هم بعد ذلك فرسان المنابر عندما يتحدثون عن الاسلام ووحدة المسلمين.

وخير مقال في هؤلاء ما صح عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه كان لا يجلس مجلساً للذكر حين يجلس إلا قال: «الله حكّم قسطن هلك المرتابون»، فقال معاذ بن جبل يوماً: " إن من ورائكم فتناً يكثر فيها المال، ويُفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق، والرجل، والمرأة، والصغير، والكبير، والعبد، والحُر، فيوشك قائل أن يقول: ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن؟ ما هم بمتبعي حتى أبتدع لهم غيره، فأياكم وما ابتدع، فإن ما ابتدع ضلالة، وأحدركم زبعة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق "، قال: قلت لمعاذ: ما يُدريني رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة وأن المنافق قد يقول كلمة الحق؟ قال: «بلى، اجتنب من كلام الحكيم المشتبهات التي يقال لها ما هذه، ولا يُتبيّنك ذلك عنه، فإنه لعله أن يرجع، وتلق الحق إذا سمعته فإن على الحق نوراً»¹

إن الدين الذي شرعه الله جل وعز له عنوان واضح اسمه كلمة التوحيد " لا إله إلا الله " ومنهج واحد هو القرآن الكريم، ونبراس واحد هو سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وجعل له مثالا حيا من حياة الناس، عناصره أصحاب النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فما وافق ما كانوا عليه فهو الحق، [ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا] [النساء 115]، قال ابن مسعود: من كان مستننا فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، كانوا خير هذه الأمة، أبرها قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم، ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم كانوا على الهدى المستقيم. وقال أيضا: «إن الله تعالى أطلع في قلوب العباد،

¹ رواه ابو داود 4611، والحاكم 8422، والبيهقي في الكبرى 355/10 حديث 20916 وصححه الالباني والارناؤوط موقوفا

في تصحيح كل منهما لسنن ابي داود

فَاخْتَارَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، وَأَنْتَجَبَهُ بِعِلْمِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ بَعْدُ، فَاخْتَارَ لَهُ أَصْحَابًا، فَجَعَلَهُمْ أَنْصَارَ دِينِهِ، وَوُزَرَاءَ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَا رَأَهُ الْمُؤْمِنُونَ حَسَنًا، فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَهُ الْمُؤْمِنُونَ قَبِيحًا، فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ قَبِيحٌ»¹.

وهذا هو الدين الذي شرعه الله، وكل ما خالفه فهو هوى و ضلال. [شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ] [الشورى 13]. فكل ما خالفه مردود، وكل تشريع دونه منبوذ، ومن اعتقد الخير في غيره فقد ضلّ وأضلّ، ومنه قول حذيفة رضي الله عنه لابن مسعود حين دخل عليه فقال: اعهدْ إليّ، فَقَالَ لَهُ: أَلَمْ يَأْتِكَ الْيَقِينُ؟، قَالَ: بَلَى، وَعِزَّةَ رَبِّي، قَالَ: فَأَعْلَمَ أَنَّ الضَّلَالََةَ حَقُّ الضَّلَالَةِ أَنْ تَعْرِفَ مَا كُنْتَ تُنْكِرُ، وَأَنْ تُنْكِرَ مَا كُنْتَ تَعْرِفُ، وَإِيَّاكَ وَالتَّلَوْنَ، فَإِنَّ دِينَ اللَّهِ وَاحِدٌ².

وما دام الدين واحد والرسالة واحدة، فالعمل لدين الله يكون وفق الطريق الذي سار عليه محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، على أساس بناء الفرد والأمة، لا على أساس الحزب والفرقة والطائفة. إذ الجماعة هي الأمة وهو ما جاء في حديث حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه قال: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَفِيهِ دَخْنٌ»، قُلْتُ: وَمَا دَخْنُهُ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَسْتَنْوَنَ بِعَيْرِ سُنَّتِي،

¹ شرح السنة للبغوي 214/1-215.

² شرح السنة للبغوي 216/1.

وَيَهْدُونَ بِعَبْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنَكِّرُ»، فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرِّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مِنْ أَجَابِهِمْ إِلَيْهَا قَدْفُوهُ فِيهَا»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، قَالَ: «نَعَمْ، قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِاللِّسِنَتِنَا»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا تَرَى إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: «تَلْزِمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ»، فَقُلْتُ: فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرْقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعْصَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»¹. وقد آن الأوان أن يعيد علماء الأحزاب والجماعات النظر فيما أوصلوا إليه الأمة من التشردم والضياع.

إن كل إنسان قادر أن يضع لنفسه فهما خاصا ومنظارا ينظر من خلاله في الأدلة والأحكام، ولكن يبقى السؤال هل يكون بما وصل إليه قد حقق أمر الله سبحانه، ووافق ما عليه أهل العلم في التزام أصول الاجتهاد القائمة على رد الأمور إلى أهل الاستنباط، [وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا] [النساء 83]. قال النووي: سئل الإمام أحمد بن حنبل عن الطائفة المنصورة الظاهرة على الحق فقال: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم. قال القاضي عياض إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة، ومن يعتقد مذهب أهل الحديث، قلت (أي النووي) ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين، منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير².

وحتى تبقى الأمة في أمان من الضلالة فقد أوصى الله سبحانه نبيه بوصية تحفظ الأمة من بعده، وهو ما جاء في قوله سبحانه: [إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي

¹ رواه مسلم 1847

² شرح صحيح مسلم للنووي 67/13.

حَرَمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ [النمل 91-92]. فالتزام منهج الله والاعتصام بعروته الوثقى لا يكون إلا بالتزام أمره سبحانه بالاستسلام رغبا ورهبا ومحبة للخالق جل وعلا. [لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [البقرة 256]. فهذه حقيقة الإيمان التي أرادها الخالق سبحانه من كل من أعلن الاستسلام لله بشهادة الحق. وكل من خرج عن هذا الميثاق فقد نقض عرى العهد القائم على الأخذ بالعروة الوثقى لضمان عدم السقوط في مهاوي التقليد الأعمى المخالف لمقتضيات الإيمان. والتقليد أنواع كما نقل القنوجي عن ابن القيم:

أحدها: الإعراض عما أنزل الله، وعدم الالتفات إليه، اكتفاء بتقليد الآباء.

الثاني: تقليد من لا يعلم المقلد أنه أهل لأن يؤخذ بقوله.

الثالث: التقليد بعد قيام الحجة، وظهور الدليل على خلاف قول المقلد.

والفرق بين هذا وبين النوع الأول أن الأول قلّد قبل تمكنه من العلم والحجة، وهذا قلّد بعد ظهور الحجة له فهو أولى بالذم ومعصية الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وقد ذم الله سبحانه هذه الأنواع الثلاثة من التقليد في غير موضع من كتابه. والتقليد ليس بعلم باتفاق أهل العلم، ولا يكون العبد مهتدياً حتى يتبع ما أنزل الله على رسوله، فهذا المقلد إن كان يعرف ما أنزل الله على رسوله فهو مهتد وليس بمقلد، وإن كان لم يعرف ما أنزل الله فهو جاهل ضال بإقراره على نفسه، فمن أين يعرف أنه على هدى في تقليده؟ وهذا جواب كل سؤال يوردونه في هذا الباب.

وكان طريقة الأئمة اتّباع الحجة، والنهي عن تقليدهم. فمن ترك الحجة وارتكب ما نھوا

عنه، ونهى الله ورسوله عنه قبلهم فليس على طريقهم. بل هو من المخالفين لهم، وإنما يكون على طريقته من اتبع الحجة، وانقاد للدليل، ولم يتخذ رجلاً بعينه سوى الرسول صلى الله عليه وسلم، يجعله مختاراً على الكتاب والسنة، يعرضهما على قوله، وبهذا يظهر بطلان فهم من جعل التقليد اتباعاً. وقد فرق الله ورسوله وأهل العلم بينهما، كما فرقت الحقائق بينهما. فإن الاتباع سلوك المتبع، والإتيان بمثل ما أتى به. والمصنفون في السنة جمعوا بين فساد التقليد وإبطاله، وبيان زلة العالم، ليبينوا بذلك فساد التقليد. وأن العالم قد يزل ولا بد إذ ليس بمعصوم، فلا يجوز قبول كل ما يقوله، وينزل قوله منزلة المعصوم، فهذا الذي ذمه كل عالم على وجه الأرض، وحرموه وذموا أهله وهو أصلاً بلاء المقلدين وفتنتهم، فإنهم يقلدون العالم فيما يزل فيه وفيما لم يزل، وليس لهم تمييز بين ذلك، فيأخذون الدين بالخطأ ولا بد، فيحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله، ويشرعون ما لم يشرع ولا بد لهم من ذلك، إذ كانت العصمة منتفية عن قلدوه فالخطأ واقع منه ولا بد¹.

وسواء كان التقليد للآباء والاجداد، أو كان لحزب أو فرقة، أو كان لرأي فكل ذلك في الميزان سيان ما دام فيه خلاف النص الذي أمر الله به فيما شرع من الوحيين. قال البيضاوي: "وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا وهو منع صريح من التقليد في الأصول. أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير وإلى ما يؤول إليه من التقليد أو الإشراك، والإستفهام للإنكار والتعجب"².

ومن هنا يظهر وشائج ارتباط إيمان العبد وإسلامه لله، لتتضح له معالم الطريق والسلوك فيه، فمن أيقن قلبه بعبوديته لله سبحانه، وأن له الحاكمة، خضع لأمره وانقاد لطاعته

¹ فتح البيان في مقاصد القرآن للفتوحي 292/10-293

² أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي 216/4

اذعانا وتسليما، ومقدّما أمره على كل أمر سواه، بل وجعل علاقة المسلم بغيره قائمة على قاعدة الإيمان، فإن استكبر مستكبر وامتنع جاحد فلا بد للمسلم أن يعلن تمايزه وتميزه باستسلامه لربه جل وعلا، [قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ] [ال عمران 64]. وما ينبغي أن يفهمه كل مسلم أن دعوة الناس إلى توحيد الله تقتضي دعوتهم للتجرد من الأغيار والوسائط، ولا تكون الدعوة إلا إليه، ومن دعا إلى الإسلام على أساس الانتماء للحزب والتنظيم والفئة والفرقة فما دعا إلى إيمان ولا إسلام.

وهذا ما جاء به جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث الفاروق عمر رضي الله عنه قال: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدٌ بَيَاضُ الثِّيَابِ، شَدِيدٌ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يَرَى عَلَيْهِ أَثَرَ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتَقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: صدقت. فجعبتنا له، يسأله ويصدقه. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ: أَنْ تُوْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُوْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ " قَالَ: صدقت. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ: " أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ. " قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: " مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ ". قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا. قَالَ: أَنْ تُلِدَ الْأُمَّةُ رِبْتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحَفَاةَ الْعِرَاةَ الْعَالَةَ، رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ " قَالَ: ثُمَّ انْطَلِقْ فَلَبِثَ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ: " يَا عَمْرُ، أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ؟ " قلت: الله

وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: " فَإِنَّهُ جَبْرِيْلٌ، أَتَاكُمْ يَعْلَمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ"¹.

ولم يدع النبي صلى الله عليه وسلم يوماً أحداً للانضمام إلى أمة الإسلام، كمجرد عضو لزيادة عدد، بل دعا إلى ما أمر الله أن يدعو إليه من عبادته وحده، فمن انتظم في عبادة الله أصبح فرداً من أمة الإسلام له ما لها وعليه ما عليها. وكل دعوة بخلاف ذلك - عن قصد أو عن غير قصد - هي خلاف ما أمر الله سبحانه، وخروج عن منهجه الذي شرع. ومن تمام نعمة الله على الخلق أن أكمل لهم الدين، وأرسل محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذنه على نهج من سلف من الأنبياء. وجعل هذا المنهج عاماً ليس في الأنبياء فحسب، بل في ذرياتهم وأتباعهم كذلك. قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: [وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ *] إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ] [البقرة 130-132]. وليس الإسلام الذي أردنا الله سبحانه أن نتبعه سوى الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا] [المائدة 3].

وجاء الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم بلزوم أهل الإيمان، لا على أساس الجزء؛ بل تأكيداً على الإنحياز لأهل الإيمان على الأساس الشرعي، القائم على أفضلية أهل العبادة والقرب على غيرهم، وليس على أي أساس آخر، فقال: [وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا] [الكهف 28]. قال

الشيخ عبد الرحمن السعدي: " يأمر تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، وغيره أسوته، في الأوامر والنواهي - أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد المنيبين {الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} أي: أول النهار وآخره يريدون بذلك وجه الله، فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها لما أحب من فعلهم من الذكر والعبادة طرقي النهار، ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء فإن في صحبتهم من الفوائد، ما لا يحصى. وأن لا يتجاوزهم بصره، ولا يرفع عنهم نظره طلبا لأي مقصد دنيوي، لأن هذا ضار غير نافع، وقاطع عن المصالح الدينية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب بالدنيا، فتصير الأفكار والهواجس فيها، وتزول من القلب الرغبة في الآخرة، فإن زينة الدنيا تروق للناظر، وتسحر العقل، فيغفل القلب عن ذكر الله، ويقبل على اللذات والشهوات، فيضيع وقته، وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبديّة، والندامة السرمديّة¹.

وكان منهج النبي صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين منهج العدل والقسط، فكان للجميع أبا لا يفرق بين أبنائه، ولا ينحاز الى فرقة دون فرقة، أو طائفة دون طائفة. ليكرّس بفعله ما أراد الله سبحانه من وحدة أهل الإيمان كلهم في إطار شهادة أن لا إله إلا الله محمدا رسول الله. ومؤكدا على أن وحدة الأمة تقتضي عدم الانقسام والتحزب والتكتل في كتل متفرقة، سيكون مآل فرقتها الخلاف والتناحر، كما يظهر واضحا في نيل هذه الأحزاب والجماعات من بعضها البعض، بالاتهامات والاساءات. ولهذا جاء النص واضحا في سورة الحشر في تبيان علاقة المؤمنين ببعضهم سلفا وخلفا، [لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ

¹ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ السعدي ص475،

حَصَاصَةً وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ [الحشر 8-10]، فمن خرج عن فعل أهل الإيمان في علاقتهم ببعضهم فليُنظر في إيمانه، إذ الأصل في علاقة المؤمن بأخيه المؤمن ما ذكرناه من حديث النبي صلى الله عليه وسلم: « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ »¹. فمن احتمل قلبه البغضاء لمسلم فليُنظر في إيمانه وليراجع نفسه قبل أن يأتيه الموت وهو على مثل هذا الحال.

الايان صفة وامتياز

من اللافت للنظر أن النداء القرآني جاء متعدد الوجهات الى كافة أعيان الإنس والجن، وهو ما يجب الانتباه اليه، لفهم طبيعة الخطاب الالهي ومقاصده ومراده. جمعها ابن الجوزي رحمه الله في خمس عشر وجها¹:

- 1 - خطاب عام " الله الذي خَلَقَكُمْ "
- 2 - خطاب خاص " أكفرتم بعد إيمانكم "
- 3 - خطاب الجنس " يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ "
- 4 - خطاب النوع " يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم "
- 5 - خطاب العين " قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم "
- 6 - خطاب المدح " يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا "
- 7 - خطاب الذم " يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا، " قل يا أيها الكافرون "
- 8 - خطاب الكرامة " يا أَيُّهَا النَّبِيُّ "
- 9 - خطاب التودد " قَالَ ابْنُ أُمَّمَ إِنَّ الْقَوْمَ "
- 10 - خطاب الجمع بلفظ الواحد " يا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَّكَ "
- 11 - خطاب الواحد بلفظ الجمع " وَإِنْ عَاقَبْتُمْ "
- 12 - خطاب الواحد بلفظ الاثنين " أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ "

¹ ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (المتوفى: 597هـ)، المدهش ص15، تحقيق: د. مروان قبانى، الطبعة: الثانية، 1405هـ - 1985م، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان

13 - وخطاب الإثنَينِ بِلَفْظِ الْوَاحِدِ " فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى "

14 - وخطاب العين والمراد به العير " فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكِّ "

15 - وخطاب التلو وهو ثلاثة أوجه:

الأول: أن يُخَاطَبَ ثُمَّ يُخَبَرُ " حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكِ وَجْرِينَ بِهِمْ بِرِيحٍ "، " وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ "، " وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ "

الثاني: أن يُخَبَرَ ثُمَّ يُخَاطَبُ " فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ "، " وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعِيكُمْ مَشْكُورًا "

الثالث: أن يُخَاطَبَ عَيْنًا ثُمَّ يَصْرَفُ الْخُطَابَ إِلَى الْعَيْرِ " إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ "

وما يهمننا في هذا السياق هو طبيعة الخطاب الموجه إلى كل فئة، فنجد أن الخطاب الموجه إلى المؤمنين فيه أمر ونهي بالتزام الاصول المتمثلة بعقيدة التوحيد، وكذلك الفروع المتمثلة بأحكام الشريعة. بينما نجد الخطاب إلى غير المؤمنين يخاطب عموم الناس وأهل الكتاب والكفار بالأصول وحسب. وهذا لا يعني أنهم غير مطالبين بالفروع، ولكن لما انتفى قبول العمل بالفروع منهم حتى يقوم الأصل فجاء الخطاب لهم بالإتيان بالأصل، وهو ما دل عليه حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذًا إلى اليمن قال له: " إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَأَدْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ

أَفْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَعْيُنَائِهِمْ وَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَآتَقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِجَابٌ"¹. وسنناقش مسألة خطابهم بفروع الشريعة عند تناول صنف الكافرين باذن الله تعالى.

إن مسألة مخاطبة الذين آمنوا بالأصول والفروع أمرا ونهيا دون غيرهم إشارة لكل لبيب، وعظة لكل متدبر، فكأنما أراد الله سبحانه بذلك الإخبار أنه لا يأتي بأوامر هذا الدين ولا ينتهي عن نواهيه إلا من انعقد قلبه على الإيمان. ولهذا جاء النص القرآني واضحا في الإبلاغ عن حقيقة أن الانتفاع بالقران الكريم مقصور على أهل الإيمان، وإن كان البلاغ لعموم الخلق نظرا لعموم الرسالة. قال تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ] [يونس 57]. واقتصر الانتفاع بالقران على أهل الإيمان لا لمجرد المسمى، ولكن نظرا لأن للإيمان متطلبات في النفس لها أثر على السلوك كله. فمن اصطبغ بالإيمان فقد تعاهد نفسه بما يلزم من الصلاح، واستقبال الأمر والنهي التزاما وسلوكا، هاجرا للمحرمات مقبلا على الطاعات، طمعا فيما وعد الله عباده المؤمنين. فاستحق بذلك الجزاء الأوفى بالانتفاع بثمره الإيمان في الدنيا، ثم بالرضوان والنعيم المقيم في الآخرة.

والانسان بما تتنازعه نفسه مبتلى بالحرص والطمع، يتمسك بالمتاح ظنا منه أنه إن لم يفعل ضاعت عليه الفرص وفاته الخير. ويظهر هذا في ما يتداوله الناس من الأمثال كقولهم: عصفور باليد خير من عشرة على الشجرة، وفي حديث ابن عباس عند البخاري وأنس عند مسلم: قال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ

¹ رواه احمد 2071، وابو داود 1584، والترمذي ج12/3 حديث 625، وابن ماجه 1783، والنسائي 2435، والدارمي 1655،

والبيهقي في الكبرى 13136، وصححه الالباني في صحيح ابي داود

مَالٍ لَابْتِغَىٰ تَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ تَابَ»¹. وهذا لضعف اليقين وعدم الوصول الى حقيقة التوكل الخالص، لكن من صدق توكله، ووافق عمله ما انعقد عليه قلبه من الايمان، حقق المطلوب من الصبر على ما يفوت ويندثر من متاع الدنيا؛ لصالح الوعد الحق الذي آمن يقينا بأنه آت لا محالة. قال تعالى: [أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَا مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ] [القصص 61]. وهذا الأمر يعني اصطبار المسلم وتوطين نفسه على ترك الملدات والشهوات إلا ما أحل الله منها، وهو ما لا يقدر عليه إلا من أعانه الله عليه من المؤمنين، الذين عملوا على انتهاج ما أمر به الرب سبحانه، بوقف حياتهم ومماهم لله رب العالمين على كتاب وسنة وصراط مستقيم. قال جلّ وعزّ: [وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَالِكُونَ] [المؤمنون 73-74].

إن أول لقاء للمسلم مع آيات الله في سورة البقرة يقوده إلى أول مداخل الإيمان وبواباتها، وهو مدخل التميّز والتمايز، ويكتشف مباشرة عند مقارنة النص بما عليه المسلمون في حياتهم وسلوكهم قصورا كبيرا عن تحقيق الحد اللازم الذي يبني عليه تحقيق وعد الرب تعالى بالنصر والتمكين. فقد جاء البيان الأول بأن المقصد الإلهي لما أنزله الله من كلامه ووحيه هو هداية المؤمنين، [ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ] [البقرة 2].

فلا تتحقق التقوى إلا بهدى، ولا يكون الهدى إلا بوجود المنهج الذي يشكل بوصلة الاتجاه، والمنظار الذي يحدد معالم الطريق المنشود، للوصول الى الغاية التي أرادها الله لعباده. وهذا هو التميز والتمايز لمعسكر الإيمان عن غيره. فلا بدّ من توفر كافة عناصر

¹ البخاري 6436، مسلم 1048

المعادلة الصحيحة، للوصول الى النتيجة الصحيحة. وأول أقطاب المعادلة هو وجود الإنسان الذي توفرت فيه عوامل الاستقبال الجيد، والبصيرة اللازمة، والاستعداد للأداء. فإذا ما اختلط هذا الانسان بقطب المعادلة الثاني؛ المتمثل بمنهج الله وآياته، انتظم الأداء على مراد الله اعتقادا وسلوكا، فكانت النتيجة الحتمية الوصول الى الهدى. وبهذا تتحقق له ثمرة هذه النتيجة في الدنيا بالتمكين والنصر، وفي الآخرة بالفوز بالجنان. وهو ما أشار اليه قوله سبحانه على لسان النبي صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا [قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبَّصُونَ] [التوبة 52].

ومن الملاحظ التأكيد على حقيقة أن هذا الكتاب لا شك فيه، وهو شرط الايمان الاول من اليقين المنافي للشك، إذ أن الشك بشيء مما جاء من مصدر الإيمان - الكتاب - لا يمكن أن ينعقد به الإيمان، إذ الشك في الجزء بطلان للكل. وليس الإيمان بالجزء إيمان بالكل، وهو ما أكد عليه الرب سبحانه بقوله: [إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا] [النساء 150-151]، وهذا ما يؤكد على أن البناء الايماني لا يقوم إلا على أساس اليقين، وعدم الإرتياب بما نزل من الوحي، غير أن الذين لا يرتابون ولا يتسلل إليهم الشك هم المتقون. فمن هم المتقون..؟؟ وما هي التقوى المانعة من الريب..؟؟

المتقون

اتَّقَى لغة: اتقى بالشَّيء جعله وقاية له من شيء آخر وَالله خَافَ عِقَابَهُ فَتَجَنَّبَ مَا يَكْرَهُ وَالشَّيْءَ حَذَرَهُ وَتَجَنَّبَهُ، وَ(تَوَقَّاهُ) حَذَرَهُ وَتَجَنَّبَهُ وَفِي حَدِيثِ الصَّدَقَةِ (وَتَوَقَّ كِرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ) وَوَقَّاهُ وَ(التَّقَاةُ) الخَشْيَةُ وَالْحَوْفُ تَقَى، وَ(التَّقْوَى) الخَشْيَةُ وَالْحَوْفُ وَتَقَوَى اللهُ خَشْيَتَهُ وَامْتَثَلَ أَمْرَهُ وَاجْتَنَّبَ نَوَاهِيَهُ (وَأَصْلُهُ وَقَّى قَلْبَهُ لَلْفَرْقِ بَيْنَ الْإِسْمِ وَالصَّفَةِ)، (التَّقِيَّةُ) الخَشْيَةُ وَالْحَوْفُ وَالتَّقِيَّةُ (عِنْدَ بَعْضِ الْفِرَقِ الْإِسْلَامِيَّةِ) إِخْفَاءُ الْحَقِّ وَمَصَانَعَةُ النَّاسِ فِي غَيْرِ دَوْلَتِهِمْ تَحَرُّزًا مِنَ التَّلْفِ. وَ(التَّقِي) مِنْ يَتَّقِي اللهُ تَعَالَى أَنْقِيَاءَ¹

التقوى: لغة: بمعنى الاتقاء، وهو اتخاذ الوقاية، وعند أهل الحقيقة: هو الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته، وهو صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك.

التقوى في الطاعة يراد بها الإخلاص، وفي المعصية: يراد بها الترك والحذر. وقيل: أن يتقي العبد ما سوى الله تعالى. وقيل: المحافظة على آداب الشريعة، وقيل: مجانبة كل ما يبعثك عن الله تعالى. وقيل: ترك حظوظ النفس ومباينة النهي. وقيل: أن لا ترى في نفسك شيئاً سوى الله. وقيل: أن لا ترى نفسك خيراً من أحد. وقيل: الاقتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام قولاً وفعلاً².

وللسلف من الصحابة ومن تبعهم بإحسان تعريفات وأقوال في التقوى مدارها على التزام أمر الله بالطاعة والخضوع، والانتهاز عما نهى الله عنه رجاء رحمته وخوف عقابه. ومن ذلك ما ورد عن معاذ بن جبل قال: ينادى يوم القيامة: أين المتقون؟ فيقومون في كنف من الرحمن لا يحتجب منهم ولا يستتر، قالوا له: من المتقون؟ قال: قوم اتقوا

¹ المعجم الوسيط ص 1052.

² التعريفات للرجزاني ص 65.

الشرك وعبادة الأوثان، وأخلصوا لله بالعبادة. وقال ابن عباس: المتقون الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى، ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به. وقال الحسن: المتقون اتقوا ما حرم الله عليهم، وأدوا ما افترض عليهم. وقال عمر بن عبد العزيز: ليس تقوى الله بصيام النهار، ولا بقيام الليل، والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله، وأداء ما افترض الله، فمن رزق بعد ذلك خيرا، فهو خير إلى خير.

وقال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله. وعن أبي الدرداء قال: تمام التقوى أن يتقي الله العبد حتى يتقيه من مثقال ذرة، وحتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما يكون حجابا بينه وبين الحرام، فإن الله قد بين للعباد الذي يصيرهم إليه فقال: {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره {الزلزلة: 7، 8}، فلا تحقرن شيئا من الخير أن تفعله، ولا شيئا من الشر أن تتقيه¹.

ولا تكاد سورة من طوال القرآن ومُفَصَّلِهِ تخلو من دعوة الناس عموما والمؤمنين خصوصا الى التقوى، ومن ذلك قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَاحْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وُلْدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَاٰلِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْعُزْرُورُ] [لقمان 33]، وقوله سبحانه: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُنْتُمْ نَفْسًا مَّا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ] الحشر 18.

وفي الحديث عن جابر رضي الله عنه، عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَجُلًا - النُّعْمَانَ بْنَ قَوْقَلٍ - سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَ إِذَا صَلَّيْتُ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَاتِ، وَصُمْتُ

¹ جامع العلوم والحكم لابن رجب ص 400.

رَمَضَانَ، وَأَخَلَّتْ الْحَلَالَ، وَحَرَّمَتْ الْحَرَامَ، وَلَمْ أَزِدْ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا، أَدْخُلُ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا¹.

وعن أبي أمامة الباهلي قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ فَقَالَ: «اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا حَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ»² وفي بقية رواة المحدثين بلفظ اعبدوا ربكم. قال موسى بن أعين: المتقون تنزهوا عن أشياء من الحلال مخافة أن يقعوا في الحرام، فسامهم الله متقين. قال ابن المعتز الخليفة الشاعر³:

خَلَّ الذنوبَ صغيرها وكبيرها ، فهو التقى
واصنع كماشٍ فوقَ أر ضي الشوكِ يحذرُ ما يرى
لا تحقرنَّ صغيرةً إنّ الجبالَ من الحصى

فما تقوم عليه التقوى هو موافقة الظاهر للباطن والسر والعلن إيماناً بربابة الله سبحانه والخشية من عقابه، ولذلك كانت مواعظ السلف تصب في دعوة الناس الى خشية المولى واستشعار معيته سرا وعلانية ومن ذلك ما قاله الشافعي: أعز الأشياء ثلاثة: الجود من قلة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يرجى أو يخاف. وكتب ابن السماك الواعظ إلى أخ له: أما بعد، أوصيك بتقوى الله الذي هو نجيك في سريرتك ورفيقك في علانيتك، فاجعل الله من بالك على كل حالك، في ليلك ونهارك، وخف الله بقدر قربه منك، وقدرته عليك، واعلم أنك بعينه ليس تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره، ولا من

¹ رواه مسلم 15،

² رواه الترمذي 616، واحمد 22161، والدارقطني 2759، والحاكم 1741، والطبراني في الكبير 7535، وصححه الذهبي في تعليقه على المستدرک والالباني في الصحيحة 867.

³ ديوان ابن المعتز ص333.

ملكه إلى ملك غيره، فليعظم منه حذرک، وليكثر منه وجلک والسلام¹.

ولم تتمثل مواعظ أهل العلم مسألة التقوى وعظا وكلاما، بل جعلت من ذلك سلوكا وحياء. فكانوا يرون الخلل المتسلل إلى حياتهم سببه مخالفة أمر أو نهي، وييستعظمون الذنب على صغره خشية ضياع التقوى. فهذا الشافعي رحمه الله يقول²:

شَكْوْتُ إِلَى وَكَيْعِ سُوءِ حِفْظِي فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي
وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ الْعِلْمَ نُورٌ وَنُورُ اللَّهِ لَا يَهْدِي لِعَاصِي

وقد جمع علي ابن ابي طالب في معنى التقوى حياة الانسان أجمعها، وحدد علاقاته مع كل ما يحيط بحياته ويؤثر فيها، فقال: التقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل³.

فرأس الأمر كله علاقة المخلوق بخالقه، ثم علاقته بالمنهج الذي أنزله مصاحبة وعملا بما فيه، وثالثها علاقته بالدنيا وتقلباتها، والاكتفاء منها بتخفيف الحمل والمؤونة طمعا فيما عند الله وإيثارا للآخرة وما فيها من دوام على الدنيا التي مآلها الزوال والفناء، ثم العلاقة بالآخرة استعدادا لحساب الله وتحسينا للنفس من غضب الله وعقابه بالمسارعة في الخيرات وفعل الصالحات، وكل هذه العلاقات دعائم لتحقيق الإيمان، ورفع أعمدته وأركانه. والقارئ لآيات الله يجد الرب سبحانه يفيض في ذكر التقوى وأهلها، ويحث على انتهاج طريقها والتزود منها لأنها خير الزاد الى الآخرة، قال تعالى: [الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ

¹ جامع العلوم والحكم لابن رجب ص408

² ديوان الامام الشافعي ص88.

³ لوامع الدرر في هتك أستار المختصر - شرح «مختصر خليل» للمجلسي الشنقيطي 110/1.

حَبِيرٌ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ حَبِيرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ [البقرة 197].

وكما افتتح سورة البقرة بذكر المتقين وصفاتهم فقد جعل آخر ما أنزل من الكتاب قوله سبحانه: [وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ] [البقرة 281]، وهذا هو أصح أقوال أهل العلم في آخر الآيات نزولاً، رجح ذلك ابن حجر في الفتح¹، واستشهد في الصفحة 315 من الفتح بكلام الداودي واعتراضه على وهم من نقل غير ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وما ذكر الله أمة من الأمم في كتابه إلا ذكر أمره لهم سبحانه بالتقوى، وأن مدار بقاء النعمة واستمرارها مرهون بتحقيق التقوى، ومن ذلك ما ذكره ربنا جل وعزّ في تفضيل بني اسرائيل: [يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ] [البقرة 47 و 122]. وقد بيّن سبحانه حقيقة تفضيل بني اسرائيل على العالمين بما يدفع اللبس ويزيل الوهم، فليس هو تفضيل جنس أو نسب، وليس هو تفضيل عرق ساميّ على غيره، إذ أن التفاضل عنده سبحانه لا يكون إلا بالتقوى، ولهذا بيّن سبحانه ما كان من تفضيل بني اسرائيل على غيرهم بقول موسى عليه السلام: [وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ] [المائدة 20]. وحذرهم من مغبة زوال هذه النعمة بمقارفة الذنوب، ومخالفة أمره فقال بعد ذكر تفضيلهم في موضعين من سورة البقرة: [وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ] [البقرة 48]، وقال سبحانه: [وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ] [البقرة 123].

¹ فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني 205/8.

وأول معالم التقوى وركنها الأساس الخوف من الله سبحانه كما أسلفنا من قول علي رضي الله عنه. والخوف والرجاء صفتان يجبهما الله في عبده، بل جعلهما ميزانا لإيمان العبد. فقد أخبر سبحانه أن عذابه واقع لا يأمنه بشر إلا بمشيئة الله. ولما كانت مشيئته سبحانه غير معلومة للخلق، فكان ديدن المؤمنين الخوف على كل حال. قال تعالى منبها إلى حقيقة وقوع عذابه والحذر منه وأن ذلك صفة أهل الايمان: [أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا] [الاسراء 57]، ولقد أكد سبحانه على أن العاقل المؤمن واع لحقيقة ما جاء به الوحي من النذير، فهو مشفق حذر لا يستشعر الأمان من عذاب الله إن وقع في معصيته، فقال جل وعز: [وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ] [المعارج 27-28].

أهل الخوف والخشية في القرآن الكريم:

الملائكة: قال تعالى: [وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ ذَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ] [النحل 49-50]. وقال ايضا: [وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ] [الانبياء 26-28].

الأنبياء: وقد ورد في حديث الشفاعة صفة خوف أولي العزم من الرسل من الله سبحانه وتعالى، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أُنِّي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحِمِّ، فَرَفَعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعَ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَهَسَسَ مِنْهَا هَسَسَةً ثُمَّ قَالَ: أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَذَرُونَ مِمَّ ذَلِكَ يُجْمَعُ النَّاسُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِيَ،

وَيَنْقُدُهُمُ الْبَصَرَ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْعَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ؛ فَيَقُولُ النَّاسُ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ، عَلَيْكُمْ بِآدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ آدَمُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ هَكَائِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي؛ اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ؛ فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ؛ وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ لَهُمْ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ؛ وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَضَلَّكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُؤْمَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى؛ فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحَ مِنْهُ، وَكَلَّمْتُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ عِيسَى، إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَمَ يَذْكَرُ

ذَنَّبًا، نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛
 فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ،
 وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ
 فِيهِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقْعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مُحَمَّدِهِ
 وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَيَّ أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ
 تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشْفَعْ؛ فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ أُمَّتِي يَا رَبِّ فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ
 ادْخُلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ
 النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ
 مِنْ مِصْرَاعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحَمِيرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى¹.

وإن اشبهت المسألة على أحد فقال: إنما هذا في يوم المحشر لا في الدنيا فالجواب عليه
 من وجهين:

الأول: أن الانبياء كالمؤمنين بل هم أئمة الهدى، وما كان صفة في أهل الإيمان فهو
 صفة فيهم لأنهم القدوة لأهل الإيمان، [لَا يَحْزُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا
 يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ] [الانبياء 103]، فإظهارهم الخوف والرهبة نابع من أنها
 صفة لازمة في أهل الإيمان.

الثاني: قد ورد في أحاديث أخرى نصوص تفيد خوفهم من عذاب الله وهم في الدنيا
 ومن ذلك ما رواه الحارث الأشعري رضي الله عنه، أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:
 " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ يَحْيَىٰ بْنَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِحَمْسِ كَلِمَاتٍ، أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ،
 وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، وَكَأَدَّ أَنْ يُبْطِئَ، فَقَالَ لَهُ عِيسَى: إِنَّكَ قَدْ أَمَرْتَ

¹ الجمع بين الصحيحين 2386، اللؤلؤ والمرجان 120، البخاري 3340 و 4712، مسلم 194

بِحَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ، وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، فِيمَا أَنْ تُبَلِّغَهُنَّ، وَإِمَّا أَنْ أُبَلِّغَهُنَّ. فَقَالَ: يَا أَخِي، إِنِّي أَحْشَىٰ إِنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أُعَذَّبَ أَوْ يُحْسَفَ بِي ¹.

ومنه كذلك ما جاء في سورة هود عن نبي الله نوح عليه السلام: [وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلِنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ] [هود 45-47].

أولياء الله: [أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ] [يونس 62-63]، وقد يقول قائل لا نجد صفة خشيتهم لله في الآيات..!! والجواب: إن القرآن يفسر بعضه بعضا ويشرح بعضه بعضا، ولذلك نجد ذلك في قوله سبحانه وتعالى في صفة المتقين التي هي صفة لازمة لأولياء الله: [وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ] [الانبياء 48-49].

المؤمنون: [اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ * يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ] [الشورى 17-18].

الموقنون بوعد الله: ومن هؤلاء الرجال من قوم موسى عليه السلام، اللذان وقفا الى جانب موسى وهارون لما دبّ الخوف والجبين في قلوب بني اسرائيل فرفضوا تنفيذ الأمر

¹ رواه احمد 17170 و 17800، والحاكم 1534، والطبراني في الكبير 3427، وصححه الالباني في صحيح الجامع الصغير

بدخول الأرض المقدسة خوفا من الجبايرة المشركين، [قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَآتِكُمْ غَابِلُونَ وَعَلَى اللَّهِ فِتْوَكُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] [المائدة 23].

أولوا الالباب: [أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْفِضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ] [الرعد 19-21].

أهل المساجد والجماعات: [فِي بُيُوتٍ أذنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ] [النور 36-37].

الأبرار ومن سار على نهجهم: [يُؤْفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا] [الإنسان 7-10] وقد يقول قائل أن هذه الآيات نزلت بأناس مخصوصين من المسلمين. وهذا وهم منهم، إذ المتحقق من كلام أهل الأصول أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وما ذهب إليه أهل الأصول جاء دليله في السنة الشريفة من حديث ابن شهاب عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أَنَّ عَوْمِرًا الْعَجَلَانِيَّ جَاءَ إِلَى عَاصِمِ بْنِ عَدِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَاصِمُ، أَرَأَيْتَ رَجُلًا وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا، أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ، أَمْ كَيْفَ يَفْعَلُ؟ سَأَلَ لِي يَا عَاصِمُ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلَ عَاصِمٌ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَرِهَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَسَائِلَ وَعَابَهَا، حَتَّى كَبُرَ عَلَى عَاصِمٍ مَا سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا رَجَعَ عَاصِمٌ إِلَى

أَهْلِهِ، جَاءَ عُومَيْرٌ فَقَالَ: يَا عَاصِمُ، مَاذَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَ عَاصِمٌ: لَمْ تَأْتِنِي بِخَيْرٍ، قَدْ كَرِهَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَسْأَلَةَ الَّتِي سَأَلْتُهُ عَنْهَا، قَالَ عُومَيْرٌ: وَاللَّهِ لَا أَنْتَهِيَ حَتَّى أَسْأَلَهُ عَنْهَا، فَأَقْبَلَ عُومَيْرٌ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَطَ النَّاسِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ رَجُلًا وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا، أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ، أَمْ كَيْفَ يَفْعَلُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيكَ وَفِي صَاحِبَتِكَ، فَادْهَبِ فَأْتِي بِهَا» قَالَ سَهْلٌ: فَتَلَاعَنَا وَأَنَا مَعَ النَّاسِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا فَرَعْنَا، قَالَ عُومَيْرٌ: كَذَبْتُ عَلَيْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَمْسَكْتُهَا، فَطَلَّقَهَا ثَلَاثًا، قَبْلَ أَنْ يَأْمُرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ابْنُ شَهَابٍ: «فَكَانَتْ تَلِكُ سُنَّةَ الْمُتَلَاعِنِينَ»¹.

فقوله صلى الله عليه وسلم أن الله أنزل فيك وفي صاحبتك قرآنا رغم أن ما نزل من آيات الملاعنة من سورة النور كانت قد نزلت في هلال بن أمية وزوجته وهي أول حالات اللعان كما ذكر غير واحد من أهل العلم، فدل ذلك أن الآيات تشمل كل حالة مشابهة. وإن كانوا قد اختلفوا في أيهما أسبق إلا أن متن رواية هلال بن أمية يدل على السبق وبه قال طائفة من أهل العلم، حيث ورد من رواية ابن عباس: أَنَّ هِلَالَ ابْنِ أُمِّيَّةَ قَذَفَ امْرَأَتَهُ بِشْرِيكَ بْنِ سَحْمَاءَ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْبَيْتَةُ أَوْ حَدُّ فِي ظَهْرِكَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذَا رَأَى أَحَدُنَا الرَّجُلَ عَلَى امْرَأَتِهِ يَنْطَلِقُ يَلْتَمِسُ الْبَيْتَةَ؟ قَالَ فَجَعَلَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: الْبَيْتَةُ وَإِلَّا فَحَدُّ فِي ظَهْرِكَ قَالَ: فَقَالَ هِلَالٌ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لِيُنزَلَ اللَّهُ فِي أَمْرِي مَا يُبْرِيئُ بِهِ ظَهْرِي مِنَ الْحَدِّ قَالَ فَنَزَلَ جِبْرَائِيلُ فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ} حَتَّى بَلَغَ: {وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ} فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَيْهِمَا

¹ رواه البخاري 5259 و 5308، ومسلم 1492

فجاء فقام هلال من أُمِّيَّة فَشَهِدَ وَالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمْ كَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمْ تَائِبٌ؟ فَقَامَتْ فَشَهِدَتْ. فَلَمَّا كَانَتْ عِنْدَ الْخَامِسَةِ، قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : أَوْقُوهَا فَإِنَّهَا مُوجِبَةٌ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَتَلَكَّأَتْ وَنَكَصَتْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهَا سَتَرْجِعُ، ثُمَّ قَالَتْ: لَا أَفْضَحُ قَوْمِي سَائِرَ الْيَوْمِ، فَمَضَتْ، فَفُرِقَ بَيْنَهُمَا. قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : أَبْصِرُوهَا، فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَكْحَلَ الْعَيْنَيْنِ سَابِعَ الْإِلْتَيْنِ حَدَجَ السَّاقِينَ فَهُوَ لِشَرِيكَ بْنِ سَحْمَاءَ، فَجَاءَتْ بِهِ كَذَلِكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : لَوْلَا مَا مَضَى مِنْ كِتَابِ اللَّهِ لَكَانَ لِي وَهَذَا شَأْنٌ¹.

وظاهر النص يفيد أن آيات اللعان لم تكن قد نزلت ولهذا قال هلال بن أمية: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لِيُنزِلَنَّ اللَّهُ فِي أَمْرِي مَا يُبْرِئُنِي بِهِ ظَهْرِي مِنَ الْحَدِّ قَالَ فنزل جبرائيل فأنزل عليه: " والذين يرمون أزواجهم " حَتَّى بَلَغَ: " وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ".

وقد سار الصحابة وأهل الايمان من سلف الأمة وخلفها على منهج الانبياء عليهم السلام في الخشية والخوف من الله سبحانه ومن ذلك ما رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق من روايات الضحاك قال: " مر أبو بكر بطير وقع على شجرة فقال طوبى لك يا طير، تطير فتقع على الشجر، ثم تأكل من الثمر، ثم تطير ليس عليك حساب ولا عذاب. يا ليتني كنت مثلك والله لوددت أني كنت شجرة إلى جانب الطريق فمر علي بعير فأخذني فأدخلني فاه فلاكني ثم ازدردني ثم أخرجني بعرا ولم أكن بشرا.

وقال عمر يا ليتني كنت كبش أهلي سمّوني ما بدا لهم حتى إذا كنت كأسمن ما يكون زارهم بعض من يحبون فذبحوني لهم فجعلوا بعضي شواء وبعضي قديدا ثم أكلوني ولم

¹ الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي للماوردي 5/11.

أكن بشرا.

وقال أبو الدرداء يا ليتني كنت شجرة تعضد وتأكل ثمرتي ولم أكن بشرا¹.

وقال ابن مسعود: " لو وقفت بين الجنة والنار فقبل لي: اختر نخيرك من أيهما تكون أحب إليك أو تكون رمادا، لأحببت أن أكون رمادا²"

وقال ابن الجوزي ولما احتضر عمر بن عبد العزيز قال: إلهي أمرتني فلم أثمر وزجرتني فلم أنزجر. غير أنني أقول: لا له إلا الله³.

ولما احتضر الرشيد أمر بحفر قبره ثم حمل إليه فاطلع فيه فبكى حتى رحم ثم قال: يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه⁴.

وهذا فيض من غيظ مما كان عليه سلف الأمة من الصحابة ومن استرعاهم الله أمر خلقه من الخلفاء والولاة ومن أهل الايمان. وهناك الكثير الكثير مما لا يتسع المجال لذكره في هذا المقام. وكل من زعم خشية الله ولم تتوفر فيه صفات أهل الخشية فلينظر حقيقة نفسه، وويلعاج الخلل والعلة التي ألمت بقلبه. إلا أن الخوف والخشية لا يعني بحال من الأحوال انقطاع الرجاء، بل المؤمن في منزلة بين الاثنتين لا ينفك عن أحدهما، يغلب خوفه في الدنيا رجاءه، فيدفعه للعمل والحذر من الإنزلاق في طرق الشيطان، قال سبحانه: [إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ حَشِيَّةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ

¹ تاريخ دمشق لابن عساکر 331/30.

² الطبراني في المعجم الكبير 8535، وليس للحسن البصري سماع من ابن مسعود

³ التبصرة لابن الجوزي ص216.

⁴ التبصرة لابن الجوزي ص216.

* أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ هُنَا سَابِقُونَ [المؤمنون 57-61]. فإذا كان العبد المؤمن في انقطاع من الدنيا وحانت لحظة فراقها كان رجاؤه بربه أكبر وأعظم، فأهل الإيمان إذ عرفوا ربهم، ركنوا اليه، وأخبت قلوبهم خشوعاً بين يديه، فخافوا وعيدته، وأقبلوا اليه بالرغبة رجاء ثواب ورجاء رحمة وبهذا وصفهم ربه بقوله: [أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ] [الزمر 9]. وفي الحديث عن أنس - رضي الله عنه - : أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل على شابٍ وهو في الموتِ، فقال: كيف تَجِدُكَ؟ قال: والله يا رسولَ الله، إِنِّي أَرْجُو اللهَ، وَإِنِّي أَخَافُ دُنُوبِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : لا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ؛ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ ما يَرْجُو، وَأَمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ¹.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرُوى عَنْ رَبِهِ جَلَّ وَعَلَا أَنَّهُ قَالَ: "وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِذَا أَمَّنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"².

والخوف والرجاء متلازمان لا يُستغنى بأحد منهما عن الآخر، كجناحي الطائر إن هبض أحدهما لم يطر وكان ماله التلف والهلاك.

ونقل ابن القيم رحمه الله عن أحمد بن عاصم أنه سئل: ما علامة الرجاء في العبد؟ فقال: أن يكون إذا أحاط به الإحسان ألهم الشكر، راجياً لتمام النعمة من الله عليه في الدنيا والآخرة، وتمام عفوه عنه في الآخرة.

¹ رواه الترمذي 983، وابن ماجه 4261، والنسائي في الكبرى 10834، وصححه الالباني في السلسلة الصحيحة 1050

² رواه البزار 8028، والهيتمي في موارد الظمآن 2494، وابن حبان 640، وصححه الالباني في السلسلة الصحيحة 2666.

واختلفوا، أي الرجائين أكمل: رجاء المحسن ثواب إحسانه. أو رجاء المسيء التائب مغفرة ربه وعفوه؟.

فطائفة رجحت رجاء المحسن. لقوة أسباب الرجاء معه. وطائفة رجحت رجاء المذنب؛ لأن رجاءه مجرد عن علة رؤية العمل، مقرون بذلة رؤية الذنب.

قال يحيى بن معاذ: يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال؛ لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أصفئها وأحرزها؟ وأنا بالآفات معروف. وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف؟¹.

وكان أهل العلم من سلف الأمة يوجهون انظار الناس الى حقيقة الرجاء ووجوب مصاحبته لحسن العمل خشية الوقوع في الإرجاء وشتان بين رجاء يصحبه العمل، وإرجاء يقعد بصاحبه عن العمل المأمور به، ظنا بأن قول اللسان أو انعقاد القلب بلا عمل ينجي من المهالك، واذا كانت رحمة الله قريب من المحسنين لما تميزوا به من الإحسان في الاعتقاد والعمل فقد جاءت نصوص الوحيين واضحة لبيان ذلك. قال ابن المبارك: جئت إلى سفيان الثوري عشية عرفة وهو جاث على ركبتيه وعيناه تهملان، فقلت له: من أسوأ هذا الجمع حالا؟ قال: الذي يظن أن الله لا يغفر لهم. وروي عن الفضيل أنه نظر إلى تسبيح الناس وبكائهم عشية عرفة فقال: أرايتم لو أن هؤلاء ساروا إلى رجل فسألوا دائقا. يعني سدس درهم. أكان يردهم قالوا: لا قال: والله للمغفرة عند الله أهون من إجابة رجل لهم بدائق².

¹ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين 38/2

² لطائف المعارف لابن رجب ص287.

قال حافظ الحكمي في "المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية:"

وأقننت وبين الرجاء والخوف فم أبداً
فأخوف ما أورت التقوى وحث على
كذا الرجاء ما على هذا يحث لتص
والخوف إن زاد أفضى للفتن كما
فلا تفرط ولا تفرط وكن وسطاً
سدّد وقارب وأبشّر واستعن بعُدو
فمثل ما خانت الكسلان همته
تخشى الذنوب وترجو عفو ذي الكرم
مرضاة ربي وهجر الإثم والأثم
دقيق بموعود ربي بالجزء العظم
يُفضي الرجاء لأمن المكر والنقم
ومثل ما أمر الرحمن فاستقم
والروح وأدليج قاصداً ودم
فطالما حرم المنبت بالسأم

ولما كان الخشية والرجاء مطلب تحقيق التقوى فهما، كذلك فهما سلّم الوصول الى الإحسان. إذ هما الدافعان للجد والاجتهاد في دفع الوسوس، واجتناب المهالك، والسير في طريق الهدى والإيمان. فإذا ما تحقق ذلك في العبد مع صدق النية، وتوجه القلب لرضى الخالق جل وعز، كان حق العبد على الله سبحانه أن يقيه السيئات والوقوع فيها. قال تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ [الاعراف 201].

لهذا شرع ربنا جل وعزّ وسائل لتحقيق تقوى القلوب تمثلت في ثلاثة أمور، من أتى بها على الوجه الذي أمر به الله تعالى تحقق له المطلوب.

أولاهها: الأخذ بكتاب الله سبحانه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، والاعتصام بما جاء في نصوص الوحيين بإخلاص القلوب، وصدق التوجه، والعزيمة في العمل، والقوة في الأداء. وكافة نصوص الوحيين تشير الى هذا الأمر قال سبحانه: [إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا

وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا] [النساء 146]. وفي الحديث عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَانَتْهُ مُنْذِرٌ جَيْشٍ يَقُولُ: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ»، وَيَقُولُ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ»، وَيَقْرَأُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَابَةَ، وَالْوُسْطَى، وَيَقُولُ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»¹. وعند أحمد وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن الْمُقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرَبٍ، يَقُولُ: حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ خَيْرِ أَشْيَاءٍ، ثُمَّ قَالَ: "يُوشِكُ أَحَدُكُمْ أَنْ يُكَذِّبَنِي وَهُوَ مُتَكَيِّئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ يُحَدِّثُ بِحَدِيثِي، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ، أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ"².

واقترضت حكمة الله أن يأمر أهل الطاعة والإيمان أن يأخذوا بما جاء به الوحي بقوة دفعا للوهن، وتعظيما للدين، تعظيما يدرأ عن المؤمن مفسدة المداهنة والتنازل عن معطيات الدين تحقيقا لمآرب دنيوية، أو إرضاء لدعاة الباطل، أو أرباب السلطان. ولم يكن هذا الأمر خاصا ببني اسرائيل فحسب بل هو أمر لكل اتباع الرسالات السماوية قال سبحانه: [وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا حُذْوًا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ] [الاعراف 145]، وكذلك أمر الأنبياء فقال سبحانه: [يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا] [مريم 12]. وقد حذر الله سبحانه المؤمنين من الردة والضعف في التمسك بدينهم، وبين أنه يجب

¹ رواه مسلم 867

² مسند احمد 17193 وصححه الالباني في السلسلة الصحيحة 2870

العباد الواثقين بدينهم وإيمانهم، ينصرونه ولا يخافون فيه لومة لائم، فقال جل وعلا: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ] [المائدة 54]. ولهذا تبه أن أهل الإيمان من أتباع الأنبياء لا يثنى عنهم عن دينهم ما يتعرضون له من الأذى والحزن، فقال: [وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ] [آل عمران 146]. وفي الحديث عن معاوية وثوبان رضي الله عنهما، عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ¹.

وما يشاهده المسلم من حال بعض أهل العلم من المسلمين من المسارعة في البحث عن الرخص، استرضاء لأصحاب السلطان، أو طلبا لمصالح، أو استجداء للقبول عند الغير من الناس، والأُنكى فعل ذلك طلبا لرضى من هم على غير الملة في المجتمعات الغربية، ظنا منهم أنهم بذلك يدرءون مفسدة العنصرية والهجمات الإعلامية التي تطال الإسلام والمسلمين، وإذا بالأمر ينقلب وبالا على عوام المسلمين، إذ درج كثير منهم الى الاستهانة بأحكام الشريعة في عباداتهم ومعاملاتهم. بل أصبح هؤلاء يصمون المستمسكين بالكتاب والسنة بالتشدد لمخالفتهم ما أخذ به هؤلاء من شذوذ الأقوال التي لا يقوم بها دين، ولا ينبني عليها حجة.

وقد أصبح هؤلاء المتخفقون والمستجدون لغير المسلمين - فيما ذهبوا اليه من الرخص - في نظر بعض أتباعهم هم الرجال الذين لا يؤخذ الدين إلا عنهم، رغم مخالفتهم لما عليه

¹ متفق عليه، رواه البخاري 3641، ومسلم 1037 و1920.

مذاهب أهل العلم ومجامع الفقه المعتمدة على مَرِّ التاريخ الإسلامي كله، ضاربين بعرض الحائط أقوال أهل العلم المحققين والراسخين في العلم سلفا وخلفا. وليس قولنا هذا من باب التعصب لرأي، أو تمسكا بمذهب على حساب الحق. بل هو من باب استنكار خروج البعض عن جادة الحق بما انتهجوه من ترجيح المرجوح على الراجح الذي ثبت رجحانه، خدمة لاهداف دنيوية وحزبية، أو بمبررات موتورة لا يقوم بها للدين في حقيقة الأمر مصلحة.

وأصبحنا في زماننا نسمع آراء تشكك في ثوابت ثبتت بالنص والإجماع هربا من استهجان واستنكار غير المسلمين لها. وكأنما نسي هؤلاء أن الله جعل مثل هذه الأحكام على قسوتها أحيانا طريقا للتقوى، وتقويما للحياة لتستقيم على أسس سليمة، كما قال الله سبحانه [وَلكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] [البقرة 179].

ولقد نسي هؤلاء في غمرة ضعفهم وانحذارهم أن البناء القرآني للأمة في زمن الكفر والجاهلية إنما جاء على الأخذ بجوامع العزيمة، وهو ما قاله أهل العلم في تفسير أوائل سورة المزمل، قال البغوي: " قال العلماء: كان هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم في أول الوحي قبل تبليغ الرسالة ثم خوطب بعد بالنبي والرسول. قم الليل، أي للصلاة، إلا قليلا، وكان قيام الليل فريضة في الابتداء ثم بين قدره فقال: نصفه أو انقص منه قليلا، إلى الثلث. " أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا"، أو زد عليه، على النصف إلى الثلثين، خيره بين هذه المنازل، فكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يقومون على هذه المقادير، وكان الرجل لا يدري متى ثلث الليل ومتى النصف ومتى الثلثان، فكان يقوم حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب، واشتد ذلك عليهم حتى انتفخت أقدامهم فرحمهم الله وخفف عنهم ونسخها بقوله: [فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ

سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى [المزمل: 20] الآية، فكان بين أول السورة وآخرها سنة¹.

وحمل الأمة على الأشد عند اشتداد الفتن والابتلاءات، وتربص اعداء الدين الدوائر بأهل الإيمان أدعى من حمل الأمة على التخفف والترخص، استنهاضا للهمم، وترويضاً للنفوس، وتهذيباً لها، وتدريباً لها على عدم القبول بالدنية والركون الى الدنيا. أما الترخص الزائد عن الحد، وتمييع الدين، والبحث عن الآراء التي تتوافق مع الأهواء بتهوين الحرام، وغير ذلك من أقوال أهل العلم المرجوحة في مواجهة الراجح من الأقوال بمبررات مججوة، مع ما تتعرض اليه الأقليات المسلمة في الغرب، وما تتعرض له الأمة من هجمات العلمانيين والملاحدة وأهل البدع والضلال في الشرق، فكل ذلك لا يخرج إلا أشباه الرجال، فلا بد للأمة من العودة إلى أصول منهجها كما كان عليه سلف الأمة لأنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح عليه أولها²، وفي سيرة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في بدء الدعوة وما تلاه شاهد ودليل.

بناء الأمة على ما يستنهض همتها، ويرتفع بها في موازين ربها، هو ما يحقق للأمة عزتها وكرامتها، والرخصة التي جاءت بها النصوص هي فرع عن أصل، أحب الله إتيانها في محل الأخذ بها؛ لا لجعلها أصلاً في العمل. قال المناوي في شرحه على الجامع الصغير: " جمع رخصة، وهي تسهيل الحكم على المكلف لعذر حصل، وقيل غير ذلك، لما فيه من دفع التكبر والترفع من استباحة ما أباحته الشريعة. ومن أنف ما أباحه الشرع وترفع عنه فسد دينه، فأمر بفعل الرخصة ليدفع عن نفسه تكبرها، ويقتل بذلك كبرها، ويقهر النفس الأمارة بالسوء على قبول ما جاء به الشرع. ومفهوم محبته لإتيان الرخص أنه يكره تركه، فأكد قبول رخصته تأكيداً يكاد يلحق بالوجوب بقوله (كما يكره أن تؤتى

¹ تفسير البيهقي 164/5.

² مسند الموطأ للجوهري ص 584

معصيته). وقال الغزالي رحمه الله: هذا قاله تطيباً لقلوب الضعفاء، حتى لا ينتهي بهم الضعف إلى اليأس والقنوط، فيتركوا الميسور من الخير عليهم لعجزهم عن منتهى الدرجات، فما أرسل إلا رحمة للعالمين كلهم على اختلاف درجاتهم وأصنافهم¹. وعليه فحمل الناس على الرخص والتيسير مع قدرتهم على العزيمة التي لا تخالف السنة هو من الاسفاف المنبوذ الذي يفت في عضد الأمة، ويحملها على الدعة والراحة، فإذا ما ركنت الى ذلك لم تقو على النهوض بالأعباء التي ترفع من شأنها وتحمي ذمارها.

وثانيها: الحذر من شهوة البطن والفرج ومقاومتها امتثالاً لأمر الله سبحانه. فشهوة البطن أول مهلكة وقع فيها الانسان بعد خلقه، وبسببها أخرج آدم من الجنة، ولهذا جاء الهدي النبوي الشريف موجها ومعلماً للمؤمنين بكسر شهوة البطن. بل وعدّها أعظم الشرور، فعن المقدّام بن معد يكرب، يقول: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَا مَلَأَ آدَمِيَّ وَعَاءٌ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، حَسْبُ الْآدَمِيِّ، لُقَيْمَاتٌ يُقَمِّنُ صُلْبَهُ، فَإِنْ غَلَبَتِ الْآدَمِيَّ نَفْسُهُ، فَتُلُتْ لِلطَّعَامِ، وَتُلُتْ لِلشَّرَابِ، وَتُلُتْ لِلنَّفْسِ»². ومن اطّلع على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وما بلغنا من الآثار وجد أن الرعيل الأول الذين ارتفع بنیان الإسلام بفضل الله على أكتافهم، وجهدهم، وجلّهم ما كانوا يجدون كفاف يومهم.

قال ابو نعيم في الحلية في وصف أصحاب الصُّفَّة: " وهم قوم أخلاهم الحق من الركون إلى شيء من العروض، وعصمهم من الافتتان بها عن الفروض، وجعلهم قدوة للمتجردين من الفقراء، كما جعل من تقدم ذكرهم أسوة للعارفين من الحكماء، لا

¹ فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي 296/2.

² رواه احمد 17186، والنسائي في الكبرى 6737، والترمذي 2380 وابن ماجه 3349، والحاكم 7139، والطبراني 644،

وصححه الالباني في الصحيحة 2265

يأوون إلى أهل ولا مال، ولا يلهيهم عن ذكر الله تجارة ولا حال، لم يجزنوا على ما فاتهم من الدنيا، ولا يفرحون إلا بما أيدوا به من العقبى، كانت أفراحهم بمعبودهم ومليكنهم، وأحزانهم على فوت الاغتنام من أوقاتهم وأورادهم، هم الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، ولم يأسوا على ما فاتهم، ولم يفرحوا بما آتاهم، حماهم مليكنهم عن التمتع بالدنيا والتبسط فيها لكيلا يبغوا ولا يطغوا، رفضوا الحزن على ما فات من ذهاب وشتات، والفرح بصاحب نسب إلى بلى ورفات¹. وقد زخرت كتب الاعلام المحققين في ذكر جوعهم رضي الله عنهم، ناهيك عن جوع خير الخلق محمد صلى الله عليه وسلم واصحابه ثلاث سنين عجاف في شعب ابي طالب، حتى انهم ليأكلون لحاء الشجر، وفي حديث عائشة رضي الله عنها: « مَا شَبِعَ آلَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنْذُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، مِنْ طَعَامِ الْبُرِّ ثَلَاثَ لَيَالٍ تَبَاعًا، حَتَّى قُبِضَ »².

وشهوة البطن طريق الآثام، وسبيل الشيطان، بها تستعر شهوة الفرج، ويرد الانسان مهالك البطر، وما اتخمت الكروش الا استهوتها الشهوات الأخرى. ولهذا نبه النبي صلى الله عليه وسلم الى إجماعها بالصوم والجوع، عَن عَلْقَمَةَ قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بِنِي، فَلَقِيَهُ عُثْمَانُ، فَقَامَ مَعَهُ يَحْدُثُهُ، فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَلَا أَرَوْكَ جَارِيَةَ شَابَةَ لَعَلَّهَا تَذُكُّرُكَ بَعْضَ مَا مَضَى مِنْ زَمَانِكَ. قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَئِنْ قُلْتُ ذَلِكَ، لَقَدْ قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغْضَى لِلْبَصْرِ وَأَحْصَنَ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ " ³.

¹ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم 337/1-338.

² متفق عليه، رواه البخاري 5416، ومسلم 2970.

³ متفق عليه، رواه البخاري 1905 و 5066، مسلم 1400.

قال شيخ الاسلام: إن الله خلق فينا الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ لِنَسْتَعِينَ بِهَا عَلَى كَمَالِ مَصَالِحِنَا، فَخَلَقَ فِيْنَا شَهْوَةَ الْأَكْلِ وَاللَّذَةَ بِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ نِعْمَةٌ، وَبِهِ يَحْصُلُ بَقَاءُ جِسْمِنَا فِي الدُّنْيَا. وَكَذَلِكَ شَهْوَةُ النَّكَاحِ وَاللَّذَةُ بِهِ، هُوَ فِي نَفْسِهِ وَبِهِ يَحْصُلُ بَقَاءُ النَّسْلِ. فَإِذَا اسْتَعِينَ بِهَذِهِ الْقُوَى عَلَى مَا أَمَرْنَا كَانَ ذَلِكَ سَعَادَةً لَنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَكُنَّا مِنَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نِعْمَةً مُطْلَقَةً. وَإِنْ اسْتَعْمَلْنَا الشَّهَوَاتِ فِيمَا حَظَرَهُ عَلَيْنَا، بِأَكْلِ الْحَبَائِثِ فِي نَفْسِهَا، أَوْ كَسْبِهَا كَالْمَظَالِمِ، أَوْ بِالْإِسْرَافِ فِيهَا، أَوْ تَعْدِينَا أَزْوَاجِنَا، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُنَا، كُنَّا ظَالِمِينَ مَعْتَدِينَ غَيْرِ شَاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ¹. وَمَنْ حَكَمَ اللَّهُ فِي الصَّوْمِ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَاتُ أَنَّ الصِّيَامَ طَرِيقٌ لِتَحْقِيقِ التَّقْوَى، قَالَ تَعَالَى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] [البقرة 183].

وأما تعريف الصيام فالصوم لغة: مطلق الإمساك والكفّ، فكل من أمسك عن شيء يقال فيه: صام عنه. وفي الشرع: الإمساك عن شهوتي الفرج والبطن يوما كاملا بنية التقرب². قلت هو الامساك عن شهوات يحتاجها الانسان في الدنيا اباحها الله له، ابتغاء ما هو إليه أشد حاجة في الآخرة.

وهذا مقصود الشرع بحمل النفس على الامتناع عن الشهوات امتثالاً لأمر الله سبحانه، وضبط السلوك البشري لينتظم في سلك العبودية لله، وعدم الانقياد لغيره مما يستهويه ويقوده إليه هواه.، والامتناع عن شهوة البطن والفرج، كسر لصولة الشيطان وإطفاء لجمرة الشهوة، فإذا ما تحققت التقوى ارتفع الايمان وازداد، وتحققت صفة الايمان، كما قال سبحانه: [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ] [الانفال 2].

¹ الاستقامة لابن تيمية 342.

² الموسوعة الفقهية الكويتية 4/270، لطبعة الثانية 1404هـ، دارالسلاسل - الكويت

ولما كان النهار محل النشاط والهمة، والعمل والسعي، فقد جعل الصيام في النهار مصاحباً للجهد والحركة، والامتناع عن الطعام والشراب مع الجهد كإباحة لوساوس الشيطان، ومانع من الوقوع في المنهيات التي هي مقدمات الزنا، من النظر إلى المحرمات وما شابهه. فإن قال قائل فما الدليل من كتاب الله على أن الصيام يتضمن الامتناع عن الشهوة؟ فالجواب في قوله تعالى: [أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ هُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْحَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْحَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ] [البقرة 187]. فلما كان أباحه لهم في غير وقت الصيام فقد دل على حرمة وقت الصيام. ذلك لأن الأصل فيه الحل ليلاً ونهاراً في غير وقت الصيام، فلما حدد اباحتها في شهر الصيام في غير وقت الصيام، أي ما بعد وقت الإفطار الذي حدده النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَا هُنَا، وَأَذْبَرَ النَّهَارَ مِنْ هَا هُنَا، وَعَرَبَتِ الشَّمْسُ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ»¹، فدل على حرمة الشهوة في غير وقت الليل وهو وقت الصيام، ثم حرمتها في وقت الليل على المعتكف، لمناقضة الشهوة لمقصد الاعتكاف والانقطاع عن أمر الدنيا في مدة محدودة معينة رجاء التعبد والتقرب إلى الله سبحانه.

ولقد وردت على الأمة نوازل مع وصول الإسلام شتى اصقاع الأرض مع اختلاف طول النهار وقصره، مما ترتب عليه خلاف بين المسلمين في المشقة المترتبة على هذا الاضطراب. وعليه ذهب بعض أهل العلم إلى اعتماد فتوى دار الافتاء المصرية التي

¹ متفق عليه، رواه البخاري 1954، ومسلم 1100

افتاها الشيخ محمد عبده، وذهب اليها بعض علماء المجلس الاوروي للافتاء، وبعض اهل العلم ممن لا دراية لهم بحقيقة الواقع الغربي، وذلك في مسألة حقيقة المشقة توهما بسبب مجرد طول الوقت. وما دلت عليه النصوص في التعامل مع المشقة يدحض ما ذهبوا إليه. إذ لا تتساوى المشقة على جميع الأفراد بنفس المستوى، ناهيك عن أن المشقة بحد ذاتها ليست على مستوى واحد، فهناك مشقة خفيفة ومشقة متوسطة ومشقة شديدة. وقد جاءت النصوص دالة على أن المشقة تتعلق بالأفراد على اختلاف طاقاتهم، ولا يكون التعميم إلا فيما كانت مشقته عامة لا يحتملها الأغلب الأعم، وعليه فإن النادر لا حكم له كما ذكر ابن حجر في الفتح¹، وهو ما وقع فيه من أفتى في تصوّر أن طول النهار حكر على فئة محدودة، غافلين عن حقيقة ان هذه المسألة تطال عددا من البلاد تتقارب الاوقات بينها، وإن طالت في بعضها اكثر الا أنه ليس فرق عظيم. ولذا لا بد من أخذ بعض الأمور بعين الاعتبار قبل الخوض في المسألة ومن ذلك:

الأمر الأول: ان المفتي يفتي في كافة المسائل بما قام عليه الدليل القطعي النقلي مما توافقت عليه الأمة من مصادر التشريع إن وجد، فإذا ما انعدم الدليل النقلي لجأ الى الرأي، فإذا ما كانت المسألة متعلقة بفنّ من الفنون لا يعلمه المفتي بذاته رجع الى أهل الإختصاص فيه، ولما كانت مسألة الصيام متعلقة بالجسم البشري وقدرته، وهذا فنّ من فنون الطب يعلمه الطبيب الحاذق، فقد لزم الرجوع الى الطبيب المسلم الورع لاستفتائه وسؤاله، وبهذا يتحقق للمفتي الوصول للصواب في المسألة. ولقد نقل الخطيب البغدادي في كتابه الفقيه والمتفقه جملة أقوال جدير بكل صاحب علم يتصدر للفتوى درايتها

¹ فتح الباري شرح صحيح البخاري 335/11

وحفظها ومن ذلك ما قاله مطرف بن عبد الله بن الشخير: « من استفتح باب الرأي من وجهه وأتاه من طريقه , ضمنت له النَّجْحَ , وتحملت عنه الخطأ» , قيل ما وجهه وأين طريقه؟ قال: « يبدأ بالاستخارة، ثم الاستشارة , ولا يشاور إلا عارفا حدبا عليه»¹. وكذلك ما قاله اياس بن معاوية لربيعة: «إن البناء إذا بني على غير أس لم يكذب يعتدل» يريد بذلك المفتي الذي يتكلم على غير أصل بيني عليه كلامه². ولهذا كان ابو حنيفة رحمه الله إذا سئل عن شيء من اللغة، يقول: إنها ليست من شأني، ويتمثل بهذا الشعر:

إِنَّ هَذَا الْقِيَّاسَ فِي كُلِّ فَنٍّ عِنْدَ أَهْلِ الْعُقُولِ كَالْمِيزَانِ
مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ فَضَحَّتْهُ شَوَاهِدُ الْإِمْتِحَانِ
وَجَرَى فِي السَّبَاقِ جَرِي سَكَيْتٍ خَلَقْتُهُ الْجِيَادُ يَوْمَ الرَّهَانِ³

الأمر الثاني: أن مسألة طول النهار في الصيف، والمشقة المترتبة عليها، وتأثيرها على الصائم، مسألة تتعلق بالجسم البشري وقدرته. وهي مسألة لا يحدها الفقيه، بل يحدها الطبيب الحاذق، ولهذا فالفقيه يبيِّن حكمه في تحديد المشقة بالرجوع الى اهل الاختصاص من اهل الصنعة الحاذقين الورعين من المسلمين. ولا يبيِّن تصوره قياسا على نفسه، فقدرات البشر تختلف، كما تختلف البيئة والطقس وكل ذلك له تأثير على قدرات الانسان في مسألة ساعات الصوم وطولها.

¹ البغدادي، الخطيب أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي (المتوفى: 463هـ)، الفقيه و المتفقه 393/2، تحقيق:

أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، الطبعة: الثانية، 1421هـ، دار ابن الجوزي - السعودية

² الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي 393/2

³ الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي 402/2

الأمر الثالث: ان الذي فرض الصيام وحدد وقته ابتداء وانتهاء هو الذي خلق السموات والارض وهو الأعلم بما خلق، وما كلف فيما افترضه الناس ما لا يطيقون، بل رهن كل التكاليف الشرعية بالقدرة والاستطاعة في خمسة مواضع في القرآن الكريم حيث ذكر ذلك في البقرة مرتان، والانعام والاعراف والمؤمنون مرة مرة، قال تعالى: " وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ " المؤمنون 42. ولقد صح من حديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا أَعْمَى، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ لَيْسَ لِي قَائِدٌ يَقُودُنِي إِلَى الْمَسْجِدِ، فَسَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُرَخِّصَ لَهُ، فَيُصَلِّيَ فِي بَيْتِهِ، فَرَخَّصَ لَهُ، فَلَمَّا وَلَّى، دَعَاهُ، فَقَالَ: «هَلْ تَسْمَعُ النَّدَاءَ بِالصَّلَاةِ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَأَجِبْ»¹. وفي هذا دليل أن المشقة تقدر بقدرها، وعليه يكون الحكم بالرخصة من عدمه، وما يكون مشقة عند شخص فيرخص له، قد لا يكون بنفس مستوى المشقة عند الآخر. فمن قدر على الواجب على الهيئة المشروعة أداه بها، ولا يجزئه غير ذلك إلا بدليل. ومن لم يقدر عليه إلا بمشقة بالغة تؤثر عليه؛ سواء في أدائه، أو في وظائفه الأخرى، فهو من أهل العذر الذين تباح لهم الرخصة.

الأمر الرابع: ان حكمة الله الأزلية مرتبطة بعلمه الأزلي بما عليه الخلق، وقد يكون من حكمته سبحانه طول ساعات النهار في صيام الصيف في البلاد التي يطول فيها النهار لساعات طويلة أدعى لتحقيق المقاصد الشرعية من الصيام، حفاظا على المسلمين من الوقوع في الزلل، وذلك بسبب ما في هذه البلاد من التفحش في العري صيفا أكثر من

بقية البلاد الاخرى، نظرا لعدم وجود الشمس في مثل هذه البلاد الا اياما معدودات في السنة. ولربما أن الله بعلمه سبحانه جاء بطول ساعات الصيام مع عدم وجود عناء العطش الشديد ولا الجوع الشديد متناسبا مع حال هذه البلاد وما فيها من الفتن. وللعامل أن يتصور ما يلزم الشاب من مجاهدة للنفس في بيئة لا تحتكم الى خلق أو دين، وايحت فيها كل المنكرات، ودواعي الزنا تحيط بالإنسان من كل مكان، سواء في مغريات الجمال أو اللباس أو سهولة الوصول الى المنكر، وأبناء المسلمين حولهم الف الف امرأة العزيز، كلهن تقول للشباب المسلم هيت لك، فإذا اخذنا بعين الاعتبار عدم توفر العلم الشرعي؛ والبناء النفسي الإسلامي -إلا من رحم الله وقليل من هم - ممن ولدوا أو نشأوا في هذه البلاد، ثم أراد البعض تخفيف الصيام الذي من حكم تشريع الله له تحقيق التقوى العاصمة من الوقوع في الزلل كما أسلفنا في حديث فإنه له وجاء.

وإذا كانت البيئة لها تأثير على الفتوى، إلا أن هذا التأثير لا يلحق بما جاء به النص والدليل، كما قال علي امين افندي في درر الحكام: " إن الأحكام التي تتغير بتغير الأزمان هي الأحكام المستندة على العرف والعادة، لأنه بتغير الأزمان تتغير احتياجات الناس، وبناء على هذا التغير يتبدل أيضا العرف والعادة، وبتغير العرف والعادة تتغير الأحكام حسبما أوضحنا آنفا، بخلاف الأحكام المستندة على الأدلة الشرعية التي لم تبني على العرف والعادة فإنها لا تتغير"¹.

وثالثها: الانتفاع بالموعظة والتذكير بالتزام وسائلهما من الاكثار من ذكر الموت وزيارة القبور والاستماع الى الذكر وحلّق العلم. ولقد جاء الأمر الإلهي للنبي صلى الله عليه

¹ درر الحكام في شرح مجلة الأحكام لعلي امين افندي 48/1.

وسلم وللانبياء بالدعوة الى الله، رجاء انتفاع الناس بالموعظة والتذكير، قال جلّ وعزّ: [وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ] [الانعام 51]. ولقد فهم أتباع الرسالات من المؤمنين دورهم وواجبهم فقاموا به على أكمل وجه. وإفشال تنبيط المنافقين ومن في قلوبهم مرض للمؤمنين؛ أخبر سبحانه عن أن القيام بالدعوة لا يقوم على انتظار النتائج، وإنما من باب القيام بالأمر إعدارا الى الله جلّ وعزّ فقال: [وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَدِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ، فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابٍ بَيِّسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ] [الأعراف 164].

ولا يتحقق الانتفاع بالموعظة إن لم يكن لها هدف وغاية؛ تتناسب مع الأمر الإلهي في أمر معروف ونهي عن منكر. ولا يكون ذلك الا بمناسبة المقال للحال. وغاية ومقصد الموعظة يتحدد في عدة نقاط:

1. إقامة الحججة على الخلق ببيان الحججة بما أنزل الله وما جاءت به الرسل: كما قال تعالى (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) النساء: 165.

2. القيام بالتكليف و إبلاغ الناس برسالة الله: " قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ " يوسف 108

3. رجاء النفع للمأمور بهدف تبصرته بالمآل والمثوبة والعقاب ليبقى على خشية وتقوى: كما قال تعالى (وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَدِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) الأعراف 164. والعدر الى الله إعلام

بالتزام الأمر بالبلاغ انصياعاً واستسلاماً لأمر الله لهم بذلك، وقال سبحانه (وَذَكِّرْ

فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) [الذاريات: 55]

4. الخوف من عقاب الله عز وجل: إِذْ إِنَّ تَرَكَ الدَّعْوَةَ مُؤَذِّنًا بِالعقوبة. [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا مَنْ يَرتَدَّ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ

وَيُحِبُّونَهُ] [المائدة: 54]، وقال: [وَإِنَّ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا

أَمْثَالَكُمْ] [محمد 38].

5. طلباً للثواب والفلاح كما أخبر الله بأن الفلاح بالدعوة إليه والأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر، قال سبحانه: [وَتَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] [ال عمران 104].

6. النصيحة للمؤمنين حماية لهم من غضب الله وعقابه في الدنيا والآخرة، وفي الحديث

عن جرير بن عبد الله البجلي قال: « بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى

إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ »¹، وبوب البخاري في صحيحه

باب قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " الدِّينُ النَّصِيحَةُ: لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَالْأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ

وَعَامَّتِهِمْ »². وعن تميم الداري أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»

قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَالْأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»³

7. تعظيم حرمات الله ومحبتة وطاعته وعدم معصيته: وأنه أهلٌ لأن يُطاع فلا يُعصى،

¹ متفق عليه، رواه البخاري 57، ومسلم 56

² صحيح البخاري 21/1

³ صحيح مسلم 55

ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يُكفر، وأن يُفتدى من انتهاك محارمه بالنفوس والأموال .
فإذا ما تحقق للمسلم الانتفاع بالموعظة سكن قلبه واطمأن الى أقدار ربه سبحانه،
فحسن عمله، وازداد الى الله قربا، وعن المعصية بعدا فتحقق له المطلوب من التقوى
التي تقف حائلا بينه وبين الوقوع في حبائل الشيطان وشراك الشهوات.

معالم في سوق مفتوح

من المسائل التي تسترعي الانتباه في القرآن الكريم مثالين يتكرران على مدار آيات القرآن كلها بصور مختلفة، هما الزرع والتجارة. وكلاهما يتطلب حركة وجهداً، وينبغي عليهما ربح وخسارة، إذ نجاح المزارع في رعاية محاصيله، والقيام على شأنها بما تتطلب يؤول الى نموها، ووافر ثمرها وعطائها بإذن الله. وكذلك التجارة الناجحة التي يتعهد بها صاحبها، فيستغل مواسمها، ويحسن اختيار البضاعة وعرضها، يجد إقبالا ونجاحا وربحا عظيما. وكلا المسألتين إن توفر لصاحبيهما الناصح الأمين ذو الخبرة الذي يدلها على ما يستلزم عملهما، وما يتطلبه السوق لحصد الأرباح يفوزان وينعمان، ولهذا أخبر الرب سبحانه أنه قد بعث اليهما أدلاء ينتفعان بنصحهما فقال: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ] [الصف 10]. فهذه أول ضمانات التجارة، يطمئن الله بها قلوب التجار في الاستماع للدليل، وقبول نصحه ودلالته، لينجوا من الخسارة، وذلك بتحديد نوع التجارة. أما البضاعة فيخبرهم عنها بوضوح، لأنها أحد المتطلبات الأساسية التي لا غنى عنها للربح، وفيها قال سبحانه: [تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ] [الصف 11]، فإذا ما استدل التاجر وانصاع لنصح الدليل بالاستسلام والقبول كان الربح. [يَغْفِرْ لَكُمْ دُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، وَأُخْرَىٰ تُحِبُّوهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ] [الصف 12-13].

وإذا ما عرف الإنسان السوق ومتطلباته، واحسن اختيار بضاعته ورعايتها، والترويج لها، فإنه يخطو الخطوة الأولى في طريق النجاح. ليتبع ذلك خطوة الحسابات، وتحديد

السعر، أو انتظار ما يُعرض عليه من سعر فيها. فلا يبيع إلا لمشتري يعرف لبضاعته قيمتها، فلا يبخسه فيها، وهنا يخبر الله تعالى عن المشتري فيقول جل وعز: [إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ] [التوبة 111]. وهذا ما أدركه أحد تجار المسلمين العظام، وهو ذو النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه، فاستغل سوقه أفضل استغلال، فقد روى محب الدين الطبري عن ابن عباس قال: قحط الناس في زمان أبي بكر، فقال أبو بكر: لا تمسون حتى يفرج الله عنكم. فلما كان من الغد جاء البشير إليه قال: قدمت لعثمان ألف راحلة بُرَّاء، وطعاما، قال: فغدا التجار على عثمان ففرعوا عليه الباب، فخرج إليهم وعليه مائة قد خالف بين طرفيها على عاتقه فقال لهم: ما تريدون؟ قالوا: قد بلغنا أنه قد قدم لك ألف راحلة برا وطعاما، بعنا حتى نوسع به على فقراء المدينة، فقال لهم عثمان: ادخلوا فدخلوا فإذا ألف وقر قد صب في دار عثمان، فقال لهم: كم تريحوني على شرائي من الشام؟ قالوا: العشرة اثني عشر، قال: قد زادوني، قالوا: العشرة أربعة عشر، قال: قد زادوني، قالوا: العشرة خمسة عشر، قال: قد زادوني، قالوا: من زادك ونحن تجار المدينة؟ قال: زادني بكل درهم عشرة، عندكم زيادة؟ قالوا: لا!! قال: فأشهدكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة¹.

وكما أن طالب النجاح لزراعته ووتجارته يجب أن يحقق ما سلف من شروط خارجية تتمثل في البضاعة ولوازمها والدعاية لها، واستشارة الدليل الخبير العالم بمتطلبات النجاح، فلا بد من شرطين آخرين في ذات التاجر والمزارع، ليؤدي الدليل دوره، وينتفع المستشير بنصح المستشار: أولاهما: تحقق الايمان بالدليل المستشار، واثبات هذا الايمان والتصديق

¹ الرياض النضرة في مناقب العشرة لمحبه الدين الطبري 110/2.

والثقة قولاً وعملاً، وهو ما جاء في قوله تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ] [يونس 9]. وبما ان النفس البشرية تنجح كثيراً، وقد يطرأ عليها التغيير والتبديل، فلا بد للمرء من تعاهد نفسه وإصلاحها وتهذيبها، إذ أن ما يعتورها من الخلل قد يكون سبباً في الخسارة، وهذا هو الشرط الثاني.

وقد دلت الآيات على أن صاحب السوق لا يقبل في سوقه إلا من صح عطاؤه، وجادت بضاعته ونفسه، فقد بين تعالى ذلك بقوله: [رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا] [الاسراء 25]. وهذا ما يميّز هذا السوق، فهو متميز بنوع بضاعته، متميز بتجارته، وفي ذات الوقت لا يقبل إلا تاجراً توفرت فيه صفات القبول التي حددها صاحب السوق. فلا بد أن يتحقق في التاجر السلامة من الأوبئة والادواء والفساد، قال تعالى: [يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ] [الشعراء 88-89].

ولا يحرم من السوق إلا مريض في حال مرضه، [أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلنَّفَّاسِيَةِ فَلَوْبُؤُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ] [الزمر 22]. أما إن أخذ بأسباب العلاج وتناول جرعات الدواء، فصَحَّ بعد سقم، وعوفي بعد مرض، فلا بوار لتجارته ولا كساد، والعلاج متوفر مضمون. [اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَفَشَّرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ] [الزمر 23].

ولم يكن رواد هذه السوق وتجارها جنساً غريباً، ولا أمماً عجيبة، بل هم بشرٌ من بني جلدتنا، لهم أحلامهم وآمالهم، يصيبون ويخطئون مثلنا، تعثرهم لحظات قوة ولحظات

ضعف، لكن مما لا شك فيه أنهم امتازوا عن غيرهم بميزات جعلتهم يمتازون عن غيرهم، ولم تكن هذه الميزات حكرا عليهم، ولا هي صعبة على غيرهم، وحتى يصل الإنسان إلى ما وصلوا إليه فلا بد من ان يتعرف على خصائصهم وميزاتهم.

خصائص وميزات أهل الإيمان

لا شك أن القرآن فصّل في ذكر أهل الإيمان، وبيّن حقيقة حالهم، وأفعالهم، وصفاتهم، وخصائصهم، وزخرت الآيات بتعداد ذلك كله، ليطمئن المؤمنون عن غيرهم في الاعتقاد والسلوك والعمل والسّمات. ولهذا قد يكون من الصعب الفصل في الخصائص والميزات المنظورة بين أهل الإيمان وغيرهم من أهل النفاق. ولو نظرنا مثلا إلى أوائل سورة البقرة لوجدنا أن الآيات تتحدث أولا عن الاعتقاد؛ يؤمنون بالغيب، ثم بالعمل؛ ويطعمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، ثم الإيمان بالكتب واليوم الآخر، ومسألة الاعتقاد مسألة قلبية لا يُحكّم عليها إلا بآثارها الظاهرة قولاً وعملاً وسلوكاً، فجاء العمل متوسطاً بين الاعتقاد بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة تبيانا لما انعقد في القلب من إيمان.

وقد يفعل غير المؤمن بعض الأعمال التي يعملها المؤمن، لكن فعله لها على غير طريقة أهل الإيمان. فالمنافق يصلي، لكنه يصلي رياء، وهو عمل قلبي يعلمه الله سبحانه، وقد يبهم معرفته على المؤمن إلا في حال رؤية تكاسله وامتناعه من الصلاة. وكذلك الكافر والمنافق قد ينفقان المال كما ينفق المؤمنون، إلا أنهم ينفقون رياء أو تعاطفا وإنسانية مع المحتاج، على غير حال المؤمن الذي يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله. ولذلك أخبر الله سبحانه عن أن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون قد لا يعلمون المنافقين، فقال سبحانه: [وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا نَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ] [التوبة 101]، وعلى مدار آيات القرآن تجد كثيرا من الصفات للمؤمنين لكن هذه الصفات قد تظهر شكلا عند غيرهم وإن خلت من المضمون الذي أَرادَه اللهُ، بمعنى أن فعلها لا يكون على مراد

الله قلبا وسلوكا. ولهذا فلا بد من معرفة الصفات البارزة التي لا يمكن أن يشترك فيها مع المؤمن غيره من الناس، ليظهر تمايز أهل الإيمان عن غيرهم ونلخصها في الآتي:

1. السمع والطاعة: وهما أول ميزات أهل الإيمان التي لا يتحقق الإيمان إلا بها، ولهذا جاءت النصوص إما داعية إليهما، أو نافية صفة الإيمان عن من خرج عنهما، ذلك أن الدين هو ما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وكل ما خالف ما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فهو هوى منبوذ، وشرّ محذوق. وقد فصلت الآيات والنصوص الحديثية على تفاصيل السمع والطاعة سواء عند نزول الأمر واستقباله، أو في حال مخالفته لما يجب الإنسان ويشتهي، أو في حال النزاع، ثم في حال الاضطراب والتردد. ولهذا قامت البيعة لله ورسوله على السمع والطاعة كما جاء في حديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: «بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمُنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَأَنْ لَا تُنَازَعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً»¹.

ولما كان أثقل الأمور على النفس الخروج عما تميل إليه - خصوصا إذا ما كانت تراه موافقا للحق - إلى أمر آخر فقد بين سبحانه، أن الأمر ابتداء ونهاية لله، ثم من بعد ذلك لرسوله صلى الله عليه وسلم، فقال سبحانه: [وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا] [الأحزاب 36]، وقد فهم السلف الصالح معنى التزام الأمر الالهي بالسمع

¹ متفق عليه، الجمع بين الصحيحين 666، البخاري 7199، ومسلم 1709

والطاعة، وأن طاعة النبي صلى الله عليه وسلم طاعة لله سبحانه، وأن السنة بيان للقرآن لا بديل عنه، فقد قيل لمطرف بن عبد الله بن الشَّحِير: لا تحدثونا إلا بالقرآن. فقال له مطرف: " والله ما نريد بالقرآن بدلا. ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منا"¹.

وما قام عليه العمل عند أهل الإيمان من العلماء المحققين ردّ المسائل الى الكتاب والسنة عملا بأمر الله سبحانه: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا] [النساء 59]، وشرح ابن عبد البر أن ما قاله جمهور العلماء وسائر الفقهاء في الآثار التي تدم القياس كقول الشعبي: « إياكم والقياس، فإنكم إن أخذتم به أحللتهم الحرام، وحرمتهم الحلال، ولأن أتعنى عنية أحب إلي من أن أقول في شيء برأبي » فقال: أن المقصود القياس على غير أصل، والقول في دين الله بالظن، ألا ترى إلى قول من قال منهم: أول من قاس إبليس ". ورد أصل العلم بالرأي الفاسد والقياس لا يجوز عند أحد ممن قال به؛ إلا في رد الفروع إلى أصولها، لا في رد الأصول بالرأي والظن.

وإذا صح النص من الكتاب والأثر بطل القياس والنظر. [وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا] [الأحزاب 36]. وأي أصل أقوى من أمر الله تعالى لإبليس بالسجود، وهو العالم بما خلق منه آدم وما خلق منه إبليس، ثم أمره بالسجود له فأبى واستكبر لعله

¹ محاسن التأويل للقاسمي 1/116.

ليست بممانعة من أن يأمره الله بما يشاء، فهذا ومثله لا يحل ولا يجوز. وأما القياس على الأصول والحكم للشيء بحكم نظيره فهذا ما لم يخالف فيه أحد من السلف. بل كل من روي عنه ذم القياس قد وجد له القياس الصحيح منصوصا لا يدفع هذا إلا جاهل أو متجاهل مخالف للسلف في الأحكام"¹.

وجاء الوحي أمرا باتباع الحقيقة المطلقة للسمع والطاعة، ناهيا عن الخروج عنها، واصفا حقيقة وحال المخالفين لها فقال سبحانه: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ، إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ، وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ] [الانفال 20-23]. فالطاعة تقتضي الاستجابة بمجرد السماع للأمر أو النهي، ولا يخرج عنها إلا المتكبرون عن جادة الإيمان، وإن زعموا أنهم من أهله، ذلك أن الله سبحانه يقول: [إِمَّا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] [النور 51]. ولهذا كان السلف الصالح من الصحابة رضي الله عنهم وتابعيهم بإحسان أكثر الناس ترقبا للأمر لا لزيادة علم، بل اتباعا للتنفيذ والالتزام، فعن عبد الله ابن مسعود قال: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } فَارْعَهَا سَمْعَكَ؛ فَإِنَّهُ خَيْرٌ يَأْمُرُ بِهِ أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ"².

ومن عرف الأمر هان عليه الأمر، وعلم أن في أمره الخير كل الخير، ولهذا تجد في سير الصحب الأوائل من عجيب الالتزام ما لم يتحقق في أمة من الأمم ومن ذلك ما أخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها، قَالَتْ: " يَرْحَمُ اللَّهُ نِسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ الْأُولَى، لَمَّا

¹ جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر 893/2.

² الزهد للامام احمد بن حنبل ص198.

أَنْزَلَ اللَّهُ: {وَلْيَضْرِبْنَ بِحُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ} [النور: 31] شَقَقْنَ مُرُوطَهُنَّ فَاحْتَمَرْنَ بِهَا¹، ومن ذلك تحريم لحوم الحُمُرِ الأهلية - الحمير - فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءَهُ جَاءً، فَقَالَ: أَكَلْتِ الْحُمُرَ، ثُمَّ جَاءَهُ جَاءً، فَقَالَ: أَكَلْتِ الْحُمُرَ، ثُمَّ جَاءَهُ جَاءً، فَقَالَ: أَكَلْتِ الْحُمُرَ، فَأَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى فِي النَّاسِ: «إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ حُلُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ، فَإِنَّهَا رِجْسٌ» فَأُكْفِفَتْ الْقُدُورُ، وَإِنَّهَا لَتَقُورُ بِاللَّحْمِ². ولقد كانوا يتسائلون بينهم رضي الله عنهم عما كان يأتيهم من أمر، ولكنهم رغم ذلك لم يكونوا يردون الأمر، بل ينفذونه سواء علموا علة تحريمه أو لم يعلموا. ولقد كانوا ينظرون في قوله صلى الله عليه وسلم إن كان أمرا نفذوه، وإن كان لهم فيه الخيار أمضوا خيارهم، ومنه حديث ابن عَبَّاسٍ، أَنَّ زَوْجَ بَرِيرَةَ كَانَ عَبْدًا يُقَالُ لَهُ مُعِيثٌ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَطُوفُ خَلْفَهَا يَبْكِي وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَىٰ حَيْثِيهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَبَّاسٍ: «يَا عَبَّاسُ، أَلَا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُعِيثِ بَرِيرَةَ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُعِيثًا» فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ رَاجَعْتِهِ» قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: «إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ» قَالَتْ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ³.

وفي تفسير ابن عاشور لقوله تعالى: [يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ] [النساء 59]، بعد أن ساق قصة برة ومغيث قال: ولهذا لم يعد فعل (فردوه) في قوله: (والرسول) لأن ذلك في التحاكم بينهم، والتحاكم لا يكون إلا للأخذ بحكم الله في شرعه، ولذلك لا نجد تكريرا لفعل الطاعة في نظائر هذه الآية التي لم يعطف فيها أولو الأمر مثل قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ] [الأنفال:

1 صحيح البخاري 4758

2 صحيح البخاري 5528

3 صحيح البخاري 5283

[20] وقوله: [وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا] [الأنفال: 46]، [وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ] [النور: 52] ، إذ طاعة الرسول مساوية لطاعة الله لأن الرسول هو المبلغ عن الله فلا يتلقى أمر الله إلا منه، وهو منقذ أمر الله بنفسه، فطاعته تلقى وطاعة امتثال، لأنه مبلغ ومنقذ، بخلاف أولي الأمر فإنهم منقذون لما بلغه الرسول فطاعتهم طاعة امتثال خاصة. ولذلك كانوا إذا أمرهم بعمل في غير أمور التشريع، يسألونه أهذا أمر أم رأي وإشارة؟ فإنه لما قال للذين يأبرون النخل « لو لم تفعلوا لصلح »¹.

ومسألة السمع والطاعة من المسائل الجديرة بكل اهتمام، خصوصا بعد انتشار البدع والتحريفات، ودعاوي الضلال والفتن، فقد خرج في زماننا زمرة تزعم التزامها بالقرآن، أخذت تردّ الحديث ولا تقبله، زعما من هؤلاء أنهم يأخذون بالقرآن وحده، وأن النبي صلى الله عليه وسلم مجرد مبلغ، ليس له من أمر التشريع شيئا، ولقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن أمثال هؤلاء، فعن المِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ قَالَ: حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشْيَاءَ يَوْمَ حَيْبَرَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِمًا عَلَى أَرِيكْتِهِ، يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ، وَهَيِّتْ عَنْهُ، فَيَقُولُ: لَا نَدْرِي، وَمَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ"².

ولا شك أن في قول الله سبحانه [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ]، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ] [الأنفال 20-21]، مسائل مهمة إذ السمع ممكن عند ارتفاع الصوت بالأمر، ويسمعه جميع من يحضره،

¹ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور 97/5.

² رواه احمد 23875، وابو داود 4605، والنسائي 2663، وابن ماجه 6/1 حديث 13، والحاكم 368، والطبراني 934، والبيهقي في الكبرى 120/7 حديث 13441، وصححه الالباني في صحيح ابن ماجه والمشكاة

ولكن الله سبحانه يذكر طائفة من الناس تقول سمعنا وهم لا يسمعون، وفي هذا إشارة إلى حقيقة أن استماع الأمر الصادر عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم لا يقف عند حدود السمع وحده، بل لا بد من شيء مع السمع يحقق المقصود من الاستماع الا وهو التنفيذ. قال الشعراوي: أيكفي السماع في أن نعلم المنهج؟! لا، لا يكفي في السماع أن نعلم أن هناك رسولاً جاء ليعقب على رسول سبق، ولكن عليك أن تبحث أنت. فإن كان في الأرض من لم يبلغه هذا فهو ناجح، وإن كان قد بلغه خبر رسول ولم يبلغه المنهج الكامل فعليه أن يبحث بنفسه، بدليل أن الإنسان يبحث عن أهون الأشياء بمجرد أن يسمع عنها، ويشغل نفسه بالبحث. ولنفرض أن إنساناً قال في قرية: إن الدولة ستغير بطاقة التموين، ألا يتجه كل فرد في القرية ليسأل عن هذا الأمر ويهتم به كل الاهتمام؟ إذن كان يكفي في وصول البلاغ أن يسمع الإنسان أن رسولاً في العرب قد جاء للناس كافة برسالة عامة، وأن هذه الرسالة تعقب الرسائل السابقة، ومن سمع هذا السماع كان عليه أن يعامل هذا الخبر معاملة المصالح الدنيوية الأساسية، لأنه إذا كان أمر الدنيا هاماً فما بالنا بأمر صلاح الدنيا والآخرة؟

وجزاء من التبعة في ذلك يقع على المسلمين الذين لم يجِدُوا ويبلغوا منهج الله ودين الله إلى غيرهم. ولهذا حكم الله على قوم بـ " قالوا سمعنا " بأنهم لا يسمعون، وهؤلاء هم من أخذوا السمع بقانون الأحداث الجارية على ظواهر الحركة فسمعوا ولم يلتفتوا؛ لأن المراد بالسماع ليس أن تسمع فقط، بل أن تؤدي مطلوب ما سمعت، فإن لم تؤد مطلوب ما سمعت، فكأنك لم تسمع. بل تكون شراً ممن لم يسمع؛ لأن الذي لم يسمع لم تبلغه دعوة، أما أنت فسمعت فَبَلَّغْتِك الدعوة ولكنك لم تستجب ولم تنفذ مطلوبها. إذن قول الله تعالى: { سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ } [الأنفال: 21]. يفسر لنا أن هذا السماع منهم كان مجرد انتقال الصوت من المتكلم إلى أذن السامع بالذبذبة التي تحدث، ولم

يأخذوا ما سمعوه مأخذاً جاداً ليكون له الأثر العميق في حياتهم. فإذا لم يتأثروا بالمنهج، فكأنهم لم يسمعوا، وياليتهم لم يسمعوا؛ لأنهم صاروا شرًا ممن لم يسمع" ¹.

وقضية السمع والطاعة مرتبطة بأوثق عرى الإيمان القائمة على الثقة والتصديق ظاهرا وباطنا، لا بصدق ما جاء به الوحيان فحسب. بل الثقة والتصديق بأن كل ما جاء من أمر أو نهي لم يأت إلا لخير أرادته الله بالإنسان. ولهذا فإنسانية الإنسان مرتبطة بالتزام هذا الأمر، فإن خالف كان كالأنعام بل أضل. ثم يقرر الحق سبحانه أن منهاجه وتعاليمه وما جاء عن رسوله صلى الله عليه وسلم إنما هما حياة الإنسان الحقيقية، وسعادته الأبدية، [أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ] [الانعام 122]. وما جعله الله من الحياة والنور لا يتأتى الحصول عليه إلا بالاستجابة لله بالسمع والقبول والطاعة، قال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ] [الانفال 24].

ولا يكون القبول والطاعة إلا بالتسليم المطلق قلبا وجارحة، ولهذا نفى سبحانه صفة الإيمان عمن لا يقبل بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم مهما قلّ أو كثر قال سبحانه: [فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا] [النساء 65]. ووجوب الاتباع له صلى الله عليه وسلم والتزام حكمه دون تسلل الرفض أو الشك بما جاء به، والتسليم لأمره وقضائه شروط من شرائط الإيمان لا يتحقق إلا بها. وفي ذلك قال الرازي: " هذا يدل على أن من لم يرض بحكم الرسول لا يكون مؤمنا.

¹ خواطر الشعراوي 4631/8 - 4632.

واعلم أن من يتمسك بهذه الآية في بيان أنه لا سبيل إلى معرفة الله تعالى إلا بإرشاد النبي المعصوم، لأن قوله: لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم تصريح بأنه لا يحصل لهم الإيمان إلا بأن يستعينوا بحكم النبي عليه الصلاة والسلام في كل ما اختلفوا فيه، ونرى أهل العلم مختلفين في صفات الله سبحانه وتعالى، فمن معطل ومن مشبه، ومن قدرى ومن جبري، فلزم بحكم هذه الآية أنه لا يحصل الإيمان إلا بحكمه وإرشاده وهدايته، وحققوا ذلك بأن عقول أكثر الخلق ناقصة وغير وافية بإدراك هذه الحقائق؟ وعقل النبي المعصوم كامل مشرق، فإذا اتصل إشراق نوره بعقول الأمة قويت عقولهم وانقلبت من النقص إلى الكمال، ومن الضعف إلى القوة، فقدروا عند ذلك على معرفة هذه الأسرار الإلهية. والذي يؤكد ذلك أن الذين كانوا في زمان الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا جازمين متيقنين كاملي الإيمان والمعرفة، والذين بعدوا عنه اضطربوا واختلفوا، وهذه المذاهب ما تولدت إلا بعد زمان الصحابة والتابعين، فثبت أن الأمر كما ذكرنا¹.

وليس أدل على وجوب السمع والطاعة درسا وعبرة من قصة صلح الحديبية، ورأيت أن أسوقها هنا كاملة على طولها لِمَا وقع فيها من حدث ودروس؛ لا بد للمسلم من أن يعقلها فلا يردّ أمر الله ولا أمر رسوله لرأي رآه.

أخرج البخاري من حديث المسور بن مخرمة، ومروان، يُصَدِّقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَ صَاحِبِهِ، قَالَ: حَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَّةِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْعَمِيمِ فِي حَيْلٍ لِفَرَيْشٍ طَلِيعَةً، فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ» فَوَاللَّهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَتْرَةِ الْجَيْشِ، فَأَنْطَلَقَ يَرْكُضُ نَدِيرًا لِفَرَيْشٍ، وَسَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ

¹ تفسير الرازي 128/10.

عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتٌ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ النَّاسُ: حَلَّ حَلَّ فَأَلَحَّتْ، فَقَالُوا: خَلَّاتِ الْقُصَاوَاءُ، خَلَّاتِ الْقُصَاوَاءُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا خَلَّاتِ الْقُصَاوَاءُ، وَمَا ذَاكَ هَذَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفَيْلِ»، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي حُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»، ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ، قَالَ: فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحَدِيثِ عَلَى تَمَدِّ قَلِيلِ الْمَاءِ، يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا، فَلَمْ يُلَبِّثْهُ النَّاسُ حَتَّى نَزَحُوهُ وَشَكِيَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَطَشُ، فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ، فَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَجِيئُ هُمْ بِالرِّسِيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخَزَاعِيُّ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خَزَاعَةَ، وَكَانُوا عَيْبَةَ نُصَحِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ، فَقَالَ: إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ، وَعَامَرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحَدِيثِ، وَمَعَهُمُ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُوكَ عَنِ الْبَيْتِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّا لَمْ نَحْيِ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ هَكَّتْهُمْ الْحَرْبُ، وَأَضْرَبَتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَا دَدْتُهُمْ مُدَّةً، وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرَ: فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّ هُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِقَتِي، وَلَيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ "، فَقَالَ بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ، قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا، قَالَ: إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا، فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا، فَقَالَ سَفَهَاؤُهُمْ: لَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ نُخْبِرْنَا عَنْهُ بِشَيْءٍ، وَقَالَ ذُووُ الرَّأْيِ مِنْهُمْ: هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ، قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَحَدَّثْتُهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: أَيُّ قَوْمٍ أَلَسْتُمْ بِالْوَالِدِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: أَوْلَسْتُمْ بِالْوَالِدِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَهَلْ تَتَّهَمُونِي؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عُكَاظٍ، فَلَمَّا بَلَّحُوا عَلَيَّ جِئْتُكُمْ بِأَهْلِي وَوَالِدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي؟ قَالُوا:

بلى، قال: فَإِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ لَكُمْ حُطَّةَ رُشْدٍ، أَقْبَلُوهَا وَدَعُونِي آتِيهِ، قَالُوا: اثْبِتْهُ، فَأَتَاهُ، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِيُدْبِلَ، فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ: أَيُّ مُحَمَّدٍ أَرَأَيْتَ إِنْ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ، هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ اجْتَاخَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى، فَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَرَى وُجُوهًا، وَإِنِّي لَأَرَى أَوْشَابًا مِنَ النَّاسِ خَلِيفًا أَنْ يَفْرُوا وَيَدْعُوكَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: امْصُصْ بِبَطْرِ اللَّاتِ، أَنْحُنْ نَفْرُ عَنْهُ وَنَدْعُهُ؟ فَقَالَ: مَنْ دَا؟ قَالُوا: أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَا يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لِأَجْبُنْكَ، قَالَ: وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكُلَّمَا تَكَلَّمَ أَحَدٌ بِلِحْيَتِهِ، وَالْمَغِيرَةُ بِنُ شُعْبَةَ فَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعَهُ السِّيفُ وَعَلَيْهِ الْمُعْفَرُ، فَكُلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَزَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الْمَغِيرَةُ بِنُ شُعْبَةَ، فَقَالَ: أَيُّ عُذْرٍ، أَلَسْتُ أَسْعَى فِي عُذْرَتِكَ؟ وَكَانَ الْمَغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَتَلَّهُمْ، وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا الْإِسْلَامَ فَأَقْبَلْ، وَأَمَّا الْمَالُ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ»، ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَيْنَيْهِ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا تَنَحَّمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُحَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَذَلِكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدُهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُجِدُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، فَارْجِعْ عُرْوَةَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَيُّ قَوْمٍ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمَلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ، وَكِسْرَى، وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا فَطُ يُعْظِمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعْظِمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحَمَّدًا، وَاللَّهِ إِنْ تَنَحَّمْ نُحَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَذَلِكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدُهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ

عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ حَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُجِدُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ حُطَّةً رُشِدٍ فَاقْبَلُوهَا، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقَالُوا: آتِيهِ، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَذَا فُلَانٌ، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعْظَمُونَ الْبُذْنَ، فَابْعَثُوا لَهُ» فَبِعِثْتَ لَهُ، وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، مَا يَنْبَغِي لَهُؤَلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ، قَالَ: رَأَيْتُ الْبُذْنَ قَدْ فُلِدَتْ وَأَشْعِرَتْ، فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ، فَقَالَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقَالُوا: آتِيهِ، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَذَا مِكْرَزٌ، وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ»، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ مَعْمَرٌ: فَأَخْبَرَنِي أَيُّوبُ، عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ سَهَّلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ» قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ الرَّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ: فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: هَاتِ أَكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا فَدَعَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ، فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ وَلَكِنْ أَكْتُبُ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتُ تَكْتُبُ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللَّهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ» ثُمَّ قَالَ: «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ، وَلَا فَاتْنَاكَ، وَلَكِنْ أَكْتُبُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَاللَّهِ إِلَيَّ لِرَسُولِ اللَّهِ، وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، أَكْتُبُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ» - قَالَ الرَّهْرِيُّ: وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ: «لَا يَسْأَلُونِي حُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا» - فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَى أَنْ تُحْلُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ، فَتُطَوَّفَ بِهِ»، فَقَالَ سُهَيْلٌ [ص: 196]: وَاللَّهِ

لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَا أَخَذْنَا ضُغْطَةً، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، فَكَتَبَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا، قَالَ الْمُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلِ بْنِ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرِو يَرْسُفُ فِي قُبُورِهِ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهَرِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أَقْضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ»، قَالَ: فَوَاللَّهِ إِذَا لَمْ أَصَاحِكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَأَجِزْهُ لِي»، قَالَ: مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ، قَالَ: «بَلَى فَاَفْعَلْ»، قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، قَالَ مِكْرَزُ: بَلْ قَدْ أَجَزْنَاكَ لَكَ، قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ: أَيُّ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ؟ وَكَانَ قَدْ عَذَّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللَّهِ، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَاتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا، قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ، وَعَدُّوْنَا عَلَى الْبَاطِلِ، قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدِّيَّةَ فِي دِينِنَا إِذَا؟ قَالَ: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي»، قُلْتُ: أَوْلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَتَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: «بَلَى، فَأَحْبَبْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ»، قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ»، قَالَ: فَاتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُّوْنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدِّيَّةَ فِي دِينِنَا إِذَا؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِعَزْوِهِ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ، قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَتَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بَلَى، فَأَحْبَبْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ، - قَالَ الزُّهْرِيُّ: قَالَ عُمَرُ - : فَعَمِلْتُ لِدَلِكِ أَعْمَالًا، قَالَ: فَلَمَّا فَرَعْنَا مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ: «قُومُوا فَاَنْحَرُوا ثُمَّ اٰخْلِقُوا»، قَالَ: فَوَاللَّهِ

مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَتَحِبُّ ذَلِكَ، اخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّمَ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً، حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمَ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا، فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا، ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهَاجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ } [المتحنة: 10] حَتَّى بَلَغَ بَعْضُ الْكُوفِرِ فَطَلَّقَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ، كَانَتَا لَهُ فِي الشِّرْكِ فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ، وَالْأُخْرَى صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُوَ مُسْلِمٌ، فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا: الْعَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا، فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى بَلَغَا دَا الْخَلِيفَةَ، فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمْرٍ لَهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلَانُ جَيِّدًا، فَاسْتَلَّهُ الْآخَرَ، فَقَالَ: أَجَلٌ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَجَيِّدٌ، لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ، ثُمَّ جَرَّبْتُ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ: أَرِنِي أَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَأَمَكَنَهُ مِنْهُ، فَضَرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ، وَفَرَ الْآخَرَ حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْذُو، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ رَأَاهُ: «لَقَدْ رَأَى هَذَا دُعْرًا» فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: فُتِنَ وَاللَّهِ صَاحِبِي وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، قَدْ وَاللَّهِ أَوْفَى اللَّهُ ذِمَّتَكَ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَنْجَانِي اللَّهُ مِنْهُمْ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيْلٌ أُمَّهِ مَسْعَرِ حَرْبٍ، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ» فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُّدُهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سَيْفَ الْبَحْرِ قَالَ: وَيَنْفِلْتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنِ سُهَيْلٍ، فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ، فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بَعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ إِلَّا اغْتَرَضُوا هَا، فَقَتَلُوهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ

إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُنَاشِدُهُ بِاللَّهِ وَالرَّحِمِ، لَمَّا أُرْسِلَ، فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ، فَأُرْسِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ } [الفتح: 24] حَتَّى بَلَغَ { الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ } [الفتح: 26] وَكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَقْرَأُوا أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ، وَلَمْ يَقْرَأُوا بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْبَيْتِ¹.

واقترضت حكمة الله سبحانه بما علم من ضعف خلقه، وكثرة نسيانهم الزيادة في التذكير كي يبقى المسلم حافظا لعهد مع الله سبحانه، لا ينساق لما يستزله به الشيطان من وساوس وتشكيك كما استزل من كان من قبل من الأمم فقال جل وعز: " ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [المائدة 7] .

وفي معناه حديث عبادة بن الصامت، قال: «بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَعَلَى أَنْ لَا تُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ»². وميثاق الله الذي أخذه على العباد وواثقوه عليه بقولهم سمعنا وأطعنا شامل لكل معنى التوحيد وأعماله والقيام بها اعتقادا وعملا دون مخالفة، قال الراغب الاصفهاني: الميثاق: العهد المستوثق منه وميثاق الله تعالى: المأخوذ من عباده على ضرب:

الأول: ما أخذه عليهم بالفطرة: وهو ما ركزه فيهم من المعارف.

الثاني: ما أخذه عليهم بما أفادهم من العلوم المكتسبة.

¹ رواه البخاري 2731

² متفق عليه، رواه البخاري 7199، ومسلم 1709

الثالث: ما أخذه عليهم ببعثة الأنبياء وإلزامهم بالشرائع.

الرابع: ما يلزم بعضهم عن بعض بما يجب عليهم الوفاء به، وقد حمل الآية على كل ذلك.

ووجهه ذكر النعمة. والميثاق بعد أصحاب الطهارة تذكير لنقمة، وتأكيد لوجوب طاعته. وإن قيل: لما قال: (واذكروا نعمة الله) ولم يقل نعم الله؟

قيل: لفظ الواحد في هذا الوضع أبلغ ففيه تنبيه أن في ذكر نعمة واحدة شغل عظيم مع أن لفظ الواحد في نحوه يقتضي الجنس¹.

ولا شك أن سورة المائدة من بدايتها جاءت لتلفت الأنظار الى مسألة العهد مع الله والوفاء به، وجاء السمع والطاعة قولاً إيذاناً من العباد بالوفاء بالعهد عملاً، إذ عبودية العبد لربه قائمة على التصديق القلبي المعلن باللسان، والظاهر في الأعمال للعيان، وعهد الله للأمة جاء شاملاً لكل ما يلزم منه إظهار الخضوع والانقياد لأمره سبحانه وتعالى في كافة ما يتعلق بحياة العبد ولوازمها، فعهد الله للناس تضمن عطاء الله سبحانه بالنعمة المتمثلة في كل ما أسبغه عليهم من فضل في وجودهم، وما سخره لهم من الموجودات، ثم بالتكليف والتخفيف. فما كلفهم ما لا يطيقون، ولا فرض عليهم ما لا يستطيعون. ثم هو بعد ذلك جعل اليسر فيما استعصى وشقَّ عليهم منهجاً في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. لكن اشترط للسمع والطاعة خضوعاً لعظمة الأمر، وانقياداً لتنفيذ الأمر بالحب والخضوع والخشية لمن يعلم حقيقة القول وما تخفي الصدور. ولهذا عاب الشافعي على من خالف قوله عمله في مسألة طاعة الرب جل وعلا فقال:

¹ تفسير الراغب الاصبهاني 291/4

تَعْصِي الْإِلَٰهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ هَذَا مَحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعٌ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لِأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمَجِبَّ لِمَنْ يُجِبُّ مُطِيعٌ
فِي كُلِّ يَوْمٍ يَبْتَدِيكَ بِنِعْمَةٍ مِنْهُ وَأَنْتَ لِشُكْرِ ذَاكَ مُضِيعٌ¹

2. **الثقة واليقين:** إن لكل قول حقيقة لا يتسنى للمخلوق معرفتها بمجرد القول، فحقيقة الأمر متعلقة بلازم العمل به، وظهور الأثر له في السلوك، وفي زماننا اختلط الحابل بالنابل، وظن البعض حقائق الإيمان مجرد كلمات ترددها الألسنة دون أن يظهر أثرها على السلوك والعمل، ومن ذلك موضوع الثقة والتوكل واليقين على ذات الله سبحانه، يقينا يدفع الشك، ويطمئن به القلب، وتستريح به النفس. فتثقة المؤمن بوعد ربه مسألة دلت عليها النصوص فقال سبحانه: [وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا] [النساء 122]، وكما وعد بحسن الجزاء فهو كذلك لم يأمر إلا بخير، ولم ينه إلا عن شر.

ومنذ اللحظة الأولى للوحي الإلهي كانت التربية الإيمانية قائمة على الثقة بوعد الله واليقين عليه، وبهذه التربية وهذا التعليم سما أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وبلغوا ذرى المجد؛ بما استقر في نفوسهم من الإيمان والتصديق بوعد الله، وهو ما لخصه جندب بن عبد الله رضي الله عنه بقوله: "كُنَّا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غِلْمَانًا حَزَاوِرَةً تَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا"². وظهر

¹ ديوان الشافعي ، ص 91.

² التاريخ الكبير للبخاري 221/2.

أثر هذا اليقين على الصحابة رضوان الله عليهم في بدايات الدعوة، حيث كانوا يساقون للعذاب الشديد ليكفروا بالله ورسوله فيثبتون ويصبرون لما استقر في قلوبهم من صدق وعد الله سبحانه. عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: لَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْبَطْحَاءِ فَأَخَذَ بِيَدِي. فَأَنْطَلَقْتُ مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَرَّ بِعَمَّارٍ وَبِأُمِّ عَمَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُعَذِّبَانِ فَقَالَ: " صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ " ¹.

وهذا اليقين الذي أصبح سمة بارزة في الرعيل الأول من المؤمنين في مكة كان دافعا لاستعلاء صاحب الايمان رغم ضعفه على زبانية الكفر وجلالوة الشرك، واحتترقت اجساد أهل الإيمان على رمضاء الرمال، لتعلو أحد أحد من فم بلال رضي الله عنه على سياط أمية بن خلف وجلاديه. وسقطت سمية رضي الله عنها شهيدة لتنال شرف الشهادة بسيف ابي جهل رافضة التنازل عن ايمانها ودينها. واحترق خباب على نار الطغاة، واستعلى قدم ابن مسعود ليعلو بعد ذلك على صدر ابي جهل. وما كان ذلك إلا بيقينهم وثقتهم بصدق وعد الله لهم بالجنان والرضوان. وكانت الحقيقة اليقينية التي استقرت في قلوبهم ما نزل به الوحي من اقتراب النصر والفرج بقوله تعالى: [إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ] [غافر 51]، فلم يساورهم الشك فيما أنزل الله من خبر هلاك المعاندين وتمكين المؤمنين، فأيقنوا أن وعد الله حق بالنصر والتمكين. [وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ

¹ كنز العمال 37367، المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية 4002، والطبراني في الكبير 769 202/24، ومجمع الزوائد

وَلْيُبَدِّلْ لَهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [النور 55].

وهذا الذي آمنوا به من صدق وعد الله أصبح حاديهم في أصعب الظروف وأشد المواقف. لذلك لما تكالب عليهم الأحزاب وأحاطت بهم عصائبه، وتآمر عليهم أهل النفاق وجيرانهم من اليهود وتحالفوا مع الأحزاب الذين حشدوا حشودهم في محاولة لاستئصال شأفة الاسلام والمسلمين، فما زادهم ذلك إلا يقينا بالله، وتصديقا لرسوله صلى الله عليه وسلم، وهو ما وصفه الله سبحانه بقوله: [وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا] [الاحزاب 22].

ومن عجائب الإيمان الذي حملوه دينا وسلوكا ما كان من زيد بن الدثنة رضي الله عنه وهو يساق الى الموت، فقال له ابو سفيان حين قُدِّمَ لِيُقْتَلَ: نشدتك بالله يا زيد، أتحب أن محمدا عندنا الآن بمكانك يضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدا يجب أحدا كحب أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم محمدا، ثم قتله نسطاس¹.

وما كان من خبيب بن عدي ما زال الناس يتناقلونه قصصا وشعرا، عن ابي هريرة قال: مكث خبيب عند بني الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف أسيرا حتى إذا اجتمعوا

¹ معرفة الصحابة لابي نعيم 423/1.

على قتله استعار موسى من إحدى بنات الحارث ليستحد بها، فأعارته. قالت: فَعَفَلْتُ عن صبي لي، فدرج إليه حتى أتاه. قالت: فأخذه فوضعه على فخذه، فلما رأيته فرعت فرعا عرفه فيّ، والموسى في يده. فَقَالَ: أتحشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل إن شاء الله. قَالَ: فكانت تقول: ما رأيت أسيرا خيرا من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ من حديقة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزقا آتاه الله إياه. قَالَ: ثم خرجوا به من الحرم ليقتلوه، فَقَالَ: دعوني أصلي ركعتين. ثم قَالَ: لولا أن يروا أن ما بي من جزع من الموت لزدت. قَالَ: فكان أول من صلى ركعتين عند القتل، ثم قَالَ: اللَّهُمَّ أحصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تبق منهم أحدا، ثم قَالَ:

فَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللَّهِ مَصْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ يُبَارِكُ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعٍ

قَالَ: ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله¹.

إن الأمة اليوم لما كان عليه الصحب الكرام من اليقين وحسن الثقة والتوكل على الله أحوج ما تكون. ذلك أن ما حلّ بالأمة من مصائب وويلات يحتاج الى إعادة النظر في حال الأمة أفرادا ومجتمعات، ذلك أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وإذا كان الحال مجردا من التوكل، وَكَلَّ اللهُ النَّاسَ لِمَا أَتَكَلَّوْا عَلَيْهِ، فبَاءُوا بِالثُّبُورِ وَالْخُسْرَانِ ولو توكلوا على الله حق توكله لرزقهم كما يرزق الطير تغدو خماسا وتروح بطانا كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه².

¹ أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الاثير 154/2.

² رواه احمد 205، والترمذي 2344، وابن ماجه 4164، والنسائي 11805، والبيزار 340، والحاكم 7894، وصححه الابناني

وفي تأكيد الله جلّ وعزّ على صدق الوعد لتمكين الثقة من النفوس قال: [مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ] [الحج 15]. ولما كان وعد الله غيباً غير منظور فقد ضرب الله له من الأمثال ما يقرب صورته إلى الأذهان فقال سبحانه وتعالى: [أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَا يَأْتِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ] [القصص 61].

واليقين بتحقيق وعد الله هو المعوّل عليه بضبط الموازين والأحكام على مراد الله سبحانه، والعمل وفق هذه الأحكام، بحيث تنكشف حقائق الأشياء، فلا يستبدل المؤمن الذي هو أدنى بالذي هو خير. وما كان فعل عمير بن الحمام الانصاري وغيره من الصحابة رضي الله عنهم إلا دليل واضح على هذا الفهم واليقين. كما في حديث أنس: " قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « لَا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ »، فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ »، قَالَ: - يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: - يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: بَخٍ بَخٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟ » قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا رَجَاءَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: «فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا»، فَأَخْرَجَ تَمْرَاتٍ مِنْ قَرْنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَيْتَنِي أَنَا حَيْثُ حَتَّى أَكُلَ تَمْرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا حَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قَالَ: فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ¹.

3. المحبة لله ورسوله: والحب هو المودة والوداد، وهو عاطفة القلب ورغبته وميله الى ما

يستهو به من الأشخاص أو الأشياء العزيزة أو الجذابة أو النافعة، وهذا المفهوم فيما يتعلق بمسائل الدنيا، بينما حب الله ورسوله لا يكون مجرد عاطفة أو رغبة، بل هو التزام القلب بصدق التوجه والرضا والقبول والانقياد والعمل بالأمر والنهي، ومنه قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ] [المائدة 54]. قال الزمخشري: [محبة العباد لربهم طاعته وابتغاء مرضاته، وأن لا يفعلوا ما يوجب سخطه وعقابه. ومحبة الله لعباده أن يثيبهم أحسن الثواب على طاعتهم، ويعظمهم ويثني عليهم ويرضى عنهم¹.]

وهؤلاء لما صفت قلوبهم استحکم فيها حب الله جل وعز، فظهر أثره على حركاتهم وسكناتهم والفاظ كلامهم، ولهذا ذكر الرب سبحانه حالهم مقارنة مع أهل الشرك فقال سبحانه: [وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ] [البقرة 165]. وما انفطر عليه أفئدة المؤمنين من حب الله عز وجل، إنما هو صبغة اختصهم بها الله لمحبتهم لهم لحسن انقيادهم وتبتلهم إليه، ولما أظهرته قلوبهم من الإخبات والانقياد إليه حبا وتعظيما. قال شيخ الاسلام ابن تيمية أن ما يصرف قلب العبد عن العشق والهوى أمران:

أحدهما: إنايته إلى الله ومحبتة له، فَإِنَّ ذَلِكَ أَلذُّ وَأَطْيَبُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَلَا تَبْقَى مَعَ

¹ الكشاف للزمخشري 1/ 646-647.

محبّة الله محبّة مخلوق تزاممه.

وَالثَّانِي: حَوْفه من الله، فَإِنَّ الحُؤْف المضاد للعشق يصرفه، وكل من احب شَيْئًا - بعشق أو بغير عشق - فَإِنَّهُ يصرف عَن محبته بمحبة مَا هُوَ احب إِلَيْهِ مِنْهُ؛ إِذَا كَانَ يزاممه وينصرف عَن محبته بخوف حُصُول ضَرَر يكون ابغض إِلَيْهِ من ترك ذَلِكَ الحُبِّ. فَإِذَا كَانَ الله احب إِلَى العَبْد من كل شَيْءٍ، وأخوف عِنْدَه من كل شَيْءٍ، لم يحصل مَعَه عشق وَلَا مزاممة إِلَّا عِنْد عَفْلَةٍ، أو عِنْد ضعف هَذَا الحُبِّ. وَالْحُؤْف بترك بعض الواجِبَات، وَفعل بعض المُحْرَمَات، فَإِنَّ الإِيمَانَ يَزِيد بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُص بِالمَعْصِيَةِ فَكَلِمَا فعل العَبْد الطَّاعَةَ محبّة لله وخوفاً مِنْهُ، وَتَرَكَ المَعْصِيَةَ حبا لَهُ وخوفاً مِنْهُ، قَوِي حبه لَهُ وخوفه مِنْهُ، فيزيل مَا فِي القلب من محبّة غَيْرِه ومخافة غَيْرِه"¹.

ومن مقتضيات الإيمان فعل الطاعة وأداؤها بالمحبة والذل، وهما شرطان لا ينفكان عن الطاعات ولا تنفك عنهما، إذ لا قبول للأعمال إلا بهما قال ابن القيم في النونية²:

تحب على محبته بلا عصيان	شرط المحبة أن توافق من
فك ما يحب فأنت ذو بهتان	فإذا ادعيت له المحبة مع خلا
حبا له ما ذاك في إمكان	أتحب أعداء الحبيب وتدعي
أين المحبة يا أبا الشيطان	وكذا تعادي جاهدا أحبابه
ة مع خضوع القلب والأركان	ليس العبادة غير توحيد المحب

¹ أمراض القلب وشفائها لابن تيمية ص27.

² الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية) لابن القيم ص189-190.

والحب نفس وفاقه فيما يحبّ وبغض ما لا يرتضي بجنان

والحبة المقتضية رضاه سبحانه هي المحبة الصادقة؛ التي تحمل الإنسان على التقرب إليه بشتى أصناف الأعمال التي يحبها. ولقد جعل الله في حياة الناس أمثلة للتفكر، وحالات محسوسة في ذواتهم، ومن حولهم، ليعتبروا ويضبطوا المسار والسلوك. فهذا يجب فتاة ويتمنى أن تكون شريكة لحياته، فيبذل في سبيل إرضائها وإرضاء أهلها ما يستطيعه ليقبلوا به زوجها لها، ومن شدة تعلقه بها وحبها لها تراه بعد خطبتها يمكث واياها الساعات الطوال في مناجاة لا يكادان ينمان، يتبادلان مشاعر الحب وكلمات الغزل، والله المثل الأعلى، فإن الله سبحانه طلب من عباده بذل المحبة في طاعته، وحسن التبتل والمناجاة له في الخلوات، فأفاض على المحبين كمالات العطاء، وأسبل عليهم سحائب الرحمة، وغمرهم بشآبيب السكينة والرضا، فأحبهم بما فعلوا وكافأهم بعظيم منّه وكرمه. ومن صور محبته لمن يبذل له المحبة بالتقرب وحسن التبتل أن جعل الجزاء لا ينقطع عنهم في الدنيا قبل الآخرة، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَعْفِرُنِي فَأَعْفِرَ لَهُ " ¹.

وكما أن المحبة شرط في الأعمال، فلا بد من استكمال شرطها الآخر في بذل العمل بالخضوع والذل رجاء القبول، ودفعاً للغضب، فالإنسان في حياته لا يخلو من غفلة ولا تقصير، كما هو في ضعف وَعَوَزٍ شديدين، ولهذا فإن صاحب الحاجة ديدنه أن يقف على أبواب من يسد حاجته ويجبر كسره، مستجديا راجيا، ولا يكون ذلك إلا بإظهار الانكسار وبؤس الحال، وعدم الاستغناء عن الرب سبحانه. ولعمرك أن فتنة العطاء

¹ متفق عليه، الجمع بين الصحيحين 2257، اللؤلؤ والمرجان 2257، البخاري 1145، مسلم 758

أكبر من فتنة البلاء، فصاحب البلوى يعلم أن لا ملجأ ولا منجاة من بلواه إلا بالصبر عليها، إذ لا مناص ولا محيص، وهو ما يدركونه عند نزول العذاب يوم القيامة: [وَبَرُّوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ] [ابراهيم 21]. لكن اصحاب النعمة مفتونون بها غافلون عن مال نسيان شكرها، ولهذا تكرر التحذير للخلق من مغبة الاغترار بالنعمة، [فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبْرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ . فَذَرَهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ . أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ] [المؤمنون 53-56].

واستشعار الذل والانكسار من صاحب النعمة للمولى سبحانه ادعى في دوامها، وقبول الاعمال منه، واسبال الستر عليه، وهو بوابة لكل خير، اذ هو استجلاب للرضا ودفع للنقمة، قال سبحانه: [وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ] [ابراهيم 7].

4. التسليم المطلق لأمر الله ورسوله: - إن الأصل الذي أراده الله سبحانه من الانسان هو أن يضبط الإنسان حياته وفق ما أنزل الله، [قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ] [الانعام 162]، وعليه فالانسان بين أمرين لا ثالث لهما: إما التزام ما جاء به الوحي أو رده اتباعا للهوى. فالتسليم لما جاء في نصوص الوحيين هو: " الخلاص من شبهة تعارض الخبر، أو شهوة تعارض الأمر، أو إرادة تعارض الإخلاص، أو اعتراض يعارض القدر والشرع"¹.

¹ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين 146/2

وعليه فالتسليم للأمر ليس مجرد نظرية أو قول على اللسان، بل هو منهج سلوكي يظهر في ردة الفعل الأولى، ذلك أن إخضاع مسألة التسليم للعقل والتفكير وحساب النتائج؛ فيه مفسدة أن يرى الإنسان رأيته هو في أمر شرعه الله سبحانه أو قاله رسوله صلى الله عليه وسلم. ولذلك قال الله سبحانه: [وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا] [الاحزاب 36]. والآية جاءت في رفض زينب بنت جحش، واخيها عبد الله، وأمها أميمة بنت عبد المطلب، وردّهم لأمر النبي صلى الله عليه وسلم حين خطب زينب لمولاه زيد بن حارثة. فلما نزل الأمر الإلهي من السماء؛ بأنه لا ينبغي لمؤمن ولا مؤمنة ردّ أمر الله ورسوله حتى لو كان في أخص خاصة شأنه، أذعنوا للأمر وسلموا له. ولهذا جاء النص بأن ردّ أمر النبي صلى الله عليه وسلم يترتب عليه الضلال المبين. قال النسفي: " فإن كان العصيان عصيان رد وامتناع عن القبول فهو ضلال كفر، وإن كان عصيان فعل مع قبول الأمر واعتقاد الوجوب فهو ضلال خطأ وفسق"¹.

وهذا ما جاء به النص القرآني نافية صفة الإيمان عن صنفين من الناس، صنف أرادوا أن يتحاكموا إلى غير منهج الله سبحانه، وفيهم قال سبحانه: [أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا] [النساء 60]، وفي ذلك قال الشنقيطي رحمه الله: " أن الله جل وعلا في «سورة النساء» بيّن أن من يريدون أن يتحاكموا إلى غير ما شرعه الله يُتعجب من زعمهم أنهم مؤمنون، وما ذلك إلا لأن دعواهم الإيمان مع إرادة التحاكم إلى الطاغوت بالغة من الكذب ما يحصل منه العجب.

¹ النسفي، حافظ الدين أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود (المتوفى: 710هـ)، تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) 32/3، تحقيق: يوسف علي بديوي، محي الدين ديب مستو، الطبعة: الأولى، دار الكلم الطيب - بيروت

وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور: أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله جل وعلا على ألسنة رسله صلى الله عليهم وسلم، أنه لا يشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته، وأعماه عن نور الوحي مثلهم¹.

وصنف تحاكموا لمنهج الله سبحانه إلا أنهم لم يدعوا لحكم الله ورسوله بالتسليم المطلق، وفيهم قال جلّ وعزّ: [فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا] [النساء 65]. فمقصود التسليم لا يكون بمجرد التحكيم، بل بالقبول المطلق للحكم دون أن يعلق في النفس شيء من الردّ أو الامتعاض، أو حتى الحرج من القضاء بإعلان التسليم في أكمل صورته. إذ الإيمان لا يتحقق بغير هذا، بل أن الله سبحانه جعل هذه ميزة أهل الإيمان التي لا تنفك عنهم. قال تعالى: [إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ] [النور 51].

وحقيقة التسليم لحكم الله ورسوله بيان للإيمان الذي يقبل من هؤلاء الضالين الذين يريدون العودة إلى الله، فإنهم لا يُحسبون من المؤمنين، حتى ينزلوا على حكم الله فيما يكون بينهم من خلاف. فذلك هو الدستور الذي لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يستقيم عليه، ويتقبل حكمه فيه، بقلب مطمئن، ونفس راضية، ولو كان ذلك مخالفا لهواه، مفوّتا لمصلحة خاصة له. أما أن يأخذ من حكم الله ما يرضيه، ويدع ما لا يستجيب لهواه، ويلتقى مع رغباته، فذلك هو النفاق مع الله، ومع الرسول صلى الله عليه وسلم! إن الإيمان هو التسليم المطلق لأحكام الله، والولاء المطلق لرسوله صلى الله عليه وسلم،

¹ أعضاء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطي 259/3.

وما يقضى به.. وبغير هذا لا يكون إيمان، ولا يعتدّ بدعوى من يدعيه! وفي إضافة النبي الكريم إلى الله في قوله تعالى: «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ» تشریف للنبي، واستدعاء له إلى الحضرة العلية ليشهد هذا القسم العظيم، وليكون شاهدا على هؤلاء الضالين المنافقين¹.

وقد فصل ابن القيم في مسألة التسليم فقال: "ومن منازل: {إياك نعبد وإياك نستعين} [الفاتحة: 5] منزلة التسليم، وهي نوعان:

تسليم لحكمه الديني الأمري.

وتسليم لحكمه الكوني القدري.

فأما الأول: فهو تسليم المؤمنين العارفين. قال تعالى: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما} [النساء: 65].

فهذه ثلاث مراتب: التحكيم، وسعة الصدر بانتفاء الحرج، والتسليم².
وعليه فالتسليم يقوم على:

1. تلقي الخبر الصحيح بشروطه سواء كان بنقل الواحد أو المجموع بالتصديق.
2. التسليم وعدم رد الخبر لا بالقول ولا بالفعل.
3. عدم وجود الشك أو الحرج فيما جاء به الخبر.

¹ التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب 1/827.

² مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين 145/2

وهذا ما دلّ عليه فعل الذين نزل بينهم الوحي ففي الحديث عن أبي بَرزة: أن جليبيياً كانَ امرأً من الأنصار، وكانَ يدخلُ إلى النِّساءِ ويتحدّثُ إليهنَّ، قالَ أبو بَرزة: فقلتُ لامرأتي: لا يدخلُ عليكِ جليبيب. وكانَ أصحابُ النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلّم إذا كانَ لأحدِهم أيمٌ لم يُزوّجها حتّى يعلمَ الرّسولُ اللهُ صلى اللهُ عليه وسلّم فيها حاجةٌ أم لا؟ فقَالَ رَسولُ اللهُ صلى اللهُ عليه وسلّم ذاتَ يومٍ لرجلٍ من الأنصار: " يا فلان، زوّجني ابنتك " قالَ: نعم، ونعم عين. قالَ: " إني لست لنفسي أريد ". قالَ فليمن؟ قالَ: " لجليبيب " قالَ: يا رَسولُ اللهُ، حتّى أستأمرَ أمها. فأتاها فقَالَ: إن رَسولُ اللهُ صلى اللهُ عليه وسلّم يخطبُ ابنتك، قالتَ: نعم، ونعمة عين، يُزوّج رَسولُ اللهُ صلى اللهُ عليه وسلّم ابنتك؟ قالَ: فليمن؟ قالتَ حلقى، ولس لبيبيب الأبنة؟! لا لعمر اللهُ، لا أزوج جليبيياً. فلَمّا قامَ أبوها ليأتي النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلّم قالت الفتاة من خدرها لأبويها: من خطبني إليكما؟ قالَا: رَسولُ اللهُ صلى اللهُ عليه وسلّم، قالت: أفتردون على رَسولِ اللهُ صلى اللهُ عليه وسلّم أمره، ادفعوني إلى رَسولِ اللهُ صلى اللهُ عليه وسلّم فإنّه لن يضيعني. فذهبَ أبوها إلى النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلّم، فسأله، فقَالَ: شأنك بها، فزوّجها جليبيياً¹.

بهذا التسليم المطلق استكملوا الإيمان، إذ استقر في مكنون القلب حقيقة واحدة هي أسّ التسليم وعنوانه " ادفعوني إلى رَسولِ اللهُ صلى اللهُ عليه وسلّم فإنّه لن يضيعني "

وكلما كانت معرفة العبد بربه أكمل تحقّق في قلبه اليقين الذي لا يتطرق إليه الشك، والتصديق الذي لا يخالجه الريب، وهو ما استقر حقيقة في قلوب الرعيّل الأول من المؤمنين، فقد أدركوا حقيقة قوله سبحانه وتعالى: [النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ

وأزواجه أمهاتهم] [الاحزاب 6]، وولايته عليهم ولاية أدركوا نفعها، وحقيقتها بخبر ربه سبحانه: " لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ" التوبة 128

5. الرحمة والتراحم والتآلف: من أعظم ما امتازت به أمة المؤمنين أن الرحمة والتراحم سمة أساسية فيها، فلا إيمان يتحقق إلا بظهور صفاته على الفرد والمجموع، وفي الوقت الذي يخبر الله سبحانه أن من سبق من الأمم لما خالفوا أمر الله سبحانه فألقى بينهم العداوة والبغضاء، فترى مجتمعاتهم في صراع على الدنيا، لا ينزل المرء فيهم عن حاجة نفسه لأخيه، ولكن مشيئته سبحانه اقتضت أن يكون أولياؤه في خير وعلى خير، فليست شهواتهم وحاجاتهم بالتي تدفعهم للتناحر، بل ينزلون عن حظوظ أنفسهم لتدعن النفس لما أراد الرب جل وعز. ذلك أن ما جاءهم من الهدى ليس مجرد استرشاد واستدلال على الحق، بل هو مآل رحمة وسكينة تنزل على القلب المؤمن؛ فتفيض على خلجاته وسكناته أنسا وفيضا، يجد أثره في ذاته وسلوكه، ثم هو يمتد ليصل إلى ما حوله من الموجودات. قال ابن القيم: " وأما المؤمنون: فاتصل الهدى في حقهم بالرحمة، فصار القرآن لهم هدى ورحمة ولأولئك هدى بلا رحمة. والرحمة المقارنة للهدى في حق المؤمنين عاجلة وآجلة.

فأما العاجلة فما يعطيهم الله تعالى في الدنيا من محبة الخير والبر، وذوق طعم الإيمان، ووجد حلاوته، والفرح والسرور بأن هداهم الله تعالى لما أضل عنه غيرهم، ولما اختلف فيه من الحق. فهم يتقبلون في نور هداه، ويمشون به في الناس، ويرون غيرهم متحيرا في الظلمات، فهم أشد الناس فرحا بما آتاهم ربه من الهدى. قال تعالى: [قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ] [يونس: 58]. فأمر سبحانه عباده

المؤمنين المهتدين أن يفرحوا بفضله ورحمته.

وقد دارت عبارات السلف على أن الفضل والرحمة هو العلم والإيمان والقرآن، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا من أعظم الرحمة التي يرحم الله بها من يشاء من عباده، فالرحمة التي تحصل لمن حصل له الهدى هي بحسب هداه، فكلما كان نصيبه من الهدى أتم كان حظه من الرحمة أوفر، وهذه هي الرحمة الخاصة بعباده المؤمنين، وهي غير الرحمة العامة بالبر والفاجر¹.

ويبين الله سبحانه صفة أهل الإيمان، متجسدة في شخص محمد صلى الله عليه وسلم نبياً رسولاً، وبشراً وقدوة لكل المؤمنين، ليكونوا متشبهين به في سمته وسلوكه ونهجه، فقال تعالى: [فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ] [ال عمران 159]، فهي الرحمة التي تقتضي اللين في التعامل والخطاب، ولما كان تألف القلوب ورحمتها ببعضها ليست مسألة بشرية بل هي منحة ربانية، وفيض عطاء المنعم المتفضل على خلقه سبحانه بخير العطايا والنعم، يلفت الرب سبحانه أنظار المؤمنين الى ضرورة الاتصال بالمنعم بالدعاء والسؤال طلباً لما عنده، اذ لا يقدر على مثل هذا إلا هو، قال جل وعلا: [فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ، وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] [الانفال 62-63].

وانعكست هذه الروح بفضل ربها على جموع الصحب ومن اتبعهم بإحسان، قال تعالى: [وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ

¹ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم 911/2-912.

حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [الحشر 9]. وهذا المبلغ من الرحمة ما تحقق في أمة من الأمم ولا مجموعة من الناس إلا في هذه الزمرة المؤمنة التي اجتباها الله، فخلصت نفوسها لله، فلم يكن عطاء الرحمة منهم عطاء المترف المنعم صاحب المال، بل كأن إثارة على الذات مع شدة الحاجة والعوز. ولكنهم فهموا ما أراد الله سبحانه منهم لما أخبرهم نبيهم صلى الله عليه وسلم أنهم جسد واحد فعاشوا كالجسد الواحد، عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى ¹ .

وبعد أن كانت افئدتهم كالحجارة أو أشد قسوة إذا بها أرق من نسمة الهواء لما علموه من فعل النبي صلى الله عليه وسلم وقوله. عَنِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ إِحْدَى بَنَاتِهِ تَدْعُوهُ، وَتُخْبِرُهُ أَنَّ صَبِيًّا لَهَا، أَوْ ابْنًا لَهَا فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ لِلرَّسُولِ: " ارْجِعْ إِلَيْهَا، فَأَخْبِرْهَا: أَنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُّسَمًّى، فَمَرَّهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ "، فَعَادَ الرَّسُولُ، فَقَالَ: إِهْمَا قَدْ أَقْسَمْتَ لَتَأْتِيَنَّهَا، قَالَ: فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَامَ مَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَنْطَلَقْتُ مَعَهُمْ، فَرَفَعَ إِلَيْهِ الصَّبِيَّ وَنَفْسُهُ تَفَعُّعُ كَأَنَّهَا فِي شَنَّةٍ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ لَهُ سَعْدُ: مَا هَذَا؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرَّحْمَاءَ» ² .

والرحمة التي اشتملت عليها قلوب المؤمنين رحمة محبة لا رحمة يكتنفها الاستعلاء، أو الشعور بالفوقية. بل هي نسيج اجتماعي لا تنفصم عراه، لأنه ليس مجرد علاقات

¹ متفق عليه، رواه البخاري 6011، ومسلم 2586

² متفق عليه، الجمع بين الصحيحين 2801، اللؤلؤ والمرجان 531، البخاري 1284، 7377، 7448، ومسلم 923

إنسانية، بل روابط روحية مشدودة الى بعضها البعض بأواصر المحبة، هي أرواح التحمت بوشائج الايمان، وترابطت بأواصر القرآن وصفها النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً: " الأرواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اثْتَلَفَ، وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ"¹. ولم تقف هذه الرحمة عند حدود المحبة الداعية للإكرام، بل تعدت ذلك إلى أعلى مراتب الايثار، وتفضيل الواحد أخاه لا عن خاصة نفسه بل عن ولده وأهله إرضاء لله ورسوله، ومن ذلك ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنِّي مَجْهُودٌ، فَأَرْسَلَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ، فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى، فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، فَقَالَ: «مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحْمَةً اللَّهُ؟»، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: أَنَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: لَا إِلَّا قُوثُ صَبْيَانِي، قَالَ: فَعَلَّلِيهِمْ بِشَيْءٍ، فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِ السِّرَاجَ، وَأَرِيهِ أَنَا نَأْكُلُ، فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ، فَقُومِي إِلَى السِّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيهِ، قَالَ: فَفَعَعَدُوا وَأَكَلَ الضَّيْفُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «قَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمْ بِضَيْفِكُمْ اللَّيْلَةَ»².

ومن عجائب صنيعهم وعظيم ايثارهم ما حدث به أنس رضي الله عنه، قَالَ: قَدِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ الْمَدِينَةَ فَأَخَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيِّ فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُنَاصِفَهُ أَهْلَهُ وَمَالَهُ، فَقَالَ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ ذُلِّي عَلَى السُّوقِ³. أي إيمان هو هذا الإيمان الذي يصنع مثل هذا الحب، واي دين هذا الذي يصطبغ ابناؤه بمثل هذه الرحمة والإيثار!

¹ متفق عليه، رواه البخاري من حديث عائشة 3336، ومسلم من حديث أبي هريرة 2638

² صحيح مسلم 2054

³ صحيح البخاري 3937

هكذا رباهم القرآن فانسجم عقدهم وتآلف جمعهم، لا يأكل أحدهم حتى يطمئن على أخيه وجاره، وإن أنفقوا أنفقوا أطيب ما عندهم، وتوارثوا ذلك دينا وديانة، عن الربيع بن خثيم أنه قال لأهله: «اصنعوا لي حبيصا» قال: فصنعوا، فدعا رجلا كان به حبل، قال: فجعل الربيع يلقمه ولعابه يسيل، فلما أكل وخرج قالت له أهله: تكلفنا وصنعنا فيه، ثم أطمئنته ما يدري هذا ما أكل؟ قال الربيع: «لكن الله يدري»¹.

هكذا هو الحال، وهذا هو السبب " لكن الله يدري " فالفعل لا من أجل المن به على الخلق، علموه أو جهلوه، بل الغاية رب الخلق، فالعمل من أجله، رجاء ثوابه، واتقاء عقابه. قال سبحانه: [لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ] [آل عمران 92]. وفي زماننا انقلب الحال، وحرص الناس على الأخذ دون العطاء، فترى المشردين في خيام اللجوء يهصر البرد أضلاعهم، ويقتاتهم الجوع، وتلوكهم الريح، فإذا ما دعى داعي الخير أن أدوا إلي عباد الله، " الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّنْ فِي السَّمَاءِ"²، تسابق الواهمون الى ما استغنوا عنه من الثياب، وما رغبوا عنه من قديم الملابس، يدفعونه الى الفقراء والمحتاجين، مؤثرين أنفسهم بجميل الملبس ولذيذ المطعم، ثم تلجج اللسان بالحمد على أن وفقه الله لإطعام جائع أو كسوة عار، وما علم المسكين أن لو أمر الله سبحانه أن يضع علامة يرينا ربنا سبحانه من خلالها قبوله لفعل عبده أو رده كما فعل مع قابيل وهابيل، لكان أكثرنا حظه من فعله حظ قابيل، ذلك أن ما يعطى للمحتاج إنما يعطى لله، فانظر يا ابن آدم ما الذي تعطي لربك جل وعز.

ومقارنة بما كان عليه الصحب الأخيار، نجد أنهم أعطوا أحسن ما عندهم، فأعطاهم

¹ مصنف ابن ابي شيبة 24540

² سنن الترمذي 1924، السنن الكبرى للبيهقي 17905، وصححه الالباني في الصحيحة 925

الله أحسن مما أعطوا. وبهذا استحقوا ما وصفهم به ربهم سبحانه: [مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزِعٍ أُخْرِجَ شَطَؤُهُ فَأَرْزَهُ فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا] [الفتح 29].

ومن أعاجيب زماننا ما درج عليه بعض المسلمين من أهل الأهواء فتراهم هاشين باشين تملأ ابتساماتهم وجوههم عند اللقاء بغير المسلم ممن اختلفوا معه دينا وعقيدة، حتى أن بعضهم يقرر في كلامه أن الذين لم يلتزموا التوحيد دينا بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ولكنهم في الوقت ذاته في تعاملهم مع المسلم الذي يأتيهم لحاجة، أو يخالفهم الرأي، تراهم يقطبون ويعبسون. ولا يتوانون عن الهجوم بأقسى الكلمات وأشد الألفاظ، بل ربما ذهبوا يلغون عليهم ابشع الصفات تبعا لما يروج الإعلام الغربي عن المسلمين. وإذا ما تحدث الواحد منهم عن حال المسلمين بكى وتباكى على الظلم والطغيان الذي يتعرض له أهل الإسلام في بلاد الاسلام على أيدي الظلمة ووسائل الإعلام الفاسدة، متناسيا فعل نفسه مع المسلمين.

6. الحب في الله والبغض في الله: ومقتضى الحب في الله أن يكون نابعا من أصل، والأصل هو حب الله سبحانه وقد أسلفنا فيه، والحب والبغض فيه سبحانه هي أغصان الإيمان التي منها تنطرح الثمرة التي هي أساس في تعامل المؤمن مع غيره، ألا وهي ثمرة الولاء والبراء.

فلا تكتمل شجرة الايمان الا بكامل أوصافها ومعطياتها، فلا بد من جذرها المتأصل

حبا لله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ثم أغصانها التي تمثل الحب في الله ورسوله والبغض في الله ورسوله، ثم الثمرة التي تتألق نورا في حياة المؤمن بموالاته من والى الله ورسوله، وبغض من حاد الله ورسوله. عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ»¹. ولذلك نفى سبحانه صفة الايمان عن خالف قاعدة الحب والبغض في الله فقال تعالى: [لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] [المجادلة 22].

قال الفخر الرازي: واعلم أن كون المؤمن مواليا للكافر يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون راضيا بكفره ويتولاه لأجله، وهذا ممنوع منه، لأن كل من فعل ذلك كان مُصَوِّبًا له في ذلك الدين، وتصويب الكفر كفر، والرضا بالكفر كفر، فيستحيل أن يبقى مؤمنا مع كونه بهذه الصفة.

وثانيها: المعاشرة الجميلة في الدنيا بحسب الظاهر، وذلك غير ممنوع منه.

وثالثها: وهو كالمتوسط بين القسمين الأولين بمعنى الركون إليهم والمعونة، والمظاهرة، والنصرة إما بسبب القرابة، أو بسبب المحبة مع اعتقاد أن دينه باطل فهذا لا يوجب الكفر إلا أنه منهي عنه، لأن الموالاته بهذا المعنى قد تجرّه إلى استحسان طريقته والرضا

¹ رواه ابو داود 4681، والحاكم في المستدرک 2694، والطبرانی في الكبير 7613 والوسط 9083، وابن ابي شيبة في المصنف 34730، وصحه الالباني في الصحيحة 380.

بدينه، وذلك يخرجهم عن الإسلام فلا جرم هدد الله تعالى فيه فقال: وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ¹.

فما يستقر في القلب من مودة أهل الكفر على عظيم ما اجترحوه من الكفر والإساءة بحق الله سبحانه هو نقيض الإيمان، ولا يمكن أن يحمل القلب الشيء وضده في آن معاً، وإلا كان ذلك اعتلال في القلب وخروج عن الصحة، قال الوَلَوِي في شرحه على النسائي: " من أحوال القلب، وأعماله ما يكون من لوازم الإيمان الثابتة فيه، بحيث إذا كان الإنسان مؤمناً، لزم ذلك بغير قصد منه، ولا تعمّد له، وإذا لم يوجد دلّ على أن الإيمان الواجب لم يحصل في القلب، وهذا كقوله تعالى: [لَا بَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ] [المجادلة: 22]، فأخبر أنك لا تجد مؤمناً يوادّ المُحَادِّينَ لله ورسوله، فإن نفس الإيمان ينافي موادّتهم، كما ينفي أحد الضدين الآخر، فإذا وجد الإيمان انتفى ضده، وهو موالاته أعداء الله، فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه، كان ذلك دليلاً على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب.

ومثله قوله تعالى: [تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ] [المائدة: 80-81]، فذكر جملة شرطية تقتضي أنه إذا وجد الشرط وجد المشروط بحرف "لو" التي تقتضي مع الشرط انتفاء المشروط، فقال: {ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء}، فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء، ويضاده، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم

¹ التفسير الكبير للفخر الرازي 192/8

أولياء في القلب، ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء، ما فعل الإيمان الواجب، من الإيمان بالله، والنيبي، وما أنزل إليه¹.

ولا يقولون قائل بجهل أن الاسلام جاء لينشر الكراهية بين الناس كما يروج لذلك بعض المغرضين من خلال استغلال بعض الأحاديث وتفسيرها على غير ما تحتمل. إذ أن تفسير الحديث مرتبط بكيفية فعل النبي صلى الله عليه وسلم للمسألة، ومن ذلك حديث ابي هريرة عند مسلم: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « لَا تَبَدَّءُوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ، فَإِذَا لَقَيْتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ، فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ»²

وقد فصل النووي مذاهب العلماء في المسألة فذكر قول البعض بجواز ابتدائهم بالسلام وأن الراجح فيه قول جمهور السلف من أهل العلم بوجوب رد السلام عليهم، وأما التضييق عليهم في الطريق فلا يعني منعهم منها أو التضييق عليهم فيها مع وجود المتسع للجميع، ولكن في حال الزحام وضيق الطريق فلا يترك المسلم صدر الطريق ويضيّق على نفسه ايثارا لغير المسلم³.

واحتج بعض الجهلة بأية النهي عن مودة غير المسلمين متسائلين كيف إذن يسمح الاسلام للمؤمن نكاح الكتابية المحصنة ثم ينهأ عن مودتها!!؟

ولعمرك إن هذا القول لا يدل إلا على سخف وجهالة القائلين به، إذ المعلوم أن مقصود المودة المحرمة هو مودة اهل الكفر على كفرهم، أما ودّ الولد لأبويه برا ومعروفا وإن كانا كافرين فهو مما ندب اليه الشرع، وكذلك حب الزوج لزوجته وإن كانت على غير

¹ ذخيرة العقبى في شرح المجتبى للولوي 154-153/37.

² صحيح مسلم 2167

³ المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج 147/14

الإسلام، قال الاصبهاني: " فإن قيل: فقد قال تعالى: { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ }، الآية، والنكاح يوجب المودة لقوله: { أَنْ خَلَقَ
لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً }، وقد نھانا عن
مودتهم، فيجب أن لا نواصلهم! قيل: المودة المنهي عنها هي الدينية لا المودة النفعية أو
الشهوية، فإننا إذا أوددناهم لنفع ما، فإنما نود النفع كمودتنا لذمي يعيننا على مدافعة
المشركين، فقوله: { يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ } عنى بها المودة الدينية"¹.

وحقيقة ما قام عليه الاسلام هو نشر المحبة والسلام والعدل بين الناس بخلاف ما يروج
له أعداء الإسلام. ولهذا لم يترك الإسلام مسألة الحب والبغض قضية شخصية لا حد
لها ولا ضابط، بتركها لمزاجية الأشخاص واعتباراتهم البشرية. بل جعلها منضبطة في
إطار مجمل الأحكام الإلهية والنصوص الشرعية، بعيدا عن اعتبارات العرق أو اللون أو
الجنس. وجعل الإسلام معيار القبول والرد هو الفعل الموافق لما جاءت به نصوص
الوحيين، إذ الإيمان عدل كله، وفعل المؤمنين يدور مع عدالة الإيمان. [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا كُونُوا قَوْمًا لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا
هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ] [المائدة 8].

فلا يُظلم كافر ولا يُعتدى عليه ولا يُهضم حقه لكونه كافرا، ولا تُخفر ذمّة ذمي ولا
عهده ما دام قائما بعهده لا ينقضه. ولهذا جاءت نصوص الإسلام داعية الى الخير
ونشره بين الناس مسلمهم وكافرهم، وفي إطار محبة الخير للبشرية جمعاء؛ جاء الوحي
داعيا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشتى الوسائل، بالغلظة حيناً، وباللين
أحياناً، لا لكراهية وضعينة بل من أجل إرادة الخير، وخشية على الناس من أن يحلّ

¹ تفسير الراغب الاصفهاني

عليهم غضب من ربهم، كما حدث مع القرون الأولى. وأما أولئك الذين سكتوا عن الأمر عن المعروف والنهي عن المنكر، وظنوا بأنهم بالمخادعة وحمل النصوص على غير مراميها بتأويلاتهم الفاسدة، وإظهار المودة لغير المسلمين، وإظهار القبول لما هم عليه من العناد والفساد، فما ذلك منهم إلا ممالئة للباطل، وغش للناس، وخيانة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم. فالحب الذي حمله الاسلام للناس يقوم على إرادة الخير لهم، وحمائتهم من أن يقع عليهم رجز من ربهم، وحمل الناس على أمر الله وإن كرهوه أو رفضوه إنما هو غاية الحب، لأن فيه دفع للشر عن البشر وإن لم يدركوا هذا الشر الذي يحيط بهم.

ولا بد من التفريق بين الدوافع الشخصية والدوافع الدينية في العلاقات مع البشر، فلا يُكره الإنسان نظرا لونه، أو جنسه، أو قوميته. بل المؤمن مبغض لفعل الكافر وليس لذاته كإنسان، وهذا البغض لفعله غير مانع للمسلم من إسداء النصح وبيان الحق؛ والدعوة الى الخير أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر. وهو فوق هذا كله مانع للمسلم من الاعتداء على شخصه، أو ماله، أو ممتلكاته، أو ما له من حق. قال سبحانه: [وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ اَنْ صَدُّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ اَنْ تَعْتَدُوْا وَتَعَاوَنُوْا عَلٰى الْبِرِّ وَالتَّقْوٰى وَلَا تَعَاوَنُوْا عَلٰى الْاِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللّٰهَ اِنَّ اللّٰهَ شَدِيْدُ الْعِقَابِ] [المائدة 2].

واستنادا إلى قاعدة العدل في الإسلام التي تقضي بأن تحفظ للإنسان حقه، فإنه إن حلّ الكافر دار الإسلام وهو على كفره فله عهد الأمان والسلام، يحفظه المسلمون ويرعون حقه، ويبلغونه دعوة الحق دون إكراه أو جبر، ثم يوصلونه إلى غايته ومقصده آمنا مطمئنا، فإن قاتلهم قاتلوه، ولا يبادرونه بالقتال أو الاعتداء إلا إن خان العهود ونقض المواثيق. قال جل وعز: [وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ

كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أْبَلِغُهُ مَا أَمَنَهُ ذَلِكَ بِأَتْهَمَ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ [التوبة 6]. ولن يجد الباحث في القرآن نصا واحدا يأمر بالبغضاء، حتى أن النصوص جاءت تنصف اولئك الذين ظاهرهم العدا لأمة الإسلام بعدم أخذ الصالح بجريرة الطالح، وعدم إطلاق الحكم على الكل بنفس الحكم بسبب خطأ البعض، فقال الله سبحانه: [لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَتْهَمَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ] [المائدة 82]. ورغم ذكره ما عليه اليهود من شدة العدا للمسلمين إلا أنه ذكر ايضا استثناء منهم فقال: [لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ] [ال عمران 113 - 115].

وأبى الله إلا أن يحدث في الأمة أحداثا يتضح من خلالها الحكم الشرعي واضحا لا لبس فيه لتجنب الأمة الوقوع في مهاوي اتهام بعضها بعضا، أو تشتيت الجمع المؤمن من خلال انفصام عرى المودة بين أفراده. ومن ذلك ما رواه أبو الطفيل عامر بن واثلة: أَنَّ رَجُلًا مَرَّ عَلَى قَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، فَرَدُّوا عَلَيْهِ السَّلَامَ، فَلَمَّا جَاوَزَهُمْ قَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْغِضُ هَذَا فِي اللَّهِ، فَقَالَ أَهْلُ الْمَجْلِسِ: بِئْسَ وَاللَّهِ مَا قُلْتَ، أَمَا وَاللَّهِ لَنَنْبِئَنَّكَ، فَمَ يَا فُلَانُ، رَجُلًا مِنْهُمْ، فَأَخْبِرُهُ، قَالَ: فَأَدْرَكَهُ رَسُولُهُمْ، فَأَخْبِرَهُ بِمَا قَالَ، فَانصَرَفَ الرَّجُلُ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَرَرْتُ بِمَجْلِسٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ فُلَانٌ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمْ فَرَدُّوا السَّلَامَ، فَلَمَّا جَاوَزْتُهُمْ أَذْرَكُنِي رَجُلٌ مِنْهُمْ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ فُلَانًا قَالَ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْغِضُ هَذَا الرَّجُلَ فِي اللَّهِ، فَادْعُهُ فَسَلِّهُ عَلَامَ يُبْغِضُنِي؟ فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَهُ عَمَّا أَخْبَرَهُ الرَّجُلُ، فَاعْتَرَفَ بِذَلِكَ وَقَالَ:

قَدْ قُلْتُ لَهُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " فَلِمَ تُبَغِضُهُ؟ " قَالَ: أَنَا جَارُهُ وَأَنَا بِهِ حَابِرٌ، وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُهُ يُصَلِّي صَلَاةً قَطُّ إِلَّا هَذِهِ الصَّلَاةُ الْمَكْتُوبَةُ الَّتِي يُصَلِّيهَا الْبُرُّ وَالْفَاجِرُ، قَالَ الرَّجُلُ: سَلُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَلْ رَأَيْتُ قَطُّ أَحْرَهُمَا عَنْ وَقْتِهَا، أَوْ أَسَأْتُ الْوُضُوءَ لَهَا، أَوْ أَسَأْتُ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ فِيهَا؟، فَسَأَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: لَا، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُهُ يَصُومُ قَطُّ إِلَّا هَذَا الشَّهْرَ الَّذِي يَصُومُهُ الْبُرُّ وَالْفَاجِرُ؟، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ رَأَيْتُ قَطُّ أَفْطَرْتُ فِيهِ، أَوْ انْتَقَصْتُ مِنْ حَقِّهِ شَيْئًا؟، فَسَأَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: لَا، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُهُ يُعْطِي سَائِلًا قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُهُ يُنْفِقُ مِنْ مَالِهِ شَيْئًا فِي شَيْءٍ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِحَيْرٍ، إِلَّا هَذِهِ الصَّدَقَةَ الَّتِي يُؤَدِّيهَا الْبُرُّ وَالْفَاجِرُ، قَالَ: فَسَلَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ كَتَمْتُ مِنَ الزَّكَاةِ شَيْئًا قَطُّ، أَوْ مَا كَسْتُ فِيهَا طَالِيَهَا؟ قَالَ: فَسَأَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: لَا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " فَمِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ خَيْرٌ مِنْكَ " ¹.

فالمؤمن لا يبغض إلا ما أبغض مولاة تعالى وكرهه رسوله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: [وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ] [الحجرات 7].

7. الدعوة إلى الله: ان مسألة الدعوة إلى الله محصلة بديهية لحقيقة الإيمان، ذلك أن من دان بالإسلام واعتقد بأنه طريق السعادة في الدنيا والآخرة، ولامس الإيمان شغاف قلبه، فوجد لذته في قرارة قلبه، فإن هذا الإحساس سيكون دافعه الأكبر لدعوة الناس

¹ مسند احمد 23804، المعجم الأوسط للطبراني وصححه الهيثمي في مجمع الزوائد 1600، والصحيح أنه مرسل من رواية

يعقوب بن ابراهيم بن سعد عن ابيه عن ابن شهاب دون التصريح باسم ابي الطفيل

إلى هذا الخير الذي فاضت حلاوته على قلبه وكيانه. وما تخلف المسلم عن الدعوة إلى ما هو فيه من الخير إلا نتاج عدم الاحساس الحقيقي للخير الذي هو فيه. وقد خاطب الله سبحانه النبي صلى الله عليه وسلم وأمة الإسلام قائلاً له: [قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ] [يوسف 108] وفي هذه الآية جاء بيان منهج الإيمان في الدعوة إلى الله على الأسس الصحيحة سواء للداعي أو المدعو على حدّ سواء، ومن ذلك أن مسألة الدعوة لا تقوم إلا على هذه الأسس وهي:

ان يكون المؤمن على السبيل الذي عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا السبيل يقوم على توحيد الله، والتزام شرعه على ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، مع اعتقاد سلامة منهجه عليه الصلاة والسلام من العيب والنقص. عن العرياض بن سارية، قَالَ: وَعَظَّنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً دَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجَلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةٌ مُوَدَّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ لِيُنَا؟ قَالَ: «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَرِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنْفِ، حَيْثُمَا قِيدَ انْقَادًا»¹.

فكل من زعم أن ما جاء به خلافا لما تركنا عليه النبي صلى الله عليه وسلم؛ أصح وأحكم مما بينه النبي صلى الله عليه وسلم؛ وسار عليه خلفاؤه الراشدون من بعده؛

¹ رواه احمد 17142، وابن ماجه 43، والطبراني في الكبير 619 و 642، وصححه الالباني في الصحيحة 937

وتبعثهم على ذلك أمته من خير القرون؛ فإنما جاء ظلما من القول وزورا. وما نراه اليوم من الدعوات الى خلاف ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته في كثير من المسائل إنما هو ما استزل به الشيطان البعض ممن ذهبوا الى الخلاف، إما دعوة لحزب، أو فرقة، وإما لهوى في النفس، أو تحقيقا لمصالح ذاتية أو حزبية. وكل ذلك مردود بحديث النبي صلى الله عليه وسلم. ومن العجب العجيب أن يبرر البعض مثل ذلك بأعذار التيسير وإن كان التيسير في غير مشقة، أو بموافقة غير المسلمين، مع علمهم أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا إلى تمايز المسلمين عن غيرهم في الدين والعادات.

ومن أمثلة ما وقعنا فيه من الإضطراب بسبب مخالفة ما جاء من هدي النبي صلى الله عليه وسلم مسألة اعتماد الحساب الفلكي في اثبات دخول الشهور القمرية وتحديد شهور العبادة كرمضان وشوال وذو الحجة، حيث كان العمل منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم بالرؤية، إلى أن جاء من بدأ يروج لفكرة الحساب اتباعا لما شذ من الأقوال التي خرجت بعد القرون الثلاثة المفضلة. ورغم علم القائلين بالحساب في زماننا من شذوذ الأقوال بالحساب إلا أنهم راحوا يؤولون المسألة على خلاف ما جاءت في السنة تلبيسا على الناس، وحملا للأحاديث على غير ما جاء فيها بتأويلات فاسدة. وقد كان اهل العلم المعتبرين من المذاهب قد ردوا على أصحاب بدعة الأخذ بالحساب الفلكي تفصيلا، ومن ذلك ما نقل صاحب وبل الغمامة قال: " قال الحنفية: إن شرط وجوب الصوم والإفطار رؤية الهلال، وأنه لا عبرة بقول المؤقتين ولو عدولا، ومن رجع إلى قولهم فقد خالف الشرع.

وقال المالكية: منع مالك من اعتماد الحساب في إثبات الهلال، فقال: (إن الإمام الذي يعتمد على الحساب لا يقتدى به ولا يتبع). وبَيَّنَّ أبو الوليد الباجي من المالكية حكم صيام من اعتمد على الحساب فقال: (فإن فعل ذلك أحد فالذي عندي أنه لا يعتمد بما صام منه على الحساب، ويرجع إلى الرؤية في إكمال العدد، فإن اقتضى ذلك قضاء شيء من صومه قضاؤه).

(وقال النووي من الشافعية: قال أصحابنا وغيرهم لا يجب صوم رمضان إلا بدخوله، ويُعلم دخوله برؤية الهلال، فإن غمَّ وجب استكمال شعبان ثلاثين، ثم يصومون سواء كانت السماء مصبحة أو مغيمة غيماً قليلاً أو كثيراً).

وقال ابن تيمية: النصوص المستفيضة عن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك كثيرة، وقد أجمع المسلمون بذلك عليه، ولا يعرف فيه خلاف قديم أصلاً، ولا خلاف حديث، إلا أن بعض المتأخرين من المتفقهة الحادثين بعد المائة الثالثة زعم أنه إذا غم الهلال جاز للحاسب أن يعمل في حق نفسه بالحساب، فإن كان الحاسب دل على الرؤية صام، وإلا فلا. وهذا القول وإن كان مقيداً بالإغمام ومختصاً بالحاسب (في نفسه) فهو شاذ مسبوق بالإجماع على خلافه، أما اتباع الحساب في الصحو، أو تعليق عموم الحكم العام به فما قاله مسلم¹.

ولهذا فإن الأصل في الدعوة الى الله هو الدعوة إلى ما جاءت به النصوص المحكمة في الكتاب والسنة، أما الدعوة الى آراء الرجال المخالفة لما ورد في نصوص الوحيين فما هذا سوى الضلال. قال آل بورنو: " قولهم: (لا اجتهاد مع النص)، فهذه القاعدة تفيد تحريم الاجتهاد في حكم مسألة ورد فيها نص من الكتاب، أو السنة، أو الإجماع لأنه

¹ وَبَلَّ الْغَمَامَةَ فِي شَرْحِ عُذَّةِ الْفَقْه لِعَبْدِ اللَّهِ الطَّيَّار 126/2-127.

إنما يحتاج للاجتهاد عند عدم وجود النص، أما عند وجوده فلا اجتهاد إلا في فهم النص ودلالته"¹.

وما يقع فيه الكثيرون ممن خرجوا عن نصوص الوحيين إنما مردّه الى التأويل، وفي أغلبه تأويل فاسد. ذلك أن التأويل من حيث هو تأويل مع قطع النظر عن الصحة والبطلان، هو حمل اللفظ على غير مدلوله الظاهر منه، مع احتمال له. وأما التأويل المقبول الصحيح فهو حمل اللفظ على غير مدلوله الظاهر منه مع احتمال له بدليل يعضده².

وهذا هو عين الحق الذي قامت عليه مناهج العلماء على مر أزمان الأمة، ولم يشذ عنه إلا المتفقيهة الذين ارادوا إحداث البدع المنكرة، وتتبع الرخص دون وجه حق. ذلك أن اتباع الرخصة مع القدرة على فعل العزيمة المتعينة تلاعب بالدين إلا إن دلّ النص على الإتيان بها للمخصوص بها، فإنما تكون الرخصة لمن أذن له الشارع في عدم فعل العزيمة، فيكون إتيان الرخصة في حق العاجز أو المنصوص عليه عزيمة، كما أنه لا ينبغي لأحد العمل بالمرجوح إلا أن كان أحوط في الدين من القول الراجح.

وخلاصة القول أن مسائل الفقه والأحكام ليست ألعوبة للعبث، بل لا بد من أن تخضع لضوابط احكام الدين، وهو ما كان عليه إئمة العلم. ولم يذهب أحد من علماء السلف أو من تبعهم بإحسان إلى جواز تتبع الرخص على عواهن ذلك، بل المعلوم أن الرخص منها ما هو عام لسبب يشمل الكلّ ومنها ما هو خاص لقوم دون قوم.

وما أسلفناه من أقوال الأصوليين والفقهاء ليس من أجل إظهار الخلاف المحتدم بين أقطاب العمل الإسلامي في الغرب، بل لإشارة أن مفهوم الدعوة الى الله أكثر شمولية

¹ الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية محمد ال بورنو ص33.

² الإحكام في أصول الأحكام للأمدي 52/3.

مما قد يعتقده البعض، فالدعوة لها جناحان لا غنى عنهما، فهي إما دعوة لغير المسلمين وقوامها الدعوة للتوحيد الخالص المنافي للشرك بكافة ضروبه، وهذه دعوة عامة للمسلم وغير المسلم، وأما الجناح الثاني فهو دعوة الإسلام كمنهج رباني لضبط السلوك وشؤون الحياة في إطار ما جاءت به الأحكام الشرعية، وبناء الدولة المسلمة على أسس القانون الإلهي، والتي تضمنها قوله تعالى: [قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ] [يوسف 108].

وفي تحقيق أمر الله سبحانه بالإتباع للنبي صلى الله عليه وسلم في أمر الدين كله التزاماً ودعوة، لا بد من ميزان الضبط القائم على بصيرة وبرهان، وهذا يستدعي الصدق في الفهم والأداء، أما صدق الفهم فهو معرفة الأساسيات والآليات اللازمة للدعوة، من فهم حقيقة الدعوة وأهدافها، وأنها دعوة إلى الله ودينه، بالحكمة والموعظة الحسنة مع إتقان البراهين والحجج اللازمة في الإثبات والدحض، اثبات وحدانيته سبحانه، وصدق ما جاءت به رسله وأنبيأؤه، ودحض كل الشبهات والعوائق التي قد تقف حاجزاً بين الناس وبين انتهاج دين الله. فإذا ما صحَّ الفهم وخلصت النية وتم تنفيذ الأمر على الشكل الذي أمر به الله سبحانه تحقق المقصود، وحصلت الثمرة بأقل الجهد. لكن إن اعتور الدعوة خلل في الصدق لم يتحقق الهدف المنشود، قال ابن باديس: " ليس كل من زعم أنه يدعو إلى الله يكون صادقاً في دعواه، فلا بد من التفرقة بين الصادقين والكاذبين. والفرق بينهما - مستفاد من الآية - بوجهين:

الأول: أن الصادق لا يتحدث عن نفسه، فلا يستطيع أن ينسى نفسه في أقواله وأعماله. وهذا الفرق من قوله تعالى: {إِلَى اللَّهِ}.

الثاني: أن الصادق يعتمد على الحجة والبرهان، فلا تجد في كلامه كذباً ولا تلبساً ولا ادعاءً مجرداً، ولا تقع من سلوكه في دعوته على التواء ولا تناقض ولا اضطراب. وأما الكاذب فإنه بخلافه: فإنه يلقي دعاويه مجردة ويحاول تدعيمها بكل ما تصل إليه يده، ولا يزال لذلك في حنايا وتعاريج لا تزيده إلاّ بعداً عن الصراط المستقيم. وهذا الفرق من قوله تعالى: {عَلَىٰ بَصِيرَةٍ} ¹.

ومن أظهر مظاهر الكذب في الدعوة إلى الله ما ينتهجه الكثيرون من الدعوة إلى أحزابهم باسم الدعوة إلى الله. وكأنما جعلوا الحزب هو الإسلام، وما خالفه فهو الباطل والخطأ. فهذا سلفي ظن منهج السلف حزبا وفرقة، فانبرى يُفسق هذا، ويُبدع هذا، ويكفر هذا، وذاك إخواني يرى في الأخوان الدين كله، وما خالفهم فهو بعيد عن أمر الله، وذاك تحريري وذاك صوفي، وكل حزب بما لديهم فرحون. وربما كان هذا الأمر هو أحد الأسباب الرئيسة التي جعلت بعض شذاذ الآفاق - الذين اخذوا يشتهرون بأفكارهم الجانحة إلى كل بدعة وشدوذ - يجدون لهم أنصارا من عوام المسلمين، الذين فقدوا الثقة بالجماعات والأحزاب المنتشرة على الساحة، وهو ما يستدعي من كل مسلم غيور على دينه بذل الجهد اللازم من أجل إعادة البوصلة إلى اتجاهها الصحيح، وتركيز الجهد على الدعوة إلى الله، ونبذ الدعوات الحزبية والفتوية.

والدعوة إلى الله ليست وظيفة إنسان دون إنسان، بل هي منهج أتباع الأنبياء، وهي في حق أمة محمد صلى الله عليه وسلم واجبة على كافة الأمة بحسب الحال والقدرة، ذلك أن الله أمر بما أمرنا فقال: [وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] [ال عمران 104]. وفي حديث أبي سعيد

¹ تفسير ابن باديس (في مجالس التنكير من كلام الحكيم الخبير) ص316.

الخدري قال: " سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيَعْبِرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أضعفُ الإِيمَانِ »¹.

والدعوة إلى الله فرض على الكفاية إن قام به البعض سقط عن الآخرين، إلا أنه قد يكون في حق البعض فرض على التعيين إن لم يوجد من يقوم به غيرهم. فالدعوة العامة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة أمر بها الله سبحانه كل مؤمن. أما إن كانت الدعوة في بيان الأحكام، وإقامة الحجة بالدليل والبرهان مما لا يقدر عليه إلا أهل العلم، فهي واجبة في حقهم على التعيين دون غيرهم. ومما يروى قول يُنسب إلى عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز أنهما قالوا: كونوا دعاة إلى الله وأنتم صامتون .. قيل وكيف ذلك؟ قال: بأخلاقكم². وكل وسيلة شرعية يُظهر فيها المسلم تعاليم دينه، وأثرها الحسن في السلوك البشري، وإرادة الخير، فهي واجب على كل مسلم.

أما التخصص في الدعوة، والدخول إلى دائرة أمة الدعوة إلى الخير، التي ورد لها الأمر " وَتُكْرَهُ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ"، فهذا يلزم منه تحصيل مقومات الدعوة المتخصصة، ولهذا جاءت نصوص الوحيين موضحة ذلك، فقال تعالى: [وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ] [التوبة 122]. قال الشافعي: " فأخبر أن النفير على بعضهم دون بعض، وأن التفقه إنما هو على بعض دون بعض"³. وكلا المسألتين في الآية موجبان للفعل كل على طائفة من الأمة، لما يتحقق ببذل كل فريق منهما نفسه وجهده لتحقيق

¹ صحيح مسلم 49

² لم أجد لذلك مرجعا أو سنداً سوى أقوال وردت على بعض السنة الوعاظ والخطباء من المتأخرين، وما نقلت ذلك لصحة سند أو مرجع، وإنما لصحة معناه أيا كان قائله.

³ تفسير الشافعي 961/2.

مقاصد الشريعة؛ بما يضمن رفعة الأمة وعزتها ومنعتها. فبالنفي يتحقق للأمة القوة والمنعة والعزة التي تمنع طمع الأعداء فيها، وبالعلم الشرعي يتحقق للأمة دفع الجهل ورفعة الأمة وسيادتها بما يصلح إدارة شأنها على نور من الله وبرهان، فيتحقق لها الكفاية في كافة شأن حياتها ودينها. قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: " ينبغي للمسلمين أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها، لتقوم مصالحهم، وتنم منافعهم، وتكون وجهة جميعهم، ونهاية ما يقصدون قصدا واحدا، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب، فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور"¹.

ولما كانت هذه المسألة من أهم قضايا الاسلام وبناء لبناته، وإقامة صرحه ودعائمه، فإنه لا بد من توضيح بعض المسائل التي لا غنى للمسلم عنها في فهم دوره ومكانه، وكذلك فهم شروط المهمة الملقاة على عاتقه، بعيدا عن التعصب لما هو عليه، أو الانحياز الى حزب أو فئة، بل الأصل فيه الانحياز الى الاسلام مجردا عن الأهواء والتبعيات الأخرى، التزاما بالكتاب والسنة، على فهم خير قرون الأمة الذين سبقونا بالايمان، وجاهدوا في الله نصره لدينه ورفعة لشأنه، فأقاموا للناس عدلا بعد جور، وعلما بعد جاهلية، وإيمانا بعد كفر، وحضارة بعد تخلف، وما نحن إلا مقتفون لآثارهم، مقتدون بما كانوا عليه من الهدى، طامحين الى الوصول الى ما وصلوا إليه، ولهذا فلا بد من تحديد مقومات الداعية كما جاءت بها النصوص.

¹ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ السعدي ص355.

مقومات الداعية

لم تكن الدعوة منذ بدأ الوحي في غار حراء أمراً اعتباطياً، وللمرء أن يتصور رجلاً منقطعاً على جبل أجرد في غار، يأتيه شخص غريب لا يعرفه، تظهر عليه معالم الصرامة والشدة، ثم يقول له إقرأ..!! قد تبدو المسألة للوهلة الأولى حدثاً عادياً، لكن في الحقيقة لا يمكن أن تكون كذلك، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فماذا يقرأ وكيف؟!!!

من البديهي في مثل هذه الحالة أن تكون الإجابة سريعة غير متأنية، فالإنسان أعلم بإمكاناته، وبدون أدنى تفكير كانت اجابة النبي صلى الله عليه وسلم ماأنا بقارئ، كان ظنه صلى الله عليه وسلم أن المسألة ستنتهي بمجرد إعلام الغريب بحقيقة أميته، ولم يكن يتوقع أن يحدث بعد ذلك شيء. ولكن الغريب أخذه حتى بلغ الجهد مبلغه وظن أنه الموت. أمام ما حدث كان لا بد من التأني والتفكير لأن ما سيترتب على الإجابة ألم شديد وجهد بالغ. كان الرعب قد بلغ من النبي صلى الله عليه وسلم أقصى مداه، فهو لا يدري ما هي غاية الغريب الشديد، وها هو يكرر الأمر؛ إقرأ.

الكلمة تتردد في حَلَد النبي صلى الله عليه وسلم آلاف المرات، بحثاً عن إجابة لا تكون نتيجتها التعرض للقسوة والألم الذي تسببت به الإجابة الأولى. ويزداد خفقان قلبه صلى الله عليه وسلم. كان ينظر الى وجه الغريب يطالع خلجات وجهه، أو ربما كان يستجديه أن لا يكرر ما فعل معه في المرة الأولى، أو ربما كان يرجو أن يفصح الغريب عن هدفه من الأمر دون تعريضه للأذى. لكن لم يلمح في وجه جبريل في تلك اللحظة أي نأمة من تأثر لحاله وما بلغ به من الخوف والجهد، كان فقط ينتظر إجابة أمره، فماذا عسى أن يجيب الأمي، ألم يكن جبريل عالماً بأمّيته، بلى فهو من نزل عليه بقول ربه سبحانه

فيما بعد [وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ] [العنكبوت 48]، ولما كان لا بد من الإجابة، ولا إجابة يجيبها محمد صلى الله عليه وسلم إلا إجابة واحدة إذ لا يوجد غيرها. ومحمد صلى الله عليه وسلم صادق أمين لا يعرف الكذب ولا يقدر عليه، فقال مرة ثانية: ما أنا بقارئ.

ويتكرر الألم ويغطه جبريل الثانية أشد من الأولى، ويكرر الأمر مرة ثالثة إقرأ. ويشند الهول أكثر وأكثر، فمتى يرحل الغريب؟! ولماذا يأتي؟! وماذا يقرأ النبي صلى الله عليه وسلم، وبدون أن يتوقع النبي صلى الله عليه وسلم مراد الغريب - الذي لم يصرح باسمه بعد - انسابت الكلمات على فم جبريل عليه السلام، كلمات تدل الضال إلى غايته، وتوضح الطريق للباحث عنها، [اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ] [العلق 1-5].

هكذا انجلت وتجلت أول حقائق الحياة الإنسانية السوية، علقه الدم التي استحالت من القذارة لتصبح إنسانا، يتلجلج في متاهات الحياة، يتخبط على غير هدى بعد أن خالف فطرته الإيمانية، سيعود من جديد ليمضي في طريقه التي أرادها الله على هدى من الله، وسيصحبه التوجيه والإرشاد بكلمات مولاه، إقرأ...!! لكنها ليست أية قراءة، إنها قراءة تحمل في ثناياها بذور التغيير، لن تشمئز أيها الإنسان من قذارة علقه الدم التي كنت عليها، فقد جاءتك كلمات ترفع من شأنك، وتغسل العلقه من أدرانها وشوائبها، لتستحيل إنسانا مكرما، يرفعك ربك سبحانه، [لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ] [الأنبياء 10]، سترتبط أسباب العلقه المستقدرة بمنع الطهارة والكمال، وستقرأ باسم ربه الذي خلق، وهكذا تتقرر الحقيقة الأولى، لتتضح معالم الصورة، فالإنسان إما مرتبط بالعليّ يقرأ باسمه فيرتقي الى معارج السمو والرفعة، وإما

أن يبقى مرتبطا بطينته الأرضية ومادة خلقته، فيبقى في الدونية، ولهذا جاءت الكلمات الإلهية لتوقظ الإنسان من وهمه، واستعلائه الأجوف لينظر حقيقة نفسه وسبيل رفعتها وسعادتها.

ولو تدبرنا فيما وردنا من النصوص التي وصف فيها النبي صلى الله عليه وسلم نزوله بعد رؤية جبريل عليه السلام على كرسي بين السماء والارض على هيئته التي خلقه الله عليها، ثم نزوله والبرودة تعتري جسده الشريف، ليصل البيت مرتعدا يردد زملوني زملوني ، دثروني دثروني، وفي أوج هذا الموقف يقتحم عليه جبريل هذه المرة أخص خصوصيته، ويدخل اليه الى مضجعه ومرقده، لا لمجرد القراءة أو الزيارة، بل للتكليف بالأمر، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يسبق له معرفة الوحي ولا الرسالات، والاسئلة تتطواح في رأسه صلى الله عليه وسلم، والاجابات ما زالت مبهمة.

وكما كانت الشدة في بدأ الوحي مع اقرأ وما صاحبها من الضم الشديد، جاء الوحي متنوعا بين الرقة والشدة، فأحيانا كان الوحي مخاطبة من وراء حجاب كما في الاسراء والمعراج وفرض الصلاة، وأحيانا في رؤيا المنام ومنه حديث ابن عباس رضي الله عنهما: **أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " أَتَانِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ اللَّيْلَةَ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ - أَحْسَبُهُ يَعْنِي فِي النَّوْمِ - فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ هَلْ تَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ الْحَدِيثُ¹.** ومنه ما كان نفثا في الروع كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: **قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يُقَرَّبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُبْعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ إِلَّا قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُقَرَّبُكُمْ مِنَ النَّارِ وَيُبْعِدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا قَدْ هَيَّئْتُكُمْ عَنْهُ، وَإِنَّ الرُّوحَ الْأَمِيرَ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ حَتَّى تَسْتَوِيَ رِزْقُهَا،**

¹ رواه احمد 3484، والترمذي 3233، وصحه الالباني في ارواء الغليل 684

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ ، وَلَا يَحْمِلْكُمْ اسْتِنَاطُ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعَاصِي اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ»¹.

وكان جبريل يأتيه على اشكال منها على صورة احد من اصحابه، أو رجل غريب، أو على هيئته الحقيقية، أو على شكل صلصلة الجرس كما في حديث عائشة عند الشيخين: أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ، فَيُقْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلِكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعْيِي مَا يَقُولُ» قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، فَيُقْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا².

ورغم كل ما ظل يعترى النبي صلى الله عليه وسلم من الشدّة مع نزول الوحي بالآيات، إلا أن هذه الشدّة يعقبها الراحة الطمأنينة. هكذا سيزول العنت والقلق والتوتر، ليحل مكانه الجهد الذي لا راحة جسدية فيه. بل بمقدار ما يكون عنت الجسد في سبيل الدعوة الى التوحيد - الذي هو مبدأ الأشياء وغايتها - ستكون الراحة الحقيقية، سكونية تملأ الجنان، وراحة تختلج الوجدان، وطمأنينة تسري في الجوارح والأركان. فبعد نزول الوحي أول مرة في الغار كما أسلفنا وقوله إقرأ، انقطع الوحي أياما ولأهل العلم في بدأ تاريخ نزول القرآن أقوال لم أقف على أسانيدها، وما ذهبوا إليه من أن القرآن نزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة في ليلة القدر ثم تتابع نزوله مفرقا ومنجّما، ولكن ما صح من الحديث يثبت أن نزول سورة المدثر كان بعد نهاية شهر رمضان مباشرة وذلك لما

¹ مصنف ابن ابي شيبة 34332، والبراز من رواية حذيفة 2914، وصححه الالباني في الصحيحة 2866

² متفق عليه، رواه البخاري 2، ومسلم 2333

أخرجه الشيخان من حديث جابر رضي الله عنه قال: " أَحَدَيْتُكُمْ مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " جَاوَزْتُ بِحِرَاءِ شَهْرًا، فَلَمَّا قَضَيْتُ جَوَارِي نَزَلْتُ فَاسْتَبَطَنْتُ بَطْنَ الْوَادِي، فَتَوَدَّيْتُ فَنظَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، فَلَمْ أَرْ أَحَدًا، ثُمَّ تَوَدَّيْتُ فَنظَرْتُ فَلَمْ أَرْ أَحَدًا، ثُمَّ تَوَدَّيْتُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا هُوَ عَلَى الْعَرْشِ فِي الْهَوَاءِ - يَعْنِي جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَأَحَدَيْتُنِي رَجْفَةً شَدِيدَةً، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ، فَقُلْتُ: دَثَّرُونِي، فَدَثَّرُونِي، فَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ } [المدثر: 2] ¹ ". ومن المعلوم ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يمكث بغار حراء شهرا كاملا، ولكن بعد نزول جبريل في المرة الأولى وقد قيل ان ذلك كان في الرابع والعشرين من رمضان²، نزل الى خديجة والقصة مشتهرة بذهاب خديجة معه الى ورقة بن نوفل، ثم عاد الى حراء مرة اخرى وكان الوحي قد فتر كما في رواية جابر، فرأى جبريل مرة أخرى عند نهاية رمضان أي بداية شوال كما هي عادته عليه الصلاة والسلام في ذلك الزمان، بمغادرة الغار بعد نهاية رمضان أي في صبيحة اليوم الاول من شوال، وهو اليوم الذي سيصبح عيد الأمة كلها الى قيام الساعة ويوم فرحها، إذ كان فيه الأمر بأن يصدع بالحق وينذر عشيرته الأقربين، وكأن الله سبحانه أراد أن يفهم المسلمون حقيقة ما أرسلوا به للناس من الخير، فجاء عيد الفطر في يوم الامر بإشاعة الخير ودين التوحيد بين الناس فعيد المسلم حينما يعمل على تبليغ رسالة ربه، وحينما يرتفع نداء التوحيد على الأرض التي استخلف فيها أوليائه ليعملوا وفق تعليماته وأوامره.

إن ما حددته آيات سورة المدثر هي خطوات العمل في كافة مراحلها، فإذا كانت النظريات العلمية الحديثة في فن إدارة العمل تقوم على وضع خطة العمل التي تحدد

¹ متفق عليه، البخاري 4922، ومسلم 161

² البداية والنهاية لابن كثير 16/4.

الاستراتيجيات العامة؛ سواء قبل البدء بالمشروع، أو الخطوات الأولية، ودراسة الواقع الذي سيقام فيه المشروع، ثم اللوازم والنتائج، فإن أكبر مشروع يمكن أن ينجزه الإنسان في حياته هو المشروع الذي يحقق له الربح الدائم، والسعادة المطلقة، وضمن عدم الخسارة. ولهذا فإن مشروع حياة الإنسان الأساس يجب أن يكون منصبا على الباقي لا على الفاني، وعلى الدائم لا الزائل، وعلى ما يحقق الربح الوفير مع ضمان عدم الخسارة، ليقود بالتالي الى تحقيق الراحة التي لا تعب معها. وهذا هو المشروع الدعوي الذي حملته سورة المدثر، والذي يجب على كل مسلم واع متدبر وحريص ان يفهمه ويعمل فيه.

فأول خطوة جاءت بنص القرآن للنبي صلى الله عليه وسلم منذ يا أيها المدثر أن اعقد النيّة بالعزيمة، لأن المهمة جسيمة تستلزم تحقيق ذاتك وأهليتك فيها؛ وذلك ببذل أقصى الجهد والطاقة، لتخرج للناس منذرا. وهذا الخروج لن يكون مجرد نزهة تحملك على أكف الراحة، بل هي عاصفة ستثيرها هوجاء، وتثور ضدك بعناد المعاندين، وبطش الجبارين، واستكبار المتكبرين، وتكذيب المكذبين، ثم فوق ذلك احتمال الأذى النفسي والجسدي الذي سينصب عليك وعلى السالكين لهذا الدرب.

وهكذا بكل وضوح جاء الأمر بالدعوة، لا على رغبة الداعي وتطلعاته، بل على مراد صاحب الأمر والتكليف، فهو الذي يحدد منهج الدعوة، وأسسها ومقوماتها وحتى أساليبها، [يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * فُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَمُنَّ تَسْتَكْبِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ] [المدثر 1-7].

وجاءت الآيات جامعة لما يلزم النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته، إنها مقومات الدعوة والداعية الذي سيقوم بالأمر وإن لم تتحقق فيه فلن يستطيع الاستمرار بها، ولا حمل

أعبائها. هكذا يأتي النداء لكل من أرادوا السير على هدى وبصيرة كما أمرهم الله، والنداء متكرر لازم لأصحاب الدعوات، مضى عهد النوم، وجاء الوقت الذي لا بد فيه من الحراك ليتحقق المراد من كافة جوانبه، كما قال الشافعي:

ما في المقام لذي عقلٍ وذو أدبٍ من راحةٍ فدع الأوطانَ واغترِبِ
سافر تجد عوضاً عمّن تفارقه وأنصب فإنّ لذيذ العيش في النَّصبِ
إني رأيتُ وقوفَ الماء يفسده إن سآح طابَ وإن لم يجِرْ لم يطبِ
والأسدُ لولا فراقُ الأرض ما افترتست والسَّهْمُ لولا فراقُ القوسِ لم يُصبِ¹

وهذا الحراك مرتبط بالمقصد، فكما أن المقصد تكليف رباني فوسائله ربانية، بمعنى أنه لا يصح منها إلا ما وافق الحق إذ الوسائل لها حكم المقاصد. فما أدّى إلى المشروع فهو مشروع، وما أدّى إلى المحرّم فهو مُحَرَّم، قال القرافي: " فكما أن وسيلة المحرم محرمة؛ فوسيلة الواجب واجبة كالسعي للجمعة والحج. وموارد الأحكام على قسمين: مقاصد؛ وهي المتضمنة للمصالح والمفاسد في أنفسها، ووسائل وهي الطرق المفضية إليها. وحكمها حكم ما أفضت إليه من تحريم وتحليل، غير أنها أخفض رتبة من المقاصد في حكمها. والوسيلة إلى أفضل المقاصد أفضل الوسائل، وإلى أقبح المقاصد أقبح الوسائل، وإلى ما يتوسط متوسطة"².

وكذلك الدعوة إلى التوحيد، فهي أعظم المقاصد وأجلّها وأشرفها، وعليه فلا شك أن الوسائل المستخدمة فيها ينبغي أن تكون متوائمة ملائمة لشرف المقصد، تستمد شرفها منه، ولهذا جاءت الآيات تحدد ما يلزم لتحقيق المقصد، فابتدأت بايضاح المسألة الأولى

¹ ديوان الشافعي ص 54-55

² الفروق للقرافي 451/2.

الا وهي: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، نداء للفرد للخروج عن خصوصية ذاته، ونزع أسباب الراحة للقيام بالجهد المتعدي الذات للغير بالدعوة والندير، ويلزم من ذلك أن يُعلم أن الأمر متعلق بالداعي والمدعو اليه والذين تُوجَّه اليهم الدعوة.

وأما الداعي فيلزمه ما وردت به الآيات، لا ينقص منها شيء إلا ترتب عليه خلل، ولذلك جاءت محددة وافية بالنص، ولم تُترك للاجتهاد. غير أن ذلك لا يمنع من توقُّر غيرها معها اجتهادا، شريطة أن لا تخالف النص والأصول التي جاءت بها الشريعة. ومن هنا جاء النداء للمدثر لا باسمه ولكن ملاطفة في الخطاب من الكريم إلى الحبيب إذ ناداه بحاله، وعبر عنه بصفته، ولم يقل يا محمد ويا فلان، ليستشعر اللين والملاطفة من ربه¹.

وقال ابن جزري: في ندائه بالمدثر والمزمل فائدتان:

إحداهما: الملاطفة فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب نادوه باسم مشتق من حالته التي هو عليها، كقول النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم لعلي: قم أبا تراب.

والفائدة الثانية: التنبيه لكل متزمل راقد بالليل ليتنبه إلى ذكر الله، لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه المخاطب وكل من اتصف بتلك الصفة².

ويكمل ابن جزري فيقول: " وفائدة ثالثة وهي أن العرب يقولون: الندير العريان، للندير الذي يكون في غاية الجد والتشمير، والندير بالثياب ضد هذا، فكأنه تنبيه على ما

¹ تفسير القرطبي 61/19

² التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزري 422/2.

يجب من التشمير"¹.

ومقصود الخطاب يا أيها المدثر، قم فأندِر، أمر بالتكليف بترك الدثار الذي يرمز للسكون والدعة والاشتغال بهذا المنصب الذي نصبه الله له. والأمر الأول بعد النداء "فَمُ فَأَنْدِرْ" فإذا ما أدرك الداعي أنه المقصود بالتكليف؛ وجب عليه توظيف الجهد كله للقيام به وتوجيهه إلى الجهة المحددة التي جاءه التكليف بها. وفيه فائدة أنّ من عرف أنه مقصود بالتكليف لم يجز له أن يتقاعس عنه وإلا أثم، وهو ما بيّناه من أن صاحب العلم والدعوة إن لم يوجد من يقوم بالدعوة وأعبائها غيره تصبح في حقه فرض عين يأثم بتركها وعدم القيام بها. والتكليف بالدعوة يستلزم من المكلف معرفة ما يدعو إليه على بينة من ربه. وقد بيّنا أن من أعظم ما يمكن أن تصاب به الدعوة في مقتل هو اتباع الهوى بحرف مسار الدعوة عن أصلها الذي ورد فيه النص لصالح مقاصد أخرى. ذلك أن الله سبحانه ومنذ اوائل الآيات بيّن الطريق بوضوح فقال: "وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ" فدلّ أن الداعي في دعوته تعظيم الله وحده إليه يدعو كما أمره الله تعالى، [كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُو عَلَيْنَهُمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ] [الرعد 30] وفي موضع آخر قال سبحانه: [قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ] [الرعد 36]. وعندما اختلط الحابل بالنابل، ووسّد الأمر الى غير أهله، وجدنا كثيرا ممن يتصدّر للدعوة قد حصر الدعوة في الإطار الذي هو فيه سواء كان مؤسسة أو حزبا أو تنظيما، وتصور أن الدعوة الى ذلك هي دعوة الى التوحيد، وما علم أن التوحيد يقتضي التجرد عن الاهداف الجانبية، واخلاص الدعوة الى لا إله الا الله محمدا رسول الله، فلا حزب ولا فئة، ولا طائفة ولا فرقة، ولا مذهب ولا تعصّب، بل تحقيق أفراد الله سبحانه بالأمر،

¹ التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي 427/2

وأن الكتاب الذي يعصم من الضلال هو كتابه، وأن الأمة أمة واحدة لا تنقسم وشائجها ولا تنفصم عراها بتحزبات وجماعات، بل المسلمون كل واحد، يذنبون ويستغفرون، ومن زاغ عن الحق أمره بالمعروف ونهوه عن المنكر، ومن دعا فيهم الى بدعة ردّوه عن بدعته بما عهد الله إليهم من الآيات وما جاءهم به النبي صلى الله عليه وسلم من البيّنات، وما دون ذلك فمردود. [إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ] [الانبياء 92]. وفي قوله: " وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ " قال الشوكاني: " واختص سيدك ومالك ومصلح أمورك بالتكبير، وهو وصفه سبحانه بالكبرياء والعظمة، وأنه أكبر من أن يكون له شريك كما يعتقد الكفار، وأعظم من أن يكون له صاحبة، أو ولد. قال ابن العربي: المراد به تكبير التقديس والتنزيه بخلع الأضداد والأنداد والأصنام، ولا يتخذ وليا غيره، ولا يعبد سواه، ولا يرى لغيره فعلا إلا له، ولا نعمة إلا منه"¹.

والفائدة الثانية مضمرة في أنّ من جاءه الأمر والتكليف بالدعوة إلى شيء وجب أن يقوم بنفسه به ضمنا وإن لم يأته الأمر بذلك، فكيف وقد جاءه الأمر ضمنا ونصا.

قال المتوكل الليثي²:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمَعْلَمُ غَيْرُهُ	هَلَّا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمِ
تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي	كَيْمَا يَصِحَّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمٌ
الضُّعَى وَتَرَكَ تُصْلِحُ بِالرَّشَادِ عُقُولَنَا	أَبْدَأَ وَأَنْتَ مِنَ الرَّشَادِ عَدِيمٌ
أَبْدَأَ بِنَفْسِكَ فَأَهْمَا عَنْ غَيْبِهَا	فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمٌ
فَهُنَاكَ يُقْبَلُ مَا تَقُولُ وَيُهْتَدَى	بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيُقْبَلُ التَّعْلِيمِ

¹ فتح القدير للشوكاني 388/5.

² شعر المتوكل الليثي ليجبي الجبوري ص 283-284.

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقِي وَتَأْتِي مِثْلَهُ عَارَ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ

وكأنما الخطاب الإلهي للنبي صلى الله عليه وسلم ومن سار على نهجه من اتباعه أنذروا أنفسهم وغيركم، إذ لا يتحقق المقصود من التكليف إلا بذلك.

ولكي يتحقق ذلك فلا بد من تعهد النفس ومراقبتها لتنضبط في إطار المهمة التي كُلفت بها، لا على هوى وتصوّر بشريّ قاصر عن إدراك مرادات الله سبحانه، وإنما على نور من الله وبصيرة. ولكي يتحصن المسلم من الزيغ والضلال ويصل إلى مراد الله سبحانه فلا بد من الاقتراب إلى حضرة الإنس والجلال، ولا يتحقق ذلك إلا بالمواظبة على المعية مع الله سبحانه. عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقول الله عز وجل: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَالٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَالٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شَبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»¹ وهذه المعية يترتب عليه عدة فوائد منها:

الفائدة الأولى: تربية النفس وترويضها على الطاعات واستقبال أمر الله بحضور القلب واستعداده للقيام به، ذلك أن الآيات دلّت على وجوب الذكر والعبادة، وزيادة اهل الدعوة في القربات، ليطمئنا من اجتهابهم الله سبحانه واصطفاهم ليكونوا على قدر الشرف الذي كلفهم الله به، ولذلك جاء الأمر الإلهي لمن قامت الدعوة على كواهلهم من اوائل المؤمنين بقوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * فُمِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا * وَادْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ

وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا * وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا [المزمل 1-10]. وفي زماننا أصبح الدعاة لا يكادون يتحركون لدين الله إلا بعد أن يُحدد لهم ثمن الجهد الذي سيبدلونه في الدرس والمحاضرة، ولا يقبل واحدهم أن يكون منامه اعتكافا في مسجد، بل لا بد من فندق بمواصفات عالية. ونحن لا نقول أن الداعية يجب أن يبقى فقيرا أو متطوعا للعمل والدعوة بلا أجر يُصَرِّف به أمور حياته، بل المقصود أن لا يجعل الداعية حراكه في سبيل الله مرتبط بالرفاه وفتات الدنيا، وأن يكون يقينه أنه إنما يعمل عند الله، وأن الله هو الرزاق الذي يكافئه على عمله وجهده.

ولقد رأينا أشبع صور استغلال الدعاة من قبل بعض المؤسسات الإسلامية في الغرب، وذلك عبر استغلال حاجتهم وتوجيههم لتمرير مشاريع هذه المؤسسات عبر دعاة دفعتهم الحاجة الى مثل هذه المؤسسات وأساطينها الذين ما رعوا في هؤلاء الدعاة إلا ولا ذمة، ولو خرجوا عما ذهبت اليه أهواء إدارات المؤسسات الى صحيح الدليل وراجحه مما يخالف سياسة الجمعيات والمؤسسات لألقوا بهم وتخلوا عنهم، لأنهم إنما أرادوهم العوبة في أيديهم ينفذون أجنداتهم ومصالحهم، فباء هؤلاء الدعاة بخسارتين؛ حيث فقدوا ثقة الناس من جانب، وخسروا صدق دعوتهم إذ تحولت مطلبا دنيويا بعد أن كان مقصدها الآخرة. ومن هنا جاء النداء الإلهي بتثبيت العلاقة مع الرب سبحانه فهو كاف عبده، ثم الاستعانة بذكره وعبادته على مسائل الحياة وما تتسبب فيه من ضيق للمؤمن قال تعالى: [وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ] [الحجر 97-99].

ولا يستقيم حال من جاء يدعو لعبادة الله وذكره في الوقت الذي نقصت عبادته وقل

ذكره، بل جعل الله سبحانه كثرة العبادة والذكر صفة لازمة من صفات الناجحين من أهل الإيمان فقال سبحانه: [إِمَّا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ] [السجدة 15 - 16].

الفائدة الثانية: الثقة بنصر الله: وذلك أن وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ تقتضي اليقين عليه، والثقة بقدرته جلّ وعزّ ومن فوائد ذلك:

1. إدراك سنة الله في كونه، وأن كل كبير مآله الفناء الا الكبير المتعال سبحانه، فالشجرة إن طال عليها العمر يبست وجفت وصار مآلها القطع لتكون وقودا ونارا، والثمرة إن كبرت ولم تقطف وقعت على الأرض ونخر الدود فيها، والإنسان إن هرم عاد إلى بداية منشئه ضعيفا لا يقوى على شيء، [وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ] [النحل 70].

2. أن الضعيف إذا لازم القوي استقوى به، والصغير إن لازم الكبير كبر به، والدليل ان صاحب العزيز ولازمه عزّ به، فهو بذلك لا يخاف غائلة ولا بطشا، وهذا ما علمه النبي لأصحابه رضي الله عنهم وأمتهم من بعده، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كُنْتُ حَلَفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَقَالَ: «يَا عَلَامُ إِبْنِي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ، أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، أَحْفَظِ اللَّهَ بَحْدُهُ بُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ

عَلَيْكَ، زُفَعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَعَّتِ الصُّحُفُ»¹.

ولهذا كان من عظيم آيات الله عندما ادلهمت الخطوب، واشتد الإيذاء في مكة وخارجها، بعد أن أغرى سفهاء الطائف من علية القوم أطفالهم برجم النبي صلى الله عليه وسلم بالحجارة حتى أدموه بأبي هو وأمي، فأكرمه ربه سبحانه برحلة اليقين الذي يتطرق اليه احتمال الشك بالاسراء والمعراج، فقد كانت رحلة عبر فيافي الارض وجبالها ووديانها الى بيت المقدس ومنها العروج الى السماوات العلى ومنها الى سدرة المنتهى، وللقارئ أن يتصور عظيم ما رأى النبي صلى الله عليه وسلم من ملكوت الله وعظمة ملكه. فإن كانت الشمس اكبر من الارض بمقدر 1.3 مليون مرة والناظر من الارض الى الشمس يراها بحجم لا يتعدى حجم رغيغ الخبز العربي، فتخيل لو نظر رجل من عند الشمس الى الارض فكم يراها؟!!!

هكذا تتجلى حقيقة الأمر الإلهي وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ، فحتى تتوفر لك القوة اللازمة للإحتمال فلا بد أن تربط أسبابك بأسباب القوة الحقيقية، والقادرة على منحك الطمأنينة والثقة بالنصر، رغم ما ستواجهه من الأهوال والأذى والصعاب. فإذا ارتبطت بربك فكبره فهو أكبر من كل كبير، وهو القاهر لكل كبير ومستكبر، لذلك كان من مشيئته تعالى أن يُري نبيه صلى الله عليه وسلم حقيقة القوى الأرضية مهما بلغت أمام عظمة الملكوت الإلهي والقدرة المطلقة التي لا حد لها، فيستصغر كل جبار، ويستخفّ بكل طاغوت.

وإذا كانت هذه العظمة الإلهية المطلقة عماد الدعوة وأساسها، وهي التي تكلاً الداعية وترعاه، فلا بد أن النصر حليفه طال الزمن أم قصر. وهو نفس ما بثه الله سبحانه من الطمأنينة في نفس موسى إذ قال: [قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي

¹ رواه احمد 2669، والترمذي 2516، وصحه الالباني في المشكاة 5302

وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ [الشعراء 12 - 15]. وكما نجي الله موسى من بطش فرعون، فقد نجي أهل طاعته من المرسلين والدعاة قال سبحانه: [ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ] [يونس 103].

الفائدة الثالثة: طهارة القلب والجوهر: إن من لازم الصلة بالكبير أن تلبس الثوب الذي ألبسك إياه، فهو ثوب الكرامة والاصطفاء، ومن لبسه عليه أن يحقق شرطه بالقيام بواجب التكليف على الشكل الأكمل والأمثل، فثوب النبوة والدعوة دعوة للطهارة والنقاء، ومن دعا للطهر والنقاء الأكملان الأتمتان المتمثلان بكلمة التوحيد الصافية النقية، فلا بد أن يلبس نقاءها وطهرها بتطهير المظهر والجوهر، فلا بد من متابعة الذات وطهارتها ونقاؤها خوفا من ان تلوث ظاهرا أو باطنا، فيصلح منها كل انحراف ليبقى العمل صالحا في ذاته صالحا في القائم به، قال الالوسي: " إن أول ما يجب معرفة الله تعالى ثم تنزيهه عما لا يليق بجنابه والكلام عليه من باب: إياك أعني واسمعي يا جارة وقد يقال: لعل ذكر هذه الجملة كذلك مسارعة لتشجيعه عليه الصلاة والسلام على الإنذار وعدم مبالاته بما سواه عز وجل حيث تضمنت الإشارة إلى أن نواصي الخلائق بيده تعالى وكل ما سواه مقهور تحت كبريائه تعالى وعظمته، فلا ينبغي أن يهرب إلا منه ولا يرغب إلا فيه فكأنه قيل قم فأندر واحصص ربك بالتكبير فلا يصدّك شيء عن الإنذار فتدبر. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ تطهير الثياب كناية عن تطهير النفس عما تدم به من الأفعال وتهذيبها عما يستهجن من الأحوال لأن من لا يرضى بنجاسة ما يماسه كيف يرضى بنجاسة نفسه يقال: فلان طاهر الثياب نقي الذيل والأردان إذا وصف بالنقاء من المعاييب ومدانس الأخلاق"¹.

¹ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للالوسي 130/15-131.

ولكي يتحقق الأثر والثمرة فلا بد من مفارقة كل ما يمكن أن يؤثر على هذا النقاء في الدعوة والداعي بهجران الرجز وأهله " وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ " وهجران الرجز قد يستدعي التخلي والبراءة من أقرب المقربين إن رفض طهارة التوحيد وأصر على خبث الكفر والشرك، ليس هجران في المبيت والسكن بل هو هجران للباطل وتأثيراته في كافة جوانب الحياة حتى في المجالس والمجاملات، قال تعالى: [وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِينَكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ] [الانعام 68]. ومن جميل الوصف لحقيقة هجران الرجز ما ذكره سيد قطب من أنه لا بد من وجود طبيعة تعزم بصدق، وتمضي في الطريق الدعوة. تمضي في خضم الجاهلية الضاربة الأطناب في أرجاء الأرض جميعاً. تمضي وهي تزاوّل نوعاً من العزلة من جانب، ونوعاً من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة. وهي تعرف معالم طريقها وتعرف طبيعة دورها، وحقيقة وظيفتها، وصلب غايتها. ونقطة البدء في الرحلة الطويلة .. كما تعرف منها طبيعة موقفها من الجاهلية الضاربة الأطناب في الأرض جميعاً. . أين تلتقي مع الناس وأين تفترق؟ ما خصائصها هي وما خصائص الجاهلية من حولها؟ كيف تخاطب أهل هذه الجاهلية بلغة الإسلام وفيم تخاطبها؟ ثم تعرف من أين تتلقى - في هذا كله - وكيف تتلقى؟ وأن هذه المعالم لا بد أن تقام من المصدر الأول لهذه العقيدة. القرآن. . ومن توجيهاته الأساسية، ومن التصور الذي أنشأه في نفوس الصفوة المختارة، التي صنع الله بها في الأرض ما شاء أن يصنع، والتي حولت خط سير التاريخ مرة إلى حيث شاء الله أن يسير¹.

فاتصال الداعية اتصال دعوة، وانفصاله عن المجتمع انفصال عن القيم التي تخالف دعوته؛ درءاً لمفسدة الوقوع فيها، وهو ما قاله شعيب عليه السلام: [قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ

¹ معالم في الطريق لسيد قطب ص14

إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ [هود 88].

ولتتكمّل صورة التكليف ومعطياته وآثاره بوجه الرب سبحانه النبي صلى الله عليه وسلم إلى مسألة من أهم المسائل، إذ أن دوام الأحوال من المحال، وأن الابتلاء صنفان إما بشرّ أو بخير، كما قال تعالى: [كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْحَيْرِ فَتْنَةً وَاِلَيْنَا تُرْجَعُونَ] [الانبيا 35]، وهو ما حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث عمرو بن عوف أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ، يَأْتِي بِجَزْيَتِهَا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ صَاحِبَ أَهْلِ الْبَحْرَيْنِ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمُ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ، فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ، فَسَمِعَتِ الْأَنْصَارُ بِقُدُومِهِ، فَوَافَتُهُ صَلَاةَ الصُّبْحِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ تَعَرَّضُوا لَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ رَأَوْهُ، وَقَالَ: «أَطْنُكُمْ سَمِعْتُمْ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِشَيْءٍ» قَالُوا: أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَأَبْشِرُوا وَأَمَلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَحْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَحْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِيكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ»¹

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم الرحمة المهداة والنور الذي سيضيء طريق الناس الى السعادة الأبدية، فهو صاحب أعظم عطاء إذ لا عطاء أعظم ولا أفضل من عطاء تكون نهايته الجنة، ولربما اغتر الإنسان بنتيجة عمله وما ساقه الله على يديه من فضل على الناس، فيستعلي بعمله ويتناول بما من الله به على الناس على يديه، فجاء النهي

¹ متفق عليه، الجمع بين الصحيحين 697، صحيح البخاري 4015 و 6425، وصحيح مسلم 2961

لصاحب الدعوة عن المنّ بما اجراه الله من خير هداية الناس ببلاغه، فالفضل لله يهدي من يشاء، [إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ] [القصص 56]، [وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ] [يونس 99 – 100]، فالفضل كله لله، وبمشتته يكون الخير كله، وصح عن تميم الداري، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَثْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدْرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بَعَزَّ عَزِيْرٌ أَوْ بَدَلٌ دَلِيلٌ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَدُلًّا يُدِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ "1.

ومن طبيعة البشر أن يردّوا الفضل بالفضل – إلا من خبثت طينته – خشية أن يتناول عليهم أحد بالمنّ حتى إن الفقير ليأبى الصدقة مع شدة حاجته إليها ممن عُرف عنه المنّ، فقد حذر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يمنّ على الناس أو يتطلع إلى أن يردوا له الاحسان بالإحسان، فصاحب الدعوة لا يطلب رجاء، ولا ثنا [يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ] [هود 51] فلا طلب للمال ولا الجاه ولا السلطان، «وَلَا تَمُنُّنَّ تَسْتَكْتِرُونَ» فالاستكثار فقط للأجر الذي وعد به الله، من خلال التقرب لله سبحانه بأنواع الطاعات والقربات، فإذا ما ابتليت وضاق صدرك واشتد الأذى فليس لك إلا الصبر، «وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ» وهذا ما أبلغ به الله نبيه صلى الله عليه وسلم لأنه سنة من أرسل من قبله من الرسل [وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيٍّ الْمُرْسَلِينَ] [الانعام 34]. وسيكون ما واجهه الرسل عليهم صلوات الله مثالا لما سيواجهه النبي صلى الله عليه وسلم وأهل الدعوة من أمته، [لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ

¹ أخرجه احمد 16957، وابن حبان

وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا
وَأِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ [ال عمران 186]. والصبر لازمة من
لوازم الدعوة إلى الله، وضمان لاستمرار الداعية في دعوته، وإلا فما قيمة دعوة لا تبلغ
عند اتباعها الايمان والقناعة ببذل الغالي والنفيس رفعة لها، وعملا لانتشارها، ولهذا وجه
الله سبحانه الأنظار إلى أن هذه الدعوة تتطلب من الانسان بيع نفسه وماله في سبيل
دينه فقال سبحانه: [إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى
بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِّبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ] [التوبة
111].

معالم أساسية في دعوة الرسل

إن المعلم الأساس في دعوة الرسل جميعهم هو التوحيد، [وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ] [الانباء 25]. ولا يجوز بحال من الأحوال الانحراف عنه، أو المهادنة والتهاون فيه لأي عذر من الأعذار. والتوحيد هو رأس الأمر كله، تجب الدعوة اليه في البلاد التي لا تدين بالاسلام، وتقديم الدعوة اليه على الدعوة الى فروع الاسلام وأحكامه. عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذًا رضي الله عنه على اليمن، قال: «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ حَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرْذُ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا، فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ»¹.

ومن العجب ما ذهب اليه البعض من جعل الإسلام مجرد منظومة أخلاقية يدعو إليها في مجتمعات لا تدين بوحداية الله، او بين أقوام اختلط عندهم الشرك بالتوحيد. وقد انحرف البعض عن منهج الرسل ظنا منهم أن ما يفعلون من الترويج فقط لفكرة التعايش وعلاقة المسلم بغير المسلم، وجعل هذا الأمر أولى الاولويات هو من شنيع الخطأ، وليس هذا إلا ظنا منهم أنهم بهذا ينشرون صورة ايجابية لمؤسساتهم تجعلها مقبولة لدى المؤسسات الحاكمة في الدول الغربية وبالتالي يتسنى لهم الظهور كمثلين للمسلمين. وحقيقة الأمر أن هذا اللبس الذي وقعوا فيه وأوقعوا فيه المسلمين ليس هو حقيقة الإسلام وقوامه، فأعمدة الإسلام وأركانه قائم على خدمة الهدف الاساس الذي وجدت

¹ متفق عليه، رواه البخاري 1458، ومسلم 19

البشرية والكون كله لأجله ألا وهو توحيد الخالق، مدار الدعوة هو تعبيد الناس لربهم بالدعوة الى توحيد، ثم يضاف الى ذلك فروع التوحيد. ذلك أن الأخلاق في الاسلام لا تقف عند الحدود التي وقف عندها غير المسلمين في تعريف الأخلاق؛ على اعتبار أنها مجموعة من القواعد والنظم التي تنظم وتضبط السلوك الإنساني مما تعارف عليه الناس في مجتمع ما. ومعنى هذا أن هذه القواعد والنظم تتغير بتغير المجتمعات والبيئات، فكل حُلُق مبني عندهم على استحسان الناس واستقباحهم له. بينما المسلم يصدر في أخلاقه وافعاله وسلوكه الى منهج وضعه الله سبحانه لا يتغير بتغير المجتمعات وآرائها وتغير قيمها. فالمسلم يستشعر رقابة الله عليه في أفعاله وأقواله وتصرفاته ونياته. ولهذا جاء النص القرآني واضحا بقوله تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ] [فصلت 30].

إذا كان الحُلُق المنتشر مُنافٍ للتوحيد، وأصبح اعتقادا عاما لكافة أفراد المجتمع، كانت الدعوة الى تصحيحه متلازمة مع التوحيد، كما ذكر الله سبحانه في قصة لوط وشعيب. فلم يكن فعل قوم لوط فعلا مقتصرًا على مجموعة من أفراد المجتمع، بل هو سلوك عام، يفعلونه رجالهم، وتقبله نساؤهم. ومجرد القبول بالفعل حتى مع عدم ممارسته هو إعلان بقبوله، والرضا به كسلوك عام غير مستنكر وغير قبيح يعني التواطؤ عليه. ولهذا جاء العقاب عاما لمن فعل، ولمن لم يفعل؛ لمجرد القبول به واستحسانه. وكذلك قوم شعيب في تجارتهم. أما أن يقبل الداعية ما عليه القوم من شرك دون التعرض لدعوتهم للتوحيد، واقتصار دعوته على منظومة الأخلاق المتفق عليها بين المسلمين وغير المسلمين، كنبذ الكذب والغش والسرقة وتعاطي المخدرات على الرغم ان الخارجين عن هذه المنظومة الاخلاقية قلة قليلة، فهذا معناه زيغ عن طريق الدعوة وإقامة دعائمها على غير دعوماتها الاساسية التي لا تقوم الا بها.

وفي الغرب فتحت السلطات بابا للمؤسسات الدينية على اختلاف أديانها من الدعم المادي، وأغرقت بالمال كل سائل من هذه المؤسسات للقيام بالانشطة والفعاليات، وظن هؤلاء في غمرة غفلتهم وطمعهم أن هذا الباب من المساعدات والدعم هو منحة كريمة، وان هذا الدعم لتشجيعهم على اقامة المشاريع الداعية الى الاندماج، ولما كان الاندماج مطلب رسمي وغير رسمي للمجتمعات بكافة مكوناتها؛ فلم يكن ذلك مستغربا. ولكن اتضح الصورة من خلال السياسات العامة تجاه بعض القضايا التي قررتها الحكومات، وثبت بما لا يدع مجالا للشك أن هذه المساعدات لها ثمن باهظ. فكل من خالف توجهات الحكومات تجاه بعض القضايا التي اخذت تنفسي في المجتمع كزواج المثليين منعت عنه هذه المساعدات. واضطرت الكنائس - الا فيما ندر- الاعلان عن موافقتها على زواج المثليين خوفا من ان تقطع عنها المساعدات.

وأما المؤسسات الاسلامية وقياداتها وان كانت لا تستطيع القبول بعقد مثل هذه العقود لأن ذلك سينعكس سلبا على علاقتها بالجمالية المسلمة، خصوصا أنها أساسا لا تحظى حاليا بالقبول كما كانت في بدايات عملها - لما رأى الناس منها من عدم الشفافية، والتفرد، وفرض سياسة الامر الواقع على الجمالية، ومحاولة إجبار الجميع على اتباع ما تعلنه من الاراء - فلم تعمل كما عملت الكنيسة، ولكنها وعبر بعض تصريحات قياداتها أخذت منحى جديدا، اذ أصبح البعض يؤولون النصوص لتتوافق مع ما تحاول حكومات الغرب فرضه من قيم، فأعلن بعض المسلمين أن مسألة المثلية والردّة هي شأن شخصي، وأنه لا يحق لا لحاكم ولا أي مجتمع التدخل في خصوصيات الافراد، أو اجبارهم على ما لا يريدون. وراحوا يحتجون بآيات يضعونها في غير مواضعها ومن ذلك قوله تعالى: [وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ

مُرْتَفَعًا [الكهف 29]. ويحتجون بذلك على الحرية المطلقة لافراد المجتمع المسلم في الردة وتبني ما شاءوا من الافكار، وممارسة ما شاءوا دون سلطان يردعهم أو قانون يمنعهم.

إذن فالمنظومات الاخلاقية التي لا تستند إلا الى أعراف وعادات تتغير بتغير الزمان والمكان والاجيال، ليست هي منهج الدعاة، ولا هي منه. إذ قوام الاخلاق في الاسلام بناؤها على أفراد الله سبحانه بالعبودية، والاخلاق خادم لهذا الغرض، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ] [فصلت 30]. الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعلب¹.

وفي الحديث عن سفيان بن عبد الله الثقفي، قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ - وَفِي حَدِيثِ أَبِي أُسَامَةَ غَيْرِكَ - قَالَ: " قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، فَاسْتَقِمَّ"². ولم يكن سؤال سفيان بن عبد الله الثقفي مجرد سؤال عابر لزيادة المعرفة، او تحصيل ثقافة عامة، بل كان بحثا عن شمولية الإسلام وتركيزها في مسألة تختصر البحث وأساليبه. قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك، أو أحدًا غيرك؟ وكأنما يقول اختصر لي الاسلام في جملة. وجاءت الجملة شاملة جامعة مانعة، قل ربي الله. ولما كانت النفس البشرية لها نزعات في التعامل مع الأمر والنهي، تريد أن تروغ منها كما يروغ الثعلب، فقد حدد النبي صلى الله عليه وسلم منهجا واضحا في ثبوت المعنى للتوحيد، تأكيدا على مصداقية القول ورسوخ معناه، وذلك بظهور الدليل الحسي في السلوك؛ ثم استقم. فالاستقامة ليست مجرد سلوك مستقل بذاته عن السلوك

¹ معالم التنزيل في تفسير القرآن للبخاري 132/4.

² رواه مسلم 38

القلبي المتمثل بالاعتقاد بتوحيد الخالق وما يتفرع عن هذا الايمان من صفات الخالق سبحانه، والتي تشكل ضوابط للسلوك البشري لكل مؤمن.

المرأة - تلك الحقيقة الإيمانية -

ظن الكثيرون ممن اتخذوا دائما موقفا عدائيا من الإسلام؛ انهم بإثارة شبهاتهم حول المرأة في الإسلام سيصيبون الاسلام في مقتل، وذلك من خلال الترويج لفكرة ما يفرضه الاسلام على المرأة من قيود في لباسها، وتعاملاتها، وعلاقتها بالجنس الآخر. إلا أن هؤلاء ردّ الله كيدهم في نحورهم وانقلبوا بغيظهم لم ينالوا خيرا، ذلك أن هجمتهم هذه انقلبت على عكس ما أرادوا. وفي بحث السيد M. A. Kevin Brice من جامعة Swansea البريطانية بخصوص القضايا الإيمانية قال بأن معتنقي الاسلام في بريطانيا والذين بلغ عددهم الى 100,000 او اكثر في العام 2010 م يتوزعون على النحو التالي:

56% من العرق الابيض البريطاني .

16% من العرق الابيض من خارج بريطانيا.

29% من غير البيض.

واضاف بأن الغالبية العظمى من المعتنقين للاسلام هم من النساء حيث بلغت نسبة النساء اللاتي اعتنقن الاسلام من مجموع معتنقي الاسلام في بريطانيا 62%.¹

وليس هذا الامر مقتصر على بريطانيا، بل في كافة اقطار العالم الغربي والشرقي. وهو ما يعدّ اكبر ضربة للمهاجرين للاسلام وقيمه السامية خصوصا فيما يتعلق بالمرأة.

والحقيقة المرة في واقع الحال في الغرب ليست في هذه الهجمة الاعلامية الشرسة التي

¹ <https://faith-matters.org/images/stories/fm-reports/a-minority-within-a-minority-a-report->

[on-converts-to-islam-in-the-uk.pdf](https://faith-matters.org/images/stories/fm-reports/a-minority-within-a-minority-a-report-on-converts-to-islam-in-the-uk.pdf)

يتعرض لها الإسلام، ولا في القصور الاعلامي للإعلام الإسلامي والعربي في التصدي هذه الهجمات. بل المصيبة الأكبر هو في بعض من تصدّر للدعوة والقيام على شأن المسلمين في الغرب. فكثير من هؤلاء - في ظل اتهام المسلمين بالتطرف والراديكالية وأنهم يشكلون خطرا على قيم المجتمعات الغربية - بدأوا يحاولون نشر فكر أكثر انفتاحا بزعمهم على الواقع الغربي متماشيا - على حد تعبيراتهم - مع فقه الواقع، ليكون الاسلام مقبولا للمجتمعات الغربية. ومن أمثلة ذلك تصريحات غير مسؤولة لبعض من يحسبون على بعض المؤسسات الاسلامية الكبرى، ومن ذلك اجابة احدى الناشطات المسلمات على سؤال حول تمييز الذكر عن الأنثى في الميراث بأن الانثى لا تأخذ الا نصف ما يأخذ الذكر فقالت: نحن نناضل من أجل تغيير هذا القانون. وفي تصريح لأحد طلبة العلم الشرعي من العاملين في حقل الدعوة من التابعين لأحد كبريات المؤسسات الاسلامية في سؤال حول موضوع الحب في الاسلام - نظمته احد الجمعيات العلمانية العربية، وبحضور شباب وفتيات من الجنسين ما بين 18 - 30 عاما - حول جواز اقامة علاقة حب بين الشاب والفتاة قبل الزواج؟ فأجاب قائلا: انا شخصيا تزوجت بعد علاقة حب مع زوجتي. وخطورة ذلك أن هذا الكلام نُشر في صحف يتداولها الناس ولم يكن مقتصرًا على من سمعه في قاعة المحاضرة.

لا شك ان الحب مسألة ذات أهمية بالغة ما بين الزوج والزوجة، ولكن في اطار الحدود الشرعية وضوابطها. فلم يمنع الاسلام الميل القلبي والعاطفة والحب، ولكن في اطار ما شرعه الله سبحانه، فقد اخرج عبد الرزاق عن ابراهيم بن ميسرة قال: حَطَبَ رَجُلٌ شَابًا امْرَأَةً قَدْ أَحَبَّتهُ، فَأَبَوْا أَنْ يُزَوِّجُوهَا إِيَّاهُ، فَسَأَلْتُ طَاوُسًا، فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَمْ يُرَ لِلْمُنْحَابِّينَ مِثْلُ النِّكَاحِ»، وَأَمَرَنِي أَنْ أُزَوِّجَ¹.

¹ مصنف عبد الرزاق 151/6 حديث رقم 10319 وصححه الالباني في السلسلة الصحية 196/2 حديث رقم 624

وفي أحكام الكلام مع المرأة الاجنبية بكرة كانت او ثيبا تفصيل في كتب الفقه لا حاجة بنا اليه هنا، إلا أن إطلاق المسألة أمام الأغرار خروج عن مقاصد الشرع، ومخالفة للأوامر والنواهي، وفتح لباب المفساد، خصوصا في مجتمعات تنتشر فيها الإباحية والزنا بلا وازع ولا رقيب. وفي مثل هذه التصريحات انحراف عن قيم الاسلام ومثله العليا، وإفساد للمجتمع المسلم الذي يقوم بناؤه على الطهارة في كل مسأله.

ورغم ما حملته وسائل الإعلام المرئية والمسموعة عبر برامجها الممنهجة للليل من الاسلام وإضفاء صورة قائمة على تعامله مع المرأة، إلا أن المرأة حينما تمنع النظر في كتاب الله، وتتلو آياته تقف مبهورة أمام عظمة تعاليم الاسلام، ونقاء وطهارة الصورة التي أرادها الاسلام للمرأة. ومن أوائل ما ستلاحظه المرأة عند تلاوة سور القرآن الكريم عندما تناول قصة آدم وأكله وزوجه من الشجرة، رغم اشتراكهما في الفعل إلا أن القرآن جعل اللوم في مخالفة الأمر على الرجل لا على المرأة. وهو ما يظهر في قوله تعالى: [فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى * فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى] [طه:117-122]، وهذا بخلاف ما جاء في العهد القديم والجديد من نسبة الخطأ للمرأة وكأنها هي أساس انحراف الرجل وخطئه، « فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلْأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهْجَةٌ لِلْعُيُونِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَأَكَلَ. فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُزَيَانَانِ. فَحَاطَا أَوْرَاقَ تَيْنٍ وَصَنَعَا لَأَنْفُسِهِمَا مَازِرًا. وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الْإِلَهِ مَا شَيْئًا فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاجْتَبَأَ آدَمُ وَأَمْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الْإِلَهِ فِي وَسْطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. فَنادَى الرَّبُّ الْإِلَهِ آدَمَ

وَقَالَ لَهُ: «أَيْنَ أَنْتَ؟ فَقَالَ: «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَحَشِيتُ، لِأَنِّي عُرْيَانٌ فَاحْتَبَأْتُ. فَقَالَ: «مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لَا تَأْكُلَ مِنْهَا؟ فَقَالَ آدَمُ: «الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ. فَقَالَ الرَّبُّ الْإِلَهُ لِلْمَرْأَةِ: «مَا هَذَا الَّذِي فَعَلْتِ؟» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: «الْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ. فَقَالَ الرَّبُّ الْإِلَهُ لِلْحَيَّةِ: «لَأَنَّكَ فَعَلْتِ هَذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ. عَلَى بَطْنِكَ تَسْعِينَ وَتُرَابًا تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. وَأَضَعُ عِدَاوَةً بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكَ، وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ. وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: «تَكْثِيرًا أَكْثَرَ أَتْعَابُ حَبْلِكَ، بِالْوَجْعِ تَلِدِينَ أَوْلَادًا. وَإِلَى رَجُلِكَ يَكُونُ اسْتِيْقَافُكَ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكَ. وَقَالَ لآدَمَ: «لَأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ فَإِنَّا: لَا تَأْكُلُ مِنْهَا، مَلْعُونَةُ الْأَرْضِ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. وَشَوْكًا وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحُقْلِ. بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ حُبْرًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لِأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ»¹.

ولو نظر الإنسان الى سور القرآن لوجد فيه تكريما للنساء بشكل غير مسبوق، ومن ذلك تخصيص سورة كاملة باسم النساء، وكما ذكر الانبياء وقصصهم ذكرت قصة امرأة عمران، ومريم، وبعض قصص النساء على سبيل التكريم. بل من أجل المعاني وأعظمها أن جعل الله المرأة مثلاً لأهل الايمان وأهل الكفر، وأن العبرة بالإيمان لا بالنسب فقال سبحانه: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ [التحريم 10]. فلم يشفع لامرأة نوح وامرأة لوط نبوة زوجيهما، ولم يمنع نزول العقاب بهما رابطة الزواج أو النسب، بل اتضح من المثال حقيقة الإيمان المتمثلة بالاختيار

الشخصي الحر والمطلق. فالأنبياء على عظمة قدرهم ومكانتهم في دين الله سبحانه لم يُجبرا زوجتيهما على اعتناق ما يدعوان اليه إجباراً، وكذلك الاسلام لم يأت بنص فيه إجبار لأحد على الدين، ولهذا جاء الأمر الإلهي للنبي صلى الله عليه وسلم بتخيير أزواجه قائلاً: [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أُجْرًا عَظِيمًا] [الاحزاب: 28-29]. وليس في الأدلة دليل أوضح وأحكم من أمر الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم بتخيير النساء بين اختيار الالتزام الكامل بما يعود بالخير عليهن في الآخرة وديمومتها، أو اختيار زينة الحياة الدنيا وعاجل متعتها، وذلك لضمان سلامة الأسر وبيان الحال الذي يرضى عنه الله فيها.

إلا أن مطلق الحرية في اختيار العقيدة لا يعني أن يقبل المسلم لنفسه ولأهله الشر في دنياهم أو عاقبة أمرهم. ولذلك جاءت دعوة الإسلام للرجال والنساء على حد سواء أن يحسنوا الإختيار، لبناء البيت على أساس سليم من العقيدة والأخلاق والقيم. فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " تُنكحُ المرأةُ لأربعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرَبَّتْ يَدَاكَ " ¹. وكذلك أمر المرأة ووليها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدِينَهُ فَرَوْجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ» ². وهذا البناء الأسري بحسب التوجيه النبوي ضمان للنشئة الصالحة لثمرة الزواج، وهو ما تضمنه الآيات، فمن الملاحظ أن قوله سبحانه امرأة نوح وامرأة لوط دل على الزوجين معا لغاية ومقصد، فالزواج له ثمرة اتضحت من خلال الآيات فقد

¹ متفق عليه، البخاري 7/7 حديث رقم 5090، ومسلم 1086/2 حديث رقم 1466

² ابن ماجة 632/1 حديث رقم 1967، والترمذي 386/3 رقم 1084 والطبراني في الاوسط 141/1 رقم 446، ورواه البيهقي

والطبراني في الكبير من رواية ابي حاتم المزني وحسنه الالباني في السلسلة الصحيحة 22/3 رقم 1022

أمر الله تعالى نوحا أن يحمل في السفينة من كل زوجين اثنين وأهله، ومنه قوله: حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ [هود 40]. وكذلك جاء الأمر للوط عليه السلام: [قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِبْ أَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ] [هود 81]. فاستثنى الزوجة دون الأبناء، ولكن النتيجة التي تظهر من خلال قصة نوح عليه السلام أن أحد الأبناء سلك مسلك الأم وإن لم يكن هناك إشارة واضحة الى دورها في المسألة أو تأثيرها فيها.

وعلى النقيض من ذلك نجد قصة نبي آخر مع ابنه تأخذ منحى آخر من ناحية الطاعة والإيمان، وذلك في قصة ابراهيم وولده اسماعيل عليهما السلام. فإبراهيم عليه السلام رغم أنه ترك ابنه في ارض جرداء، لا كلاً فيها ولا ماء مع أمه هاجر، ليزورها في كل عام مرة واحدة، يأتي بعدها فيقول لولده: [يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ] [الصافات 102]. فالمشترك في القصتين أن الأبوان نبيان، ولكن نبوة الآباء لم تكن هي الأساس في صلاح الابناء وفسادهم، بل على العكس فالنبي الذي عاش ولده بعيدا عنه خرج ولده صالحا تقيا نبيا، والولد الذي عاش عمره في كنف أبيه خرج عاص لله ومات كافرا.

وفي الوقت الذي ينادي نوح ابنه بكل ما يحمله الأب في قلبه من الرحمة والحب لولده كما يظهر في سياق الآيات، نرى الابن يرفض النداء، ويستعلي عليه بالاعتماد على ذاته؛ وما يحيط به من القوى المادية الظاهرة، وهو ما يظهر خلو الباطن من الايمان المانع من وقوع العقاب، [وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ

مَعَ الْكَافِرِينَ، قَالَ سَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَقِينَ [هود 42-43]. إذن فالمشترك الغائب عن الذكر في القستين هو المرأة التي أنجبت، وكان لها تأثير أكبر من تأثير الزوج، فشتان بين امرأة تربي ابنها على العقوق والكفر، وامرأة رغم ما تركها فيه زوجها من العناء، تربي ابنها على الوفاء والبر والطاعة والإيمان. وهو ما يظهر في حديث طويل نسوقه بتمامه لما فيه من مسائل هي ثمرة المرأة الصالحة التي تستقيم بها المجتمعات، وتحيا بها الأمم، وثبني بها الأخلاق.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ التِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قَبْلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لَتُعْفِي أَثَرَهَا عَلَى سَارَةٍ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبَابِنَهَا إِسْمَاعِيلُ وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ، فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءٌ فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعْتَهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: اللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرُونَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَوْلَاءِ الْكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: رَبِّ {إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُرِّيِّ بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمَحْرَمِ} [إبراهيم: 37]- حَتَّى بَلَغَ - {يَشْكُرُونَ} [إبراهيم: 37] " وَجَعَلْتُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفَدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلْتُ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى، أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ، فَانْطَلَقْتُ كَرَاهِيَةً أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتِ الصِّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الْوَادِي تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطْتُ مِنَ الصِّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْوَادِي رَفَعْتُ

إِلَيْهِ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَاقْرَأِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقُولِي لَهُ يُغَيِّرُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ أَنَسَ شَيْئًا، فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَّاءٌ، فَسَأَلْنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ، قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكَ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ غَيْرَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَلِكَ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أَفَارِقَكَ، الْحَقِّي بِأَهْلِكَ، فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدَ فُلْمٍ يَجِدُهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنَتْ عَلَى اللَّهِ، فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتْ اللَّحْمُ، قَالَ فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتْ الْمَاءُ. قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ». قَالَ: فَهُمَا لَا يَجْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُؤَافِقَاهُ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَاقْرَأِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ، قَالَ: فَأَوْصَاكَ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَلِكَ أَبِي وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَ، ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبَلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَأَاهُ قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ وَالْوَالِدُ بِالْوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَاهُنَا بَيْتًا، وَأَشَارَ إِلَى أَكْمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ، جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولَانِ: { رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ

{ الْعَلِيمُ } [البقرة: 127]، قَالَ: فَجَعَلَا يَبِينَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولَانِ: { رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [البقرة: 127]¹.

ومما يجدر الإشارة إليه موقف إبراهيم عليه السلام ووصيته لابنه بطلاق زوجته، واستبدالها بالحامدة الشاكرة لأنعم الله، وفيه دلالة واضحة على أهمية المرأة الصالحة التي تنتج الثمرة الطيبة في حُسن تبُعُها لزوجها، وإيمانها بربها، وشكر نعمائه، والصبر على بلوائه.

[وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِيمَانٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا إِنَّهَا صِدِّيقَةٌ تَابِعَتْ أَمْرًا بِحُكْمٍ] (التحریم: 11-12)، ولم يمنع آسية امرأة فرعون كفر زوجها واستعلائه في الارض من أن تكون مثلاً لأهل الإيمان. لتؤكد حقيقة الايمان بتعلق المخلوق بأسباب الخالق لا بسلطان الدنيا وجاهها، ولا متعتها الفانية، وبيقين أن وعد الله هو الحق، فكانت ممن شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد.

وفي ذكر آسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران مثالان واضحا لمن أراد تحقيق كمال الايمان الذي حققته واستحققتا به أن تكونا مثالا للذين آمنوا:

الاول: ان يكون الانسان صاحب نعمة وسلطان فيخرج من ذلك كله مؤثرا عليه ما عند الله وابتغاء وجهه الكريم، وهو ما فعلته آسية بنت مزاحم. اذ خرجت من دنيا فرعون للأخرة التي دعا اليها موسى عليه السلام.

الثاني: تحقيق ما حققته مريم بحسن تبئله الله سبحانه، وعدم الركون الى الدنيا وزخرفها

¹ صحيح البخاري 142/4 رقم 3364

وبهرجها، فحققت ما أمر الله به أهل الإسلام بقوله سبحانه: [قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ] [الانعام 162].

وفي كمال إيمان آسية ومريم اخرج الشيخان من حديث أبي موسى الأشعري، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كَمَلْ مِنْ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَمَنْ يَكْمُلُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»¹، وهذا على اعتبار زمانهما وإلا فإنه كمل من النساء من أمة محمد صلى الله عليه وسلم غيرهن.

وفي ضرب المثل بهما عليهما سلام الله ورضوانه دروس وعبر، فمريم بنت عمران نشأت في ظل الطاعة، وترعرت فيها، فلما كبرت دأبت على الاستمرار بما يرضى عنه الله تعالى، ولم تستهوها الدنيا. وبهذا بشر النبي صلى الله عليه وسلم فأخبر عن أن من السبعة الذين يُظلمهم الله في ظله - ظل عرشه - شاب نشأ في طاعة الله - ذكرا كان أو أنثى - فيتضح أن لا شيء يقهر الأنثى على شيء سوى إرادتها ونفسها، فإن أرادت الصلاح صلحت، وإن أرادت الدنيا وزخرفها ضلّت وفسدت.

وقد أدرك أعداء الإسلام أنهم لن يستطيعوا النيل من المجتمع المسلم وبنائه المتين إلا بإفساد المرأة وإخراجها من إطارها الرباني الطاهر فتأمروا وخططوا ودبروا، ونجحوا أحيانا وفشلوا أحيانا أخرى، وليس أدل على حجم المؤامرة من بعض الأقوال التي قالها بعضهم ونقل منها جزءا يسيرا على سبيل المثال لا الحصر:

تقول المبشرة آن ميليجان: " لقد استطعنا أن نجمع في صفوف كلية البنات في القاهرة

¹ متفق عليه، البخاري 75/7 رقم 5418، ومسلم 4/1886 رقم 2431

بنات آباؤهن باشاوات وبكوات، ولا يوجد مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي، وبالتالي ليس هناك من طريق أقرب إلى تقويض حصن الإسلام من هذه المدرسة"¹.

وهذا القول من أوضح الأقوال على حقيقة استهداف المجتمع المسلم من خلال تزيين الباطل، وإغراء النساء بالخروج عن قيم الإسلام ومثله العليا لإسقاط المجتمع كله. ولا شك أن الراغب في معرفة خيوط المؤامرة على المجتمعات المسلمة سيطالع عديدا من الكتب التي نقلت لنا وقائع من هذه المؤامرة من أحداث وقعت في عالمنا الاسلامي، وسيبقى ميدان التحرير في العاصمة المصرية شاهد من الشواهد، قادت هدى شعراوي وصفية زغلول مظاهرة نسائية عام 1919م، فلما اجتمعن في ميدان التحرير قمن بإحراق الحجاب. ويذكر البعض أن اسم ميدان التحرير أطلق بعد هذه الحادثة، وأن الحجاب كظاهرة عامة اختفى لمدة خمسين عاما بعد هذه الواقعة، وأن النحات محمود مختار جسّد موقف النساء من الحجاب في تمثال نهضة مصر. وفي ذلك قال الشاعر حافظ ابراهيم²:

خَرَجَ	الغواني	يَحْتَجِجُ	نَ وَرُحْتُ أَرْقُبُ جَمْعُهُنَّ
فإذا	بهنَّ	تَحْدَنْ مِنْ	سُودِ الثِّيَابِ شِعَارُهُنَّ
فطلعنَّ	مثلَ	كواكبٍ	يَسْطَعْنَ فِي وَسْطِ الدُّجْنَةِ
وأخذنَّ	يَجْتَزْنَ	الطَّري	قَ وَدَارُ (سَعْدِ) قَصْدُهُنَّ
يَمْشِينَ	في	كَيْفِ الْوَقَا	رِ وَقَدْ أَبَنَّ شُعُورَهُنَّ

¹ التبشير والاستعمار في البلاد العربية د. مصطفى خالدي ود. عمر فروخ ص: 86.

² ديوان حافظ ابراهيم ص401.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اقرءوا إن شئتم: { فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ، أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } [محمد: 23] ¹. وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ ثَلَاثُ بَنَاتٍ، أَوْ ثَلَاثُ أَخَوَاتٍ، أَوْ ابْنَتَانِ، أَوْ أُخْتَانِ، فَيَتَّقِي اللَّهَ فِيهِنَّ وَيُحْسِنُ إِلَيْهِنَّ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ " ²

وفي حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أَنَّ أَعْرَابِيًّا عَرَضَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي سَفَرٍ، فَأَخَذَ بِخَطَامِ نَاقَتِهِ - أَوْ بِرِمَامِهَا ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ - أَوْ يَا مُحَمَّدُ - أَحْبَبْتَنِي بِمَا يَقْرَبُنِي مِنَ الْجَنَّةِ، وَمَا يُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ، قَالَ: فَكَفَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ نَظَرَ فِي أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «لَقَدْ وَفَّقَ، أَوْ لَقَدْ هُدِيَ»، قَالَ: كَيْفَ قُلْتِ؟ قَالَ: فَأَعَادَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، دَعِ النَّاقَةَ» ³.

وهي البنت التي تأخذ بيد والديها الى الجنة إن أحسنا القيام على شأنها دون تمييز بينها وبين الذكور من الابناء عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو» وضم أصابعه ⁴. وأخرج البخاري من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: جَاءَتْ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا، فَلَمْ يَجِدْ عِنْدِي شَيْئًا غَيْرَ تَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ، فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهَا، فَأَخَذَتْهَا، فَشَقَّتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا، وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا شَيْئًا، ثُمَّ قَامَتْ، فَخَرَجَتْ هِيَ وَابْنَتَاهَا، فَدَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى

¹ متفق عليه، رواه البخاري 5/8 رقم 5987، ومسلم 1980/4 رقم 2554

² رواه احمد 476/17 رقم 11384، والترمذي 318/4 رقم 1912 وابن حبان 190/2 رقم 446 والبخاري في الادب المفرد

46/1 رقم 79 وصححه الالباني في صحيح الادب المفرد

³ متفق عليه، رواه البخاري 5/8 رقم 5983 ومسلم 42/1 رقم 13

⁴ رواه مسلم 2027/4 رقم 2631

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى تَفِيئَةِ ذَلِكَ، فَحَدَّثْتُهُ حَدِيثَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَنْ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ، كُنَّ سِتْرًا لَهُ مِنَ النَّارِ " ¹.

وكانت المرأة قبل الاسلام تُزدرى ويُحطّ من شأنها، حتى أنهم كانوا يتوارثونها كما يتوارث المتاع، إلى أن جاء الإسلام فأعلى شأنها ورفع من قدرها. وقد وصف ربنا حال المجتمعات الجاهلية مع الإناث فقال سبحانه: [وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ] [النحل 58-59].

وقد كان امتهان المرأة في بني اسرائيل نصا دينا يرويه الربانيون والاحبار كما في سفر اللاويين، « وَإِذَا كَانَتْ امْرَأَةٌ لَهَا سَيْلٌ، وَكَانَ سَيْلُهَا دَمًا فِي حِمِّهَا، فَسَبْعَةَ أَيَّامٍ تَكُونُ فِي طَمْثِهَا. وَكُلُّ مَنْ مَسَّهَا يَكُونُ نَجَسًا إِلَى الْمَسَاءِ. وَكُلُّ مَا تَضَطَّجَعُ عَلَيْهِ فِي طَمْثِهَا يَكُونُ نَجَسًا، وَكُلُّ مَا يَجْلِسُ عَلَيْهِ يَكُونُ نَجَسًا. وَكُلُّ مَنْ مَسَّ فِرَاشَهَا يَغْسِلُ ثِيَابَهُ وَيَسْتَحِمُّ بِمَاءٍ، وَيَكُونُ نَجَسًا إِلَى الْمَسَاءِ. وَكُلُّ مَنْ مَسَّ مَتَاعًا يَجْلِسُ عَلَيْهِ، يَغْسِلُ ثِيَابَهُ وَيَسْتَحِمُّ بِمَاءٍ، وَيَكُونُ نَجَسًا إِلَى الْمَسَاءِ. وَإِنْ كَانَ عَلَى الْفِرَاشِ أَوْ عَلَى الْمَتَاعِ الَّذِي هِيَ جَالِسَةٌ عَلَيْهِ عِنْدَمَا يَمْسُهُ، يَكُونُ نَجَسًا إِلَى الْمَسَاءِ. وَإِنْ اضْطَّجَعَ مَعَهَا رَجُلٌ فَكَانَ طَمْثُهَا عَلَيْهِ يَكُونُ نَجَسًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ. وَكُلُّ فِرَاشٍ يَضْطَّجَعُ عَلَيْهِ يَكُونُ نَجَسًا " ².

بل الأدهى من ذلك اعتبار حيض المرأة ذنبا وخطيئة تحتاج المرأة للتكفير عنها، " وفي اليوم الثامن تأخذ لنفسها بمماتين أو فرخي حمام، وتأتي بهما إلى الكاهن إلى باب حيمة الاجتماع. فيعمل الكاهن: الواحد ذبيحة خطيئة، والآخر محرقة. ويكفر عنها

¹ رواه البخاري 110/2 رقم 1418

² سفر اللاويين ترجمة الفاندايك الاصحاح 15، عدد 19-24

الكَاهِنُ أَمَامَ الرَّبِّ مِنْ سَبِيلِ نَجَاسَتِهَا"¹.

وجاء الاسلام ليصحح المفاهيم الخاطئة المتعلقة بالمرأة حتى فيما سبق مما تناقله الناس من نصوص لا تمت الى شريعة الله بصلة، اذ كيف يمكن شرعا وعقلا أن يُعَدَّ الأمر الخارج عن إرادة الإنسان - بل هو مما جُبِلَ الإنسان عليه في أصل خلقته - ذنبا يحتاج الى الكفارة؛ كالحيض والنفاس؟!!!.

وهذا ما جاء في تشريع الإسلام في أكثر من موضع، فإن الله لا يكلف نفسا إلى وسعها، حتى لو أكره الإنسان على أمر لم يؤاخذه الله بفعله بسبب الإكراه. عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: " «تَأْوِيلِي الْحُمْرَةَ مِنَ الْمَسْجِدِ»، قَالَتْ فَقُلْتُ: إِيَّيَّ حَائِضٌ، فَقَالَ: «إِنَّ حَيْضَتَكَ لَيْسَتْ فِي يَدِكَ»

وقد يتبادر للذهن أن في الاسلام تمييزا بين الرجال والنساء فيما يتعلق بالميراث أو ما جاء في بعض النصوص الأخرى، فأما ما يتعلق بالميراث فمن قوله تعالى: [يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ] [النساء 11]، ونقول أن سبب ذلك الجهل بشريعة الله تعالى ومقاصدها السامية، فالمرأة في الإسلام عزيزة كريمة، ولهذا ما جعل الاسلام في تشريعاته قيام المرأة بالانفاق على البيت أو العمل لإعالة نفسها أو غيرها حتى لو ملكت مال قارون. ولم يفرض عليها المساهمة بما لها أو مال أبويها لتأثير بيت الزوجية، أو المشاركة فيه كما يحدث في بلاد غير الاسلام، وكذلك في بعض المجتمعات الاسلامية في زماننا المعاصر تقليدا لمنهج غير المسلمين. بل إن الاسلام نهى وحرم على الرجال الإعتداء على مال الزوجة وإن كان مما منح لها كمهر عند الزواج، فقال سبحانه: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا

¹ سفر اللاويين ترجمة الفاندايك الاصحاح 15، عدد 29-30

آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا [النساء 19]. وأما الرجل فهو مطالب بدفع المهر وتأسيس البيت والانفاق على نفسه وأهل بيته، حتى لو كانت زوجته أغنى منه إلا أن تتصدق هي برغبتها وإرادتها دون إلزام. فعن عن زينب الثقفية زوجة عبد الله قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تَصَدَّقْنَ، يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ» قَالَتْ: فَرَجَعْتُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ فَقُلْتُ: إِنَّكَ رَجُلٌ خَفِيفٌ ذَاتِ الْيَدِ - كناية عن ضيق حالة وفقره -، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَمَرَنَا بِالصَّدَقَةِ، فَأْتَيْتِهِ فَاسْأَلُهُ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ يَجْزِي عَنِّي وَإِلَّا صَرَفْتُهَا إِلَى غَيْرِكُمْ، قَالَتْ: فَقَالَ لِي عَبْدُ اللَّهِ: بَلِ اثْنَيْهِ أَنْتِ، قَالَتْ: فَانْطَلَقْتُ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِيَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَاجَتِي حَاجَتُهَا، قَالَتْ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَلْقَيْتَ عَلَيْهِ الْمَهَابَةَ، قَالَتْ: فَخَرَجَ عَلَيْنَا بِلَالٌ فَقُلْنَا لَهُ: ائْتِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبِرْهُ أَنَّ امْرَأَتَيْنِ بِالْبَابِ تَسْأَلَانِكَ: أَلْجَزِيُّ الصَّدَقَةَ عَنْهُمَا، عَلَى أَزْوَاجِهِمَا، وَعَلَى أَيْتَامٍ فِي حُجُورِهِمَا؟ وَلَا تُخْبِرُهُ مِنْ نَحْنُ، قَالَتْ: فَدَخَلَ بِلَالٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ هُمَا؟» فَقَالَ: امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ وَرَيْتُبُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّ الرِّيَابِ؟» قَالَ: امْرَأَةٌ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " هُمَا أَجْرَانِ: أَجْرُ الْقَرَابَةِ، وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ"¹.

وعليه فإن الرجل لو ورث ضعف المرأة بل أضعافها فهو أحوج لذلك، لأنه مجبر على الإنفاق. أما المرأة فلها أن تحتفظ بما لها، وزوجها مجبر على الإنفاق عليها، إلا إن شاءت هي أن تتصدق على زوجها وعيالها في حال فقر الزوج. وعليه فتوزيع الميراث على هذه الشاكلة تحقيق للعدل، إذ العدل ليس في المساواة أحياناً. بل العدل في أن يتوفر لكل

¹ متفق عليه، البخاري 121/2 رقم 1466، ومسلم 594/2 رقم 1000

واحد ما يعينه على الحياة بكرامة.

كما أن الذين ذهبوا للنيل من الاسلام في موضوع الميراث هم في حقيقة الأمر كالذي قرأ " فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ " [الماعون 4]. فميراث المرأة في الاسلام نصف الرجل في أربع حالات هي:

الاولى: ميراث الابناء والبنات من والدهم أو أمهم. يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ " (النساء 11)

الثانية: الاب والام يرثان ولدهما ليس له ابناء ولا اخوة أو اخوات فللام الثلث وللأب الثلثان لقوله تعالى: [فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ] [النساء 11].

الثالثة: الكلالة إن توفي وله اخوة ذكورا وإناثا، [يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ] [النساء 176]

الرابعة: الرجل ان ورث زوجته وليس لها ابناء. [وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ هُنَّ وَلَدٌ فَلِكُمُ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ] وأما المرأة فتأخذ الربع إن ورثت زوجها وليس له أبناء [وَهَنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ] [النساء 12].

وأما الحالات التي تأخذ فيها المرأة كما يأخذ الرجل فهي أكثر ومنها الام مع الاب يرثان ولدهما وله أبناء فلكل واحد منهما السدس والكلالة له أخ أو اخت من الأم فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث.

وأما الحالات التي تأخذ فيها المرأة أكثر من الرجل فتبلغ ثلاثين حالة ونضرب مثالا واحدا لبيان ذلك، فلو ان رجلا مات وله ابنة وأم وثلاثة من الاخوة الذكور، فالبنت تأخذ نصف التركة، وتأخذ الام السدس، ويأخذ الاخوة الثلاثة السدسين أي ان البنت والام وهما نساء يأخذان اكثر بكثير من الاخوة الذكور.

وقد ذهب البعض الى ادعاء أن الإسلام يميّز بين الذكر والأنثى بنص القرآن واستدلوا بما جاء في القرآن في سورة آل عمران [فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَدُرِّتُّهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ] [آل عمران 36]. وهؤلاء قد أعمى الله بصيرتهم عن مسألتين:

الأولى: أن هذا القول إنما هو قول على لسان امرأة عمران، ولم يكن قول امرأة عمران "وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ" تمييزا في الجنس بل تمييزا في الحال، إذ المعلوم أن الخادم في بيت الرب سبحانه إما أن يصبح كاهنا وهذا شرطه الرجولة في الشرائع كلها، وإما أن يكون خادما يقوم على شأن المعبد ويتعهده بالترتيب والنظافة. والمرأة يأتيها الحيض والنفاس فلا تصلح حينها لدخول المعابد. والمعهود عندهم أن المنذور به للمعبد يجب أن يكون ذكرا، ولهذا خشيت أن لا يكون نذرها مقبولا، فقدّمت عذرها للرب جلّ وعز بأن المولود أنثى ودليل ذلك جاء في سياق قولها والله أعلم بما وضعت حيث وردت الآية في قراءة أبي بكر عن عاصم وابن عامر بضم تاء وضعت أي والله أعلم بما وضعت، فدلّ أن ذلك للاعتذار لا للإعلام والإخبار.

وما ذهب إليه أكثر المفسرين من أن الكلام هنا لله لا لها، سواء بالمشهور من القراءة بفتح العين وتسكين التاء ووضعت أو فيما ورد عن ابن عباس بأنه قرأها بالكسر " وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ " فإنه لا يخالف المعنى الذي أراده الله سبحانه، ذلك أن قوله تعالى: والله أعلم بما وضعت إنما جاء لبيان عظمة مولودها وجلال قدره وإن كان أنثى، ولبيان عدم معرفتها بحكمة الله في أن وهب لها الأنثى، وهو ما دلّت عليه أحداث القصة من عظام الأمور، وجعل هذه الأنثى وولدها آية للعالمين، وبسبب جهلها بذلك تحسّرت خشية فوات الأجر بعدم قبول النذر¹.

الثانية: أن الله سبحانه في الآية التي تلي أجاب عن الشبهة كلها فقال سبحانه وتعالى: [فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ] [أل عمران 37].

¹ انظر فتح القدير للشوكاني 384/1 وتفسير الرازي 204/8

المرأة في العالم الغربي

لا شك أن الواقع الديني القديم للمجتمعات الغربية وما وقع من الظلم والعسف، واستخدام النصوص في غير مواضعها، وتأويلها تأويلات باطلة ومموجة، جعلتها سيفاً مسلطاً على رقاب الناس، مما جعل التمرد عليها والانفلات من سطوتها مطلباً جماهيرياً للشعوب الغربية. وإن كان العهد القديم بنصوصه قد تشدد ضد المرأة فهو كذلك كان متشدداً ضد الرجال، وبقيت المجتمعات اليهودية أكثر صلة بالدين من المجتمعات الغربية. وكما جاءت نصوص العهد القديم متهمة المرأة بأنها سبب في خطية آدم وجعلت العقوبة على المرأة والرجل على حد سواء، إلا أنها ميّزت تمييزاً واضحاً بين الرجل والمرأة. فالعهد القديم جعل نجاسة المرأة التي تلد الأنثى ضعف نجاسة المرأة التي تلد الذكر، ومنه في سفر اللاويين، "كَلَّمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلًا: إِذَا حَبَلَتِ امْرَأَةٌ وَّوَلَدَتْ ذَكَرًا، تَكُونُ نَجِسَةً سَبْعَةَ أَيَّامٍ. كَمَا فِي أَيَّامِ طَمْثِ عِلَّتِهَا تَكُونُ نَجِسَةً، ثُمَّ تُقِيمُ ثَلَاثَةَ وَثَلَاثِينَ يَوْمًا فِي دَمِ تَطْهِيرِهَا. وَإِنْ وُلِدَتْ أُنْثَى، تَكُونُ نَجِسَةً أُسْبُوعَيْنِ كَمَا فِي طَمْثِهَا. ثُمَّ تُقِيمُ سِتَّةَ وَسِتِّينَ يَوْمًا فِي دَمِ تَطْهِيرِهَا"¹. بينما جاءت نصوص العهد الجديد أكثر تمييزاً ضد المرأة في كثير من نواحي الحياة، فالذين عابوا على الاسلام في مسألة الميراث، ما كلفوا أنفسهم عناء البحث في غير الاسلام لينظروا الى النصوص التي القاها الغرب عن كاهلهم - متحررين من كل دين - لما فيها من عسف وظلم. فالمرأة لا ترث إطلاقاً إن كان لها أخوة ذكور، " وَتَكَلِّمُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلًا: أَيُّمَا رَجُلٍ مَاتَ وَلَيْسَ لَهُ ابْنٌ، تَنْقُلُونَ مُلْكَهُ إِلَى ابْنَتِهِ. وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ ابْنَةٌ، تُعْطَوْنَ مُلْكَهُ لِأَخَوْتِهِ"².

ومن قمة الظلم الذي أوقعوه بالمرأة إباحة بيع الوالد ابنته، وغاية رحمتهم بالمرأة عند بيعها

¹ سفر اللاويين ترجمة الفاندايك الإصحاح 12 العدد 2 - 5

² سفر العدد ترجمة فاندايك الإصحاح 27، عدد 8-9

أَنْ لَا يُخْرِجُهَا مِنْ بَيْتِ أَبِيهَا كَالْعَبِيدِ " وَإِذَا بَاعَ رَجُلٌ ابْنَتَهُ أُمَّةً، لَا تَخْرُجُ كَمَا يُخْرَجُ الْعَبِيدُ"¹.

ومن امتهان المرأة عدم إعطائها الحق في الزواج بمن تريد، بل هي خاضعة حتى في حال ترمليها للتزوج بشقيق زوجها المتوفى، وكأنه لا اعتبار لرأيها. «إِذَا سَكَنَ إِخْوَةٌ مَعًا وَمَاتَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَلَيْسَ لَهُ ابْنٌ، فَلَا تَصِيرُ امْرَأَةُ الْمَيِّتِ إِلَى خَارِجِ لِرَجُلٍ أَجْنَبِيٍّ. أَخُو زَوْجِهَا يَدْخُلُ عَلَيْهَا وَيَتَّخِذُهَا لِنَفْسِهِ زَوْجَةً، وَيَقُومُ لَهَا بِوَاجِبِ أَخِي الزَّوْجِ. وَالْبِكْرُ الَّذِي تَلِدُهُ يَقُومُ بِاسْمِ أَخِيهِ الْمَيِّتِ، لِغَلَا يُمَحَى اسْمُهُ مِنْ إِسْرَائِيلِ»².

وأما في الاسلام فلا يجوز للأب ان يزوج ابنته بدون إذنها، ولو فعل ذلك فلها أن ترفض هذا العقد. فقد روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: جَاءَتْ فَتَاةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبِي زَوَّجَنِي ابْنَ أَخِيهِ يَرْفَعُ بِي حَسَبِيَّتَهُ " فَجَعَلَ الْأَمْرَ إِلَيْهَا " قَالَتْ: فَإِنِّي قَدْ أَجَزْتُ مَا صَنَعَ أَبِي، وَلَكِنْ أَرَدْتُ أَنْ تَعْلَمَ النِّسَاءُ أَنْ لَيْسَ لِلْأَبَاءِ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ"³.

وحتى في حال وقوع الفتاة في الخطيئة فإن العقوبة تقع عليها قاسية مشددة بينما لا توقع العقوبة بنفس الجرم على الرجل، " وَإِذَا تَدَسَّتِ ابْنَةُ كَاهِنٍ بِالرِّبِّيِّ فَقَدْ دَنَسَتْ أَبَاهَا. بِالنَّارِ تُحْرَقُ"⁴.

أما في شريعة الله وكتابه فقد جاء النص حازماً قاطعاً بأنه لا فرق بين ذكر وأنثى في

¹ سفر الخروج ترجمة فاندريك الاصحاح 21 عدد 7

² سفر التثنية ترجمة فاندريك الاصحاح 25 عدد 5-6

³ رواه احمد 492/34 رقم 25043، وابن ماجه 602/1 رقم 1874، والدارقطني 334/4 رقم 3555، وصححه الالباني في الصحيحة 1009/7

⁴ سفر اللاويين ترجمة فاندريك الاصحاح 21 عدد 9

العقوبات، قال تعالى: [الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهَّدَ عَلَيْكُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ] [النور 2].

إن الإسلام جاء ليحفظ للمرأة كرامتها ويصون عفتها، إذ كانت وما زالت هدفا رئيسيا لأصحاب الشهوات، وكذلك لمن أراد السيطرة على الأمم والمجتمعات. وبمقدار انحلال الأمم يكون السقوط والتردي، ولذلك فضح المولى سبحانه أولئك الذين يترصون بالمجتمع الدوائر؛ ويريدونه مجتمعاً خالياً من الاخلاق السامية، والمثل العالية، فقال سبحانه: [وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا] [النساء 27]. وتوعد سبحانه العابثين بسلم المجتمع الثقافي والأخلاقي بالعذاب في الدنيا والآخرة فقال تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ يُجْبُونَ أَنْ تَشِيَعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ] [النور 19].

وأعجب ما في أمر أولئك الذين يتحدثون عن الحريات أن الحرية عندهم تبدأ بتعرية المرأة وكشف مفاتها، ولو اختارت المرأة بمحض إرادتها الستر والعفاف تجدهم يشنون عليها حرباً شعواء، وكأن احتشام المرأة هو الأمر الذي يقف سداً منيعاً أمام تحررهم. وهذا إنما يدل على حقيقة المقصد الذي أرادوه لتحقيق مآربهم الشهوانية من المرأة. وفي الوقت الذي امتهنت كرامة المرأة، وسلبت من كثير من حقوقها في المجتمعات الغير مسلمة تحت دعاوي النصوص الدينية، أو الدعوات العلمانية والإلحادية، نجد تميّزا واضحا للمرأة المسلمة، وهذا التمييز هو الذي جعل السائرين في فوضى التحرر الغير منضبط يحقدون على المرأة المسلمة. فالمرأة المسلمة رغم أن مهمتها الأساسية في الإسلام تربية النشئ الصالح، إلا أن هذا لم يمنع من أن تأخذ دورا رياديا في المجتمع، فهي الطبيعية

الحاذقة، والفقيهة المعلمة، ومن تتبع أخبار السلف وجد مصداق ما نقول، إذ ما وصلنا من الأحاديث فيه دليل واضح على مساهمة النساء في نشر الدين والعلم. فكم من حديث روته نساء النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهن من الأنصاريات والمهاجرات، وكذلك من تبعهن بإحسان، فقد كان لعائشة بنت محمد بن المسلم الحزانية مجلس علم بالمسجد يتردد عليه كبار علماء زمانها. وكانت زينب بنت عبد الله بن عبد الحليم بن تيمية؛ من شيوخ "ابن حجر العسقلاني". وأخذ تقي الدين السبكي العلم عن زينب بنت سليمان بن إبراهيم، وتلقى ابن تيمية بعض العلم عن أربعة من النساء، وقال رحمه الله نقلاً عن إحداهن: أخبرتنا الشيخة الصالحة أم الخير ست العرب بنت يحيى بن قايماز بن عبد الله التاجية الكندية قراءة عليها، وأنا أسمع في رمضان سنة 681¹. وكذلك ابن حزم وغيرهم كثير. بخلاف ما كانت عليه المرأة في غير الإسلام، حيث ظلت وفق النصوص الدينية والأعراف الاجتماعية والقوانين السياسية مخلوقاً ممتهداً محتقراً، فهي كما جعلها العهد القديم مصدر الخطيئة والغواية؛ فكذلك فعل العهد الجديد، يقول بولس: "وَأَدَمُ لَمْ يُعْوَى، لَكِنَّ الْمَرْأَةَ أُعْوِيَتْ فَحَصَلَتْ فِي التَّعَدِّيِّ"². ولو افترضنا جدلاً أن المرأة أكثر خطأ من الرجل أو أنها مصدر الخطأ والخطيئة فيكون من أولى الأولويات تعليمها لا تجهيلها، إذ الجهل مدعاة لكل شر، والمرأة قد تعلم المرأة ما يعجز أحذق المعلمين الرجال عن تعليمه لهم، ومع هذا نجد بولس يدعو إلى حرمان المرأة من حقها في أن تُعَلِّمَ، وذلك لأن تعلم المرأة وجعلها مُعَلِّمة فيه استعلاء على الرجال وانتقاص لهم من وجهة نظره، فيقول: "لِتَتَعَلَّمِ الْمَرْأَةُ بِسُكُوتٍ فِي كُلِّ خُضُوعٍ. وَلَكِنْ لَسْتُ آذُنٌ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تُعَلِّمَ وَلَا تَتَسَلَّطَ عَلَى الرَّجُلِ، بَلْ تَكُونُ فِي سُكُوتٍ"³.

¹ مجموع الفتاوى لابن تيمية 117/18

² رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس ترجمة فاندايك الإصحاح 2 عدد 14

³ رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس الإصحاح فاندايك 2 عدد 11-12

والمرأة عند بولس تابعة للرجل في كل شيء " فَإِنَّ الرَّجُلَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُغَطِّيَ رَأْسَهُ لِكَوْنِهِ صُورَةَ اللَّهِ وَمَجْدَهُ. وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَهِيَ مَجْدُ الرَّجُلِ. لِأَنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ مِنَ الْمَرْأَةِ، بَلِ الْمَرْأَةُ مِنَ الرَّجُلِ. وَلِأَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يُخْلَقْ مِنْ أَجْلِ الْمَرْأَةِ، بَلِ الْمَرْأَةُ مِنْ أَجْلِ الرَّجُلِ"¹. وهذه التبعية التي أرادها بولس للمرأة تبعية غير منضبطة بقانون الإله، إنما هي تصويره الذاتي لقانون الإله، وعليه فقد فرض أنه حتى في حال السؤال للتعلم لا يجوز للمرأة أن تتكلم بنفسها، بل الرجل هو من يتكلم عنها. ومنه قوله: " لِتَصْمُتْ نِسَاؤُكُمْ فِي الْكَنَائِسِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ مَأْذُونًا هُنَّ أَنْ يَتَكَلَّمْنَ، بَلْ يَخْضَعْنَ كَمَا يَقُولُ النَّامُوسُ أَيْضًا. وَلَكِنْ إِنْ كُنَّ يُرَدَّنَ أَنْ يَتَعَلَّمْنَ شَيْئًا، فَلْيَسْأَلْنَ رِجَالَهُنَّ فِي الْبَيْتِ، لِأَنَّهُ قَبِيحٌ بِالنِّسَاءِ أَنْ تَتَكَلَّمْنَ فِي كَنِيسَةٍ"².

ثم يتبجح المتبجحون بأن الإسلام يقيّد المرأة ويحجر عليها ويمنعها حقوقها، ولو أراد هؤلاء الإنصاف لرأوا ما في الإسلام من عظمة في التعامل مع المرأة، فزيادة على ما ذكرنا آنفا نجد النبي صلى الله عليه وسلم يكلم نساءه في المسائل العامة بل وينزل عند رأيهن إن رأى فيه خيرا ومصالحة، ومن ذلك ما رواه أحمد من حديث عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم ومنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ، انْحَرُوا وَاحْلِفُوا " قَالَ: فَمَا قَامَ أَحَدٌ، قَالَ: ثُمَّ عَادَ بِمِثْلِهَا، فَمَا قَامَ رَجُلٌ، حَتَّى عَادَ بِمِثْلِهَا، فَمَا قَامَ رَجُلٌ، فَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَخَلَ عَلَى أُمَّ سَلَمَةَ، فَقَالَ: " يَا أُمَّ سَلَمَةَ، مَا شَأْنُ النَّاسِ؟ " قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ دَخَلَهُمْ مَا قَدْ

¹ رسالة بولس الاولى الى كورنثوس الاصحاح فاندابك 11 عدد 7-9

² رسالة بولس الاولى الى كورنثوس الاصحاح فاندابك الاصحاح 14 عدد 34 - 35

رَأَيْتَ، فَلَا تُكَلِّمَنَّ مِنْهُمْ إِنْسَانًا، وَاعْمِدْ إِلَى هَدْيِكَ حَيْثُ كَانَ فَأَنْحَرُهُ وَاحْلِقْ، فَلَوْ قَدْ
فَعَلْتَ ذَلِكَ فَعَلَ النَّاسُ ذَلِكَ. فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُكَلِّمُ أَحَدًا حَتَّى
أَتَى هَدْيِيَهُ فَنَحَرَهُ، ثُمَّ جَلَسَ، فَحَلَقَ، فَقَامَ النَّاسُ يَنْحَرُونَ وَيَحْلِقُونَ"¹.

وما يحاول المفتونون ببهرج الغرب وما وصل إليه من التقدم ترويضه، ظنًا منه أن التقدم
والتحضر إنما جاء بنبد تعاليم الدين، وإرساء قواعد التحرر وعلى رأسها تحرر المرأة من
حجابها وعفتها، وقد غفل هؤلاء عن أمرين هامّين :

الأول: أن حضارة الغرب جاءت بناء على ما تركه علماء الاسلام للناس من تراث،
فمن أصغر اكتشاف إلى أعظمه وأكبره تجد أن الأساس الأول فيه ما أرساه علماء
الاسلام كالحوارزمي، والحارث بن كندة، وابن فرناس، وحيي بن يقظان، وابن الهيثم،
والفارابي وغيرهم كثير.

الثاني: أن الغرب نادى للتحرر من سطوة الكنيسة وظلمها وجورها، والذي وصل إلى
ما يفوق الاحتمال. فقد كان القساوسة لهم سطوة حيث جعلوا من أنفسهم حاكما
بأمر الله لا يُرَدُّ كلامه وحكمه. فأحرقوا من أحرقوا، وأعدموا من أعدموا، واستباحوا
أموال الناس بالباطل، فثار الناس لرفع ظلم الكنيسة عن كاهلهم. وهذا كله ذكره الله
سبحانه فاضحا حقيقة حالهم فقال سبحانه: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ
وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ] [التوبة 34]. أما في

¹ رواه احمد 212/31 رقم 18910، وحسنه شعيب الانزاووط

الإسلام فقد جعل الله القرآن متاحا للجميع يعلمون أحكامه، [وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ] [القمر 17]، بل إن عامة المسلمين ليقدرون على تمييز الحق من الباطل في أقوال وأفعال العلماء وأقوالهم بما علموه من آيات الله وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم. فلا يُعقل بعد هذا أن يُدَلِّس مُدَلِّس فيزعم أن الاسلام كغيره، وأنه ينبغي الخروج على تعاليمه بحال من الاحوال.

وللأسف أن المفتونين بالغرب قد أغلقوا أعينهم وأذانهم عن نتائج وآثار الحرية المزعومة على هذه المجتمعات. وفي لقاء جمعي بأحد كبار السن في أحد الدول الاسكندنافية - وكان ممن عمل في قوات حفظ السلام الدولية في لبنان وبعض الدول الافريقية - قال: اني أنتمي إلى جيل يسمى جيل المفاتيح. واستثار هذا المصطلح فضولي لمعرفة المزيد، وتابع الرجل مستطردا: إن من أسوأ ما جرّته علينا سياسات التحرر والانفتاح أن حطمت معنى العائلة والأسرة، ثم أشار الى ابنته التي كانت في الثلاثينات من عمرها وكانت جالسة في جانب من الصلاة تشاهد التلفاز، ورغم أنه كان قد فَقَدَ رجله الاثنتين بسبب مرض، إلا أنه عند مجيئها قام بنفسه بإعداد القهوة لها. ونظر إلي قائلا: أترى ابنتي هذه، هي أحد بنتين أنجبتهما، الأخرى لا أراها إلا فيما ندر وربما بالمصادفة. أما هذه فلولا أنني في كل مرة تأتي لزيارتي أعطيها مبلغا من المال ما كانت لتأتي أبدا.

أحببت أن أعيده إلى مصطلح جيل المفاتيح، فنظر إليّ باسمها وهو يتذكر تلك الأيام وكأنها حلم بعيد يتمناه أن يعود، وقال: أتذكر وأنا طفل صغير كيف كانت أمي تقف عند موعد عودة أبي من عمله في الغابات وقد أعدت الطعام، وسخت الماء ووضعت

الملح في الماء الساخن لتجلس عند قدمي والدي تدلكهما له، وهي في غاية الفرح بما تقوم به من خدمته، وكيف كنا نتسابق في تلبية أي أمر يطلبه. ثم فجأة انقلب الحال بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية حيث تغيرت الحياة في بدايات الخمسينيات من القرن الماضي، وطُلب من المرأة ترك المنزل للخروج للعمل. كان هذا الواقع الجديد في بدايته شيئاً حدثاً سيزيد من قدرات العائلات المادية، فدخلان في الاسرة خير من دخل واحد، وكانت المشكلة هو من سيرعى الأبناء في حال عودتهم من المدرسة ومن سيُعدّ لهم غداءهم فجاء الحلّ السحري، بأن الأبناء أيضاً سيتم ترتيب جدول دراستهم على مدار ثماني ساعات وسيتناولون غداءهم في المدارس. وبقيت المشكلة الوحيدة هي: ماذا لو غاب أحد المدرسين فهل سيضطر الأبناء للبقاء في المدرسة أو مغادرة المدرسة والتسكع في الشوارع؟! وكيف يمكن أن يفعلوا ذلك مع جليد السويد وثلوجها؟!!

ومرة ثانية جاء الحلّ السحري، كل طفل يبلغ من العمر الثالثة عشرة فما فوق يستطيع الحصول على مفتاح للبيت. ولك أن تتصور شابا يافعا في فورة الشباب والمراهقة بيده مفتاح بيت فارغ إلا منه ومن شهواته، وكذلك الفتيات. واختلط الحابل بالنابل، ومن أجل تجاوز الأخطار التي يمكن أن تصبح كارثية أصبح لا بدّ من تعليم هؤلاء الصغار الجنس الآمن، خوفاً من أن تحمل الفتيات والفتيان وهم يرون ثمار خطيئاتهم تؤخذ لتلقى في دور الرعاية، أو يُعطون لأسر ترعاهم بعيدا عن آبائهم وأمهاتهم. الذين لم يدركوا بعد معنى الأبوة والأمومة. واستقر مفهوم حرية التصرف بالجسد في أذهان الشباب والفتيات

فانغمسوا في لهيب الشهوات المحمومة، ينتقل الواحد منهم ومنهن من حزن إلى حزن. ومن ذلك الحين نشأ جيل هش، ضعيف ومنكسر، توفرت له كل أسباب الرفاهية، إلا أنه بعد ذلك أصبح غير قادر على مواجهة أي مشكلة من مشاكل الحياة، فأخذ الانتحار طريقه إلى هؤلاء الشباب والفتيات لأنفهم الأسباب.

ومع هذا الانفتاح على كل شهوة، وتوفر هذه الشهوات لكل باحث عنها، فقد انفلت العقال أكثر فأكثر، حتى لم تعد الشهوات الطبيعية بين الذكر والأنثى تشبع الرغبة المحمومة، فانساق كثيرون إلى الشذوذ الجنسي. ورغم أن المثلية الجنسية كانت في الماضي تُعدّ شذوذاً؛ إلا أنها الآن أصبحت واقعا ترعاه الدول الغربية ويحظى بالتأييد الشعبي. بل لقد أصبح قيمة مثلى من قيم وسياسات المجتمعات الغربية، ومجرد استنكاره أو استهجانها يُعتبر خطرا وتهديدا لقيم الديمقراطية المزعومة.

ومع هذه التطورات الجديدة كان لا بد من انهاء معارضة هذا الأمر والقضاء عليه، فكان لا بد من أخذ مباركة المؤسسة الدينية على ذلك، بالسماح بعقد عقود زواج المثليين في الكنائس وخارجها. وفي استفتاء عام لرجال الدين المسيحي في السويد حول جواز علاقة المثليين من الرجال والنساء كانت النتائج صاعقة:

76% أجابوا بأنه لا يوجد في الكتاب المقدس أي نص يحرم الزواج بين المثليين.

18% تحفظوا عن الاجابة بنعم أو لا

6% قالوا بأنها علاقة لا تجوز

وبالعودة الى العهدين القديم والجديد سنجد نصوص قاطعة بتحريم بل وتحريم هذه العلاقة، يقول العهد القديم: " وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ ذَكَرٍ اضْطِجَاعَ امْرَأَةٍ، فَقَدْ فَعَلًا كِلاَهُمَا رِجْسًا. إِنَّهُمَا يُقْتَلَانِ. دَمُهُمَا عَلَيْهِمَا" ¹.

وفي نص آخر يقول: " وَلَا تُضَاجِعْ ذَكَرًا مُضَاجِعَةَ امْرَأَةٍ. إِنَّهُ رِجْسٌ. وَلَا تَجْعَلْ مَعَ بَيْمَةٍ مَضْجَعَكَ فَتَتَنَجَّسَ بِهَا. وَلَا تَقِفِ امْرَأَةً أَمَامَ بَيْمَةٍ لِنِزَائِهَا. إِنَّهُ فَاحِشَةٌ. «بِكُلِّ هَذِهِ لَا تَتَنَجَّسُوا، لِأَنَّهُ بِكُلِّ هَذِهِ قَدْ تَنَجَّسَ الشُّعُوبُ الَّذِينَ أَنَا طَارِدُهُمْ مِنْ أَمَامِكُمْ، فَتَتَنَجَّسَتِ الْأَرْضُ. فَأَجْتَزِي ذَنْبَهَا مِنْهَا، فَتَقْدِفُ الْأَرْضُ سُكَّانَهَا" ².

وفي وضوح النصين ما يُعني عن الذهاب إلى أقوال أي مفسر، فالعقوبة الربانية فيهما واضحة منها ما جعل تنفيذه بيد الناس ومنها ما توعد بتنفيذه بنفسه.

أما في العهد الجديد فهناك نصان آخران من أقوال بولس: " أَمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الظَّالِمِينَ لَا يَرِثُونَ مَلَكُوتَ اللَّهِ؟ لَا تَضِلُّوا: لَا زِنَاةَ وَلَا عِبَادَةَ أَوْثَانٍ وَلَا فَاسِقُونَ وَلَا مَأْبُونُونَ وَلَا مُضَاجِعُو ذُكُورٍ، وَلَا سَارِقُونَ وَلَا طَمَاعُونَ وَلَا سِكِّيرُونَ وَلَا شَتَّامُونَ وَلَا خَاطِفُونَ يَرِثُونَ مَلَكُوتَ اللَّهِ" ³.

وفي نص آخر يقول: " لِذَلِكَ أَسَلَّمَهُمُ اللَّهُ إِلَى أَهْوَاءِ الْهَوَانِ، لِأَنَّ إِيَّانَهُمْ اسْتَبَدَّلَ الاسْتِعْمَالَ الطَّبِيعِيِّ بِالَّذِي عَلَى خِلَافِ الطَّبِيعَةِ، وَكَذَلِكَ الدُّكُورُ أَيْضًا تَارِكِينَ اسْتِعْمَالَ

¹ سفر اللاويين ترجمة فاندايك اصحاح 20 عدد 13

² سفر اللاويين ترجمة فاندايك اصحاح 18 عدد 22 - 25

³ رسالة بولس الاولى الى كورنثوس ترجمة فاندايك اصحاح 6 عدد 9 - 10

الأنثى الطَّبِيعِيَّ، اشْتَعَلُوا بِشَهْوَتِهِمْ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، فَأَعْدِلِينَ الْفَحْشَاءَ ذُكُورًا بِذُكُورٍ،
وَنَائِلِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ جَزَاءَ ضَلَالِهِمُ الْمُحِقَّ"¹.

وقد يتساءل سائل، إذا كان العهد القديم والجديد يحرم المثلية، فلماذا إذن وقفت الكنيسة
السويدية مثل هذا الموقف!!؟

والعارف بحال الوضع العام للكنائس الأوروبية سيعرف الجواب دون كبير عناء، ذلك
أن الكنائس بعد أن خلت من زوارها إلا فيما ندر من البقية الباقية التي ما زالت تقيم
للدين شيئا من الوزن في حياتها، وبقيت تشارك أحيانا في قداس الأحد أو قداس بعض
الجنائز ممن ظلوا متمسكين بعقائد دفن الميت وقيامته، بخلاف الغالبية العظمى التي
كفرت بالأديان، وأنكرت خالقها، ولجأت الى حرق الاجساد بعد الموت. إثر هذا كله
فإن الوضع الطبيعي أن تعتمد الكنيسة كليا على المساعدات التي تمنحها الدولة
لجمعيات والمؤسسات الثقافية والدينية. والسياسات العامة الحالية في الغرب تقوم على
ابتزاز هذه المؤسسات التي تتلقى الدعم من الحكومات، فهي أمام خيارين أحلاهما مرّ:
الأول: الثبات على الموقف مما يعني وقف المساعدات التي لا غنى عنها، وهذا قد يؤدي
إلى إغلاق الكنائس؛ وحتى بيعها، لعدم توفر الدعم الشعبي البديل عن مساعدات
الحكومة.

الثاني: موافقة الكنيسة للحكومة والسياسيين على كافة القوانين المستجدة وإن كانت

¹ رسالة بولس الى رومية ترجمة فاندايك اصحاح 1 عدد 26 - 27

تخالف النصوص الشرعية عندهم، مما يضمن استمرارية الكنائس وبقائها مفتوحة لزوارها. وقد أثبت الضغط الحكومي نجاعته مع الكنائس، وعليه فقد امتد ليشمل المساجد والكنس اليهودية على أمل أن تحظى الحكومة بتأييد ديني رسمي من المؤسسات الدينية المختلفة فيما تذهب إليه من قرارات تخالف تعاليم الأديان. ولما كان المسلمون رغم شحة مواردهم هم الأقدر على رعاية مساجدهم ودعمها لما ترسخ في قلوبهم من الإيمان عملاً بقوله تعالى: [إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ] [التوبة 18]، فقد رفضت المؤسسات الإسلامية مجازاة هذا الواقع الجديد على حساب معطيات الدين. لذلك أصبحت سياسة الإتهام الممنهج وتسيط الإعلام وتصيد هجمته على الأئمة والمؤسسات الإسلامية وسيلة رئيسة من أجل إجبار المسلمين على تقديم التنازلات. وقد نجحوا في جزء من ذلك، إلا أن المؤسسات الكبرى التي رضخت لهذا الابتزاز جعلت كثيرا من المسلمين في الغرب يفقدون ثقتهم فيها. إلا أن تنازلات هذه المؤسسات لم تصل إلى الحد الذي وصلت إليه الكنيسة وغيرها، وإن كان بعض الموتورين ممن ينتسبون إلى الإسلام وليس لهم مكانة تُذكر بين المسلمين ذهبوا يبيحون كثيرا من المحرمات ومنها إباحة المثلية وقيام هؤلاء بعقد نكاح المثليين.

إن الإسلام في تعامله مع الواقع ومستجداته قائم على أصول وأساسيات، ولذلك فإن أحكامه محفوظة بإذن الله بهذه الأصول، وما تجاوزها أحد إلا وجد من يرد عليه بدعته، وما وقع الناس فيما وقعوا فيه من الخطأ والانحراف إلا عندما جعلوا من الفروع أصولا

ومن الأصول فروعا فضّلوا وأضلّوا. ومن الأصول التي حفظت للمجتمع كيانه؛ أن التكليف الرباني للأفراد متناسب مع طاقاتهم وقدراتهم، لا يكلف الله نفسا إلا وسعها. فما يصلح للمرأة لا يصلح للرجل، وما يصلح للرجل لا يصلح للمرأة، وهناك ما يصلح للإثنان معا، وعندما يتطبع الإنسان لفعل شيء لا يصلح له فإنه يُفسد أكثر مما يُصلح.

وفي الغرب أصبح تطلع المرأة للوصول الى المساواة الكاملة مع الرجل أداة للهدم، وفي هذا الإطار راحت المرأة تفرض على نفسها تكاليف لا تتناسب مع إمكانياتها الطبيعية وقدراتها الفسيولوجية؛ من العمل في مجالات تحتاج للقدرات العضلية التي لا تتوفر للمرأة. كما أن البناء العظمي للمرأة يتأثر سلبا بالولادة والرضاع، مما يعني أن الاعمال التي تحتاج الى جهد عضلي لا تتناسب لا عقلا ولا واقعا مع إمكانيات المرأة. تماما كالذي يريد من الشاة ان تفترس ذئبا. وبالمقابل وجدنا الرجال يجترؤون على القيام بمسائل لا تليق الا بالمرأة، ومن ذلك محاولة قيام الرجال بتجارب الحمل كما النساء.

والاسلام منذ نزول القرآن جاء يحدد المهام في إطار صلاحية المكلف للتكليف، فنفى عن أهل الإيمان الاعتداء على تخصصات غيرهم، ومن ذلك قوله سبحانه: [مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ] [الاحزاب 4] فكل له مكانه وفعله فلا تصبح الزوجة أما تحرم على الرجل بسبب كلمة قائلها، ولا يصبح ابن الغير ابنا لمن يقوم على شأنه، ولا يصلح الرجل لحمل الأجنة حيث لا يمكنه أن يحمل في جوفه إلا قلبا واحدا هو قلبه، بينما المرأة تستطيع أن تحمل

في جوفها قلبين وثلاثة وأربعة من الاجنة. لهذا كله جاء النظام الاسلامي منسجما مع النفس البشرية منذ الولادة حتى المآل الى جنة أو نار. فحدد لكل فرد ذكرا وأنثى دوره في منظومة الحياة في سره وعلنه، حاضره ومستقبله، فردا كان أو مجموعة، وحدد له كذلك الحدود التي يجب أن يقف عندها لا يتجاوزها، لأن في تجاوزها خروج عن مهمته المناطة به، وفيها اعتداء وإفساد للمهام والطبائع والوجود.

ولما كانت المرأة أساس مكين من أسس المجتمعات، ودورها لا يقل أهمية عن دور الرجال، فهي الأم والاخت والابنة والعمة والخالة والزوجة، وامتهاها امتهان لكرامة الرجل في المساس بمحارمه، وهو فوق ذلك امتهان للمجتمع وفساد لمنظومته وضياع لأخلاقه. وقد أبدع أحمد شوقي إذ قال:

وَأَمَّا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنَّ هُمْ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

وحفظا للمجتمع من فساد أفراده، وإفساد مترفيه، جاء الاسلام يبيّن الأمة على مبدأ " درهم وقاية خير من قنطار علاج". وهو ما يُطلق عليه أهل العلم قاعدة درء المفسد. ودرء المفسد ودفعها وإزالتها أولى من جلب المصالح " فإذا تعارضت مفسدة ومصالحة؛ قدم دفع المفسدة غالبا، لأن اعتناء الشارع بالمنهيات أشد من اعتنائه بالمأمورات¹. وما نهى الشرع عن شيء إلا وقد عُلمت مفسدته وتحقق ضرره سواء كان عاجلا أو آجلا.

وهذا المبدأ هو الذي أوصل المجتمع الاسلامي الاول الى مراقي الكمال، فلما خرج الناس حكاما كانوا أو محكومين عن هذا المنهج انقلب الحال، وفسد المآل. إذ أن هذا

¹ الاشباه والنظائر للسيوطي ص 87

المبدأ إنما هو صورة من صور خشية الله تعالى وتقواه في السرّ والعلن، فمن علم مفسدة الدنيا وما فيها غير ذكر الله أصبحت الآخرة همه، ومن رأى في الدنيا مصلحته خسر آخرته، وفي الحديث عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»¹.

وفي هذا الإطار جاء تنظيم الإسلام لكافة مسائل الانسان في علاقته بما حوله من الموجودات، بتحديد ما يجب وما لا يجب، وما ينبغي وما لا ينبغي، وما هو مسموح وما هو ممنوع، وما هو مستحب وما هو مكروه، دون محاباة لأحد وفق قانون الخالق سبحانه الأعلّم بخلقه وما يصلح لهم وما يُصلحهم.

وكما بيّنت الشريعة ما يلزم لصلاح الذكور فقد بيّنت كافة ما يخص الأنثى المؤمنة من المسائل التي تحقق لها تميّزها وتفردا كمسلمة، قال جلّ وعز: [وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] [التوبة 71].
ومسألة تميز المسلم من المسائل التي أولتها شريعة الله أهمية كبرى، وذلك لإبراز الهوية الایمانية وتمييزها عن غيرها استعلاء بالایمان والتوحيد والقيم. ولتحقيق ذلك فقد طالب المسلمین بالتميز في عاداتهم وأعرافهم ومظهرهم وأعيادهم، عن أنس بن مالك، قال: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ وَهُمْ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ

¹ الترمذي 642/4 رقم 2465، والطبراني في الاوسط 363/8 رقم 8882، والبخاري 221/13 رقم 6704 وصححه الالباني في

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا هَذَانِ الْيَوْمَانِ؟ قَالُوا: كُنَّا نَلْعَبُ فِيهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، قَالَ: " إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا: يَوْمَ الْفِطْرِ، وَيَوْمَ النَّحْرِ " ¹

وقال العظيم أبادي في عون المعبود شارحا الحديث: " هما يوم النيروز ويوم المهرجان كذا قاله الشراح، والنوروز أول يوم تتحول الشمس فيه إلى برج الحمل. وأما يوم المهرجان فالظاهر أن يكون أول يوم الميزان، فكأن الحكماء المتقدمين المتعلقين بالهيئة اختاروهما للعيد في أيامهم، وقلدهم أهل زمانهم لاعتقادهم بكمال عقول حكمائهم، فجاء الأنبياء وأبطلوا ما بنى عليه الحكماء. ونهى عن اللعب والسرور فيهما أي في النيروز والمهرجان. وفيه نهاية من اللطف وأمر بالعبادة لأن السرور الحقيقي فيها. قال الله تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا. وفيه دليل على أن تعظيم النيروز والمهرجان وغيرهما أي من أعياد الكفار منهي عنه. قال أبو حفص الكبير الحنفي من أهدى في النيروز بيضة إلى مشرك تعظيما لليوم فقد كفر بالله تعالى وأحبط أعماله. وقال القاضي أبو المحاسن الحنفي نقلا عن أبي علي القاري: من اشترى فيه شيئا لم يكن يشتره في غيره، أو أهدى فيه هدية إلى غيره، فإن أراد بذلك تعظيم اليوم كما يعظمه الكفرة فقد كفر. وإن أراد بالشراء التمتع والتنزه، وبالإهداء التحاب جريا على العادة لم يكن كفرا؛ لكنه مكروه كراهة التشبيه بالكفرة حينئذ، فيحترز عنه. قاله أبو علي القاري ².

ومخالفة غير المسلمين من المشركين وأهل الكتاب والمجوس أصل في الشريعة، نصت عليها أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في أكثر من موضع، ومن ذلك حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " جُزُوا الشَّوَارِبَ، وَأَرْحُوا اللَّحَى خَالِفُوا الْمَجُوسَ " ³.

¹ رواه احمد 225/21 رقم 13622، وابو داود 295/1 رقم 1134، وصححه الالباني في صحيح وضعيف ابى داود

² عون المعبود شرح ابى داود للعظيم أبادي 342/3

³ صحيح مسلم 222/1 رقم 260

وذكر في أسباب الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً له شارب طويل فقال خذ من شاربك فإنه أنقى لموضع طعامك وشاربك وأشبه بسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم وأعفى عن الجذام وأبرأ من المجوسية¹

ولما كان التمييز مطلوباً في مظهر الرجال فهو في مظهر المرأة من باب أولى، ولذلك جاء الأمر الإلهي فيه محكماً واضحاً لا لبس فيه ولا شك معه فقال جلّ وعزّ أمراً نبيه صلى الله عليه وسلم أمراً لأمته: [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا] [الأحزاب 59]. فالمؤمنة بإيمانها وبجهاها اللائق بإيمانها على الوصف الذي جاءت به الشريعة هو الضمان لعدم ائذاء المسلمة برخيص الكلام ومبتذل الأخلاق. ولكن بعض من تنكبوا الطريق في زماننا ممن أتوا بزخرفٍ من القول وزورا، راحوا يلبسون على الناس دينهم بتأويلات خرجت عن فهم الأمة كلها من عصر النبوة الى يومنا هذه، وخرجوا حتى على مدلولات اللغة بما لا تحتمل. فزعموا بجهلهم ان لا دليل في الشريعة على غطاء الرأس، وأن ما جاء في قوله تعالى: [وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ] [النور 31] يعني فقط تغطية النحر وليس تغطية الشعر. وعرفه محمد بن ابي نصر الحميدي المتوفى سنة 448 للهجرة في تفسير كلمات الصحيحين بقوله: الخُمُر: جمع خمار وهو ما تخمر المرأة به رأسها أي تستره وتغطيه كالمقنعة أو ما جرى مجراها².

وعرفه الإمام الباجي القرطبي من شراح الحديث في المنتقى شرح الموطأ: " الظاهر أنه يريد الوجه والكفين؛ لأن المرأة يجب عليها أن تستر منها في الصلاة كل موضع لا يجوز

¹ البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف لابن حمزة الحسيني 18/2

² تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم لابن ابي نصر الحميدي ص 181

أن يراه القرباء، وليس يجوز لها أن تظهر في الصلاة إلا وجهها وكفيها، وفي ذلك دليل على أنه لا يجوز للقربى أن يروا منها ذلك والله أعلم¹. وهو مصداق ما ورد عن ابن جبير والضحاك والاوزاعي في تفسير ولا يبيدين زينتهن الا ما ظهر منها: فقالوا هي الوجه والكفين. وقال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري بعد أن ساق أقوال العلماء فيما يباح للمرأة إظهاره وليلقين خُمُرهنَّ، وهي جمع خمار، على جيوبهنَّ، ليسترن بذلك شعورهنَّ وأعناقهنَّ وفُرْطَهُنَّ².

وقال ابن عبد البر في الاستذكار: والذي عليه فقهاء الأمصار بالحجاز والعراق أن على المرأة الحرة أن تغطي جسمها كله بدرع صفيق سابغ وتخمّر رأسها فإنها كلها عورة إلا وجهها وكفيها وأن عليها ستر ما عدا وجهها وكفيها، واختلفوا في ظهور قدميها³.

وفيما صحَّ من حديث أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها ما تقوم به الحجة، وتنقطع معه المحجة، ويرد باطل المبطلين الى نحورهم، قالت: " لَمَّا نَزَلَتْ: {يُذْنِبْنَ عَلَيْنَهُنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ} [الأحزاب: 59]، خَرَجَ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ كَأَنَّ عَلَى رُؤُسِهِنَّ الْعُرْبَانَ مِنَ الْأَكْسِيَّةِ"⁴

وفي الأمر الإلهي نص بنفي التمايز بين النساء على اختلاف أحوالهن ومكانتهن، فلا فرق بين امرأة وأخرى، كلهن سواء، لا تفضل زوجة الحاكم أو ابنته أو احد محارمه عن نساء المسلمين. وقد يغفل البعض عن حقيقة تضمنها النص وإن لم تظهر فيه، فالخطاب

¹ المنتقى شرح الموطأ للباحي القرطبي 183/6

² تفسير الطبري 159/19

³ الاستذكار لابن عبد البر 201/2

⁴ ابو داود 61/4 رقم 4101 وصححه الألباني في صحيح وضعيف ابي داود

بستر المرأة لا يشمل فقط المسلمات في المجتمع المسلم بل يشمل كل انثى تعيش في هذا المجتمع وإن كانت على غير الإسلام، ذلك أن الله سبحانه قال: [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ] [الأحزاب 59] وقوله ونساء المؤمنين لا يختص بالمؤمنات فحسب بل كل امرأة يجوز للمسلم نكاحها من الكتابيات. ودفعاً لقول القائل كيف تجعلون من غير المسلمة جزءاً من المجتمع المسلم، ثم تطلبون منها التزام ما يتعلق بالمسلمين من أحكام. فالجواب على ذلك يتضمن مسألتين هامتين:

الأولى: أن الله أباح للمسلم الزواج بالكتابية بقوله تعالى: [الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ] [المائدة 5]. فهي بزواجها من المسلم جزء من المجتمع المسلم، مرتبطة بزواجها وبنائها المسلمون الذين ولدتهم من نكاحها بالمسلم.

الثانية: أن ما تُطالبُ به غير المسلمة ليست أحكام التكليف كالعبادات وغيرها، بل هي الأحكام العامة للمجتمع المسلم، من وجوب الستر ودرء الفتن والمفاسد. ولما كان الخطاب عام لكل نساء المجتمع المسلم فهو شامل لكل من يعيش فيه. ولا شك لأن هذا يولد سؤالاً في غاية الأهمية وهو: لو أن هذه المرأة الغير مسلمة رفضت الحجاب فهل ستفرضونه عليها فرضاً؟؟!!

والجواب أن الإسلام لم يُكره غير المسلم حتى على التوحيد وهو اسمى واعظم وأهم أمر في الإسلام، فمن باب أولى أن لا يفرض على غير المسلم التزام الأحكام الفرعية في الإسلام. ولهذا فقد جاء الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم بلفظ (قل) ولم يقل (إفرض)، فأنت تقول وللسامع أن يُلبي أو يرفض. بما أن النظام الإسلامي له قوانينه لكل الأفراد والجماعات التي تعيش في كنفه، فالإنسان بالخيار بين أن يعيش في المجتمع المسلم بقانون المجتمع المسلم أو أن يرفض ذلك فيخرج من هذا المجتمع. لا إلزام له بقانون، وليس له أن يلزم النظام الإسلامي بسلوكه وطريقة حياته التي يريدتها.

والإسلام عند خطابه للرجل والمرأة ببناء العائلة؛ جعل لذلك قواعد مثلى تهدي الى سواء السبيل في كيفية اختيار الشريك الذي تنسجم معه الحياة وتستقر البيوت، يُعين بعضهم بعضا على الطاعة والخير. سواء كان هذا الشريك مسلما أو غير مسلم. وابتداء عقد المسلم عند الزواج مع غير المسلمة أنه إنما يتزوجها على شرط الله سبحانه [آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ]، فقد اشترط الله على المسلم أن يتزوجها مع حفظ كرامتها كأنثى، فيلتزم بأداء ما فرض الله لها من المهر والقيام على أمرها، محصنا لها كزوجة لا كعشيقة. ولهذا جاء في وصية النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَحَدْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَحَلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَإِنَّ لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئَنَّ فُرُوشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ"¹.

¹ رواه مسلم 886/2 رقم 1218

ولما قبلت الكتابية الاقتران بالمسلم زواجا بكلمة الله، فهو إقرار بقبولها العيش في كنف المسلم وفق تعاليم كلمة الله. فإن أبت ذلك فما بينها وبين المسلم يقوم على إمساك معروف أو تسريح بإحسان، عملا بقوله تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِرِزْوَانِكِ إِنَّ كُنُتُ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا] [الاحزاب 28].

ولذلك جاءت نصوص القرآن تنهى عن زواج غير المسلمات والكتابيات لعدة عدم إيمان غير هؤلاء بكلمة الله والخضوع لها، وذلك أن الحجاب تشريع في كافة الأديان السماوية، بل لم تكن المرأة بحسب نصوص العهد القديم تكشف وجهها، ومنه على سبيل المثال لا التفصيل، فعل رفقة زوجة اسحاق لما رآته قبل زواجها منه: " وَرَفَعَتْ رِفْقَةُ عَيْنَيْهَا فَرَأَتْ إِسْحَاقَ فَتَزَلَّتْ عَنِ الْجَمَلِ. وَقَالَتْ لِلْعَبْدِ: «مَنْ هَذَا الرَّجُلُ الْمَاشِي فِي الْحُقُلِ لِلْقَائِنَا؟» فَقَالَ الْعَبْدُ: «هُوَ سَيِّدِي». فَأَخَذَتِ الْبُرْجِعَ وَتَعَطَّتْ"¹. وكذلك العهد الجديد نص على تغطية المرأة لرأسها، " إِذِ الْمَرْأَةُ، إِنْ كَانَتْ لَا تَتَعَطَّى، فَلْيُقَصَّ شَعْرُهَا. وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا بِالْمَرْأَةِ أَنْ تُقَصَّ أَوْ تُحْلَقَ، فَلْتَتَعَطَّ. فَإِنَّ الرَّجُلَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْطِيَ رَأْسَهُ لِكَوْنِهِ صُورَةَ اللَّهِ وَمَجْدَهُ. وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَهِيَ مَجْدُ الرَّجُلِ.. الى أن يقول: لهذا يَنْبَغِي لِلْمَرْأَةِ أَنْ يَكُونَ لَهَا سُلْطَانٌ عَلَى رَأْسِهَا، مِنْ أَجْلِ الْمَلَائِكَةِ"². وبهذا تتضح حكمة الشارع في زواج المسلم من الكتابية وتحريم غير المسلمة وغير الكتابية، قال تعالى: [وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ

¹ سفر التكوين ترجمة فاندايك الاصحاح 24 عدد 64 - 65

² رسالة بولس الاولى الى كورنثوس الاصحاح 11 عدد 6 - 10

إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [البقرة 221].

وعليه فإن المسلم لو تزوج بامرأة وحتى لو كانت مسلمة غير محجبة، فعليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة. ومن بعض ما أثاره بعض العلمانيين العرب استنكارهم لمطالبة النساء بالحجاب في المجتمع المسلم في الوقت الذي يعيش المسلمون فيه أوروبا بكل حرية، ويتناسى هؤلاء الهجمة الشرسة التي يشنها الإعلام الغربي على الحجاب والالتزام، كما تغافل هؤلاء أن المسألة مسألة قانون فلا يجوز لأي مواطن الخروج على قانون البلد الذي يعيش فيه، كما أن الإسلام في تشريعاته مع القوانين الأخيرة التي استجدت في الغرب بخصوص الحجاب لم يقف موقف المحارب للمجتمعات الغربية وقوانينها، ولم يخرج عن أصول الأحكام التي أقرها منذ بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ونزول آيات الكتاب الى عصرنا هذا.

وكما أُلزم الإسلام المسلمين بالتوحيد وما يتفرع عنه من احكام العبادات والمعاملات، كذلك بيّن أحكام العيش في أوساط غير المسلمين، فأباح للمسلم الهجرة الى بلاد غير المسلمين طلبا للأمن والرزق ما لم يُمنع من حقه في ممارسة عباداته ودينه بحرية، فإن مُنِعَ من ذلك فليس له الاساءة لمن فتحوا له ديارهم وبلادهم، بل عليه في حال لم يستطع الحصول على هذه الحقوق بالطرق القانونية السلمية أن يرحل من هذه البلاد. قال تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ

مَصِيرًا][النساء 97]. واستثنى الرب جلّ وعزّ من ذلك فئة ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وانقطعت بهم السُّبُل، فلا هم وجدوا مكانا يأمنون به على أنفسهم ودينهم، ولا هم يُسمح لهم بالمحافظة على هويتهم كمسلمين بسبب القوانين التي تمنعهم من ذلك، فهؤلاء وقد علم الله حالهم؛ وعدهم بالعفو والغفران، فقال جلّ وعزّ: [إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَّا يَسْتِطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا. فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا][النساء 98 – 99].

ومن العجب أن هؤلاء الذين يثيرون هذه الشبهات للطعن في الاسلام والمسلمين لم يلتفتوا الى واقع يفضح حقيقة مزاعمهم، فالمسلمون اليوم حتى في المجتمعات الاسلامية التي تحكمها الأنظمة العلمانية يعيشون كمسلمين، ولا يفرضون على الناس أمرا لا يريدونه بالإكراه، فليس في مجتمعاتنا قضايا تُسجّل أن المسلمين يخرجون من مساجدهم يعيشون في الأرض فسادا ويعتدون على الناس لعدم التزامهم بشريعة الله، سواء في الحجاب، أو حتى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة. بل الأعجب أن المسلمون الملتزمون هم أكثر الناس تعايشا والتزاما بالقوانين كالضرائب وغيرها. ومن يتحدث عن بعض حالات في المجتمعات المسلمة من اعتداءات ينفذها بعض الجهلة باسم الدين، عليه أن ينظر الى موقف أهل العلم من المسلمين بل وغالبية المسلمين من هؤلاء.

ولنا أن نتساءل، لماذا تستنكرون على الاسلام أن يفرض قانونه على المجتمع الذي يحكم فيه، وتبيحون لغير الاسلام أن يحكم الناس بقانونه!!!

أليس من العدل أن تتعاملوا مع الناس بالعدل في مقاضاة الجميع بنفس الميزان!!؟
ولكنهم كما قال ربنا سبحانه، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في
الصدور.

إن التزام المسلم بدينه مسألة يحددها هو بدينه، وكما أن للمرأة حرية اختيار التدين من
عدمه عند العلمانيين، فإن من حق المسلم أيضا أن يختار لنفسه، وكما أن للزوجة الحق
في اختيار طريقة حياتها، فكذلك للزوج أن يختار تسريحها لعدم اتفاق طريقه معها. ومن
اختارت دنيها على دينها فلها النصح فإن لم يجد النصح نفعاً؛ فإن من اختارت الدنيا
على الآخرة مهما استطال الأمر فستكون النتيجة الانفصال طال الزمن أو قصر. ومن
ترك زوجها لأجل دنيا فللزوج تركها لأجل دين، وما يروّج له البعض من ضياع الأبناء
بسبب ذلك أجاب عنه سبحانه بقوله: [وَلِيَحْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً
ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا] [النساء 9]، وكما حفظ الله كثر
اليتيمين لصالح أبيهما فسيحفظ الأبناء لتقديم أباهما أمر الله على أمر زوجته. وليس
بأدل على ذلك من ورود النص بذلك في سياق سورة الطلاق الذي فيه مظنة ضياع
الأسرة، فقد قال جل وعز: [فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ
وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوَعِّظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا] [الطلاق 2 - 3].

والمؤمن مبتلى، فإذا وقع البلاء وأعظمه ما كان بلاء في الدين، فقد جاءت نصوص

الشريعة تعلّم المؤمن ما فيه صلاح أمره فبيّنت الحلول التي يجب العمل بها مما يقدر عليه، فإن عجز عن الحلول بإمكاناته وقدراته، علّمه الالتجاء لمسبب الأسباب، ومن ذلك حديث أم سلمة قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: " مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ: {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة: 156]، اللَّهُمَّ اجْرِنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَجْرَهُ اللَّهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا "، قَالَتْ: فَلَمَّا تُؤَيَّبُ أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ: كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي خَيْرًا مِنْهُ، رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"¹.

حجاب المرأة المسلمة

الحجاب: السُّتْر. حجبت الشَّيْءَ أحجبه حجبا إذا سترته. وَكَذَلِكَ فسر في التَّنْزِيلِ: {حِجَابًا مَسْتُورًا} أي ساترا وَالله أعلم. وكل شَيْءٍ حجبك فقد سترك. واحتجبت الشَّمْسُ فِي السَّحَابِ إِذَا اسْتترت فِيهِ. وحاجب كل شَيْءٍ: حرفه¹.

ولفهم المقصد الشرعي في استخدام الالفاظ المتعلقة بالستر في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فلا بد من التفريق بين معاني هذه الألفاظ. قال العسكري: الفرق بين الستر والحجاب والغطاء أنك تقول حجبتني فلان عن كذا، ولا تقول سترتني عنه، ولا غطاني. وتقول احتجبت بشيء، كما تقول تسترت، فالحجاب هو المانع والممنوع به، والستر هو المستور به، ويجوز أن يقال حجاب الشيء ما قصده ستره. ألا ترى أنك لا تقول لمن منع غيره من الدخول إلى الرئيس داره - من غير قصد المنع له - إنه حجبه، وإنما يقال حجبه إذا قصد منعه. ولا تقول احتجبت بالبيت إلا إذا قصدت منع غيرك عن مشاهدتك. ألا ترى أنك إذا جلست في البيت ولم تقصد ذلك لم تقل إنك قد احتججت. وفرق آخر أن الستر لا يمنع من الدخول على المستور، والحجاب يمنع².

قال سبحانه: [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا] [الأحزاب 59]. والجلباب لغة: قالت العامرية: الجلباب الخمار. وقيل: جلباب المرأة ملاءتها التي تشتمل بها، واحدها جلباب، والجمع جلابيب. وقال الليث: الجلباب: ثوب أوسع من الخمار

¹ جمهرة اللغة لابن دريد 263/1

² الفروق اللغوية للعسكري ص 288

دون الرداء، تغطي به المرأة رأسها وصدرها، قال أبو عبيد قلت: ومعنى قول ابن الأعرابي: الجلباب الإزار، ولم يرد به إزار الحقو، ولكنه أراد به الإزار الذي يستعمل به فيجلل جميع الجسد، وكذلك إزار الليل هو الثوب السابع الذي يشتمل به النائم فيغطي جسده كله¹.

وعليه لم يُترك حجاب المرأة لأهواء الناس ورغباتهم، بل جاءت له أوصاف محددة في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، ومن صفات حجاب المرأة المسلمة:

أولاً: أن يكون ساتراً للجسد كله: ودليله حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وقد فصلَّ الشيخ الالباني في كتابه جلباب المرأة المسلمة في تتبع طرقه، سواء في رواية الطبراني، أو أبو داود، أو رواية البيهقي، وكلها تدل على جواز ظهور وجه المرأة وكفيها².

ثانياً: أن لا يكون رقيقاً يُظهر ما تحته: ودليله ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا، قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٍ عَارِيَاتٍ مُمِيلَاتٍ مَائِلَاتٍ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُحْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لِيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا»³.

ثالثاً: أن يكون فضفاضاً لا يصف: عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: كَسَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُبْطِيَّةً كَثِيفَةً كَانَتْ مِمَّا أَهْدَاهَا دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ، فَكَسَوْتُهَا امْرَأَتِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَا لَكَ لَمْ تَلْبَسِ الْقُبْطِيَّةَ؟ " قُلْتُ:

¹ تهذيب اللغة للهروي 65-64/11

² انظر حاشية جلباب المرأة المسلمة للشيخ الالباني ص 58-59

³ صحيح مسلم 168/3 رقم 2128

يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَسَوْهُمَا امْرَأَتِي. فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مُرَّهَا لَتَجْعَلَ تَحْتَهَا غِلَالَةً، إِيَّيَّيْ أَحَافُ أَنْ تَصِفَ حَجْمَ عِظَامِهَا " ¹.

رابعاً: أن لا يكون معطراً أو يفوح منه الطيب والبخور: استقبل أبو هريرة امرأة متطيبة، فقال: أين تريدين يا أمة الجبار؟ فقالت: المسجد. فقال: وله تطيبت؟ قالت: نعم. قال أبو هريرة: إنه قال: " أيما امرأة خرجت من بيتها متطيبة تريد المسجد، لم يقبل الله عز وجل لها صلاة حتى ترجع فتغتسل منه غسلها من الجنابة " ².

ودلالته أنه إن لم يقبل الطيب لمن ستقف بين يدي ربحها، مع وجود الأمر بالتزين لذلك لقوله تعالى: [يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ] [الاعراف 31]، فمن باب أولى أن يكون ذلك ممنوعاً في ما هو دون الصلاة. إذ أن لربما إثارت بعطرها شهوة من في الصلاة فلا شك في أن من كان خارج الصلاة لو وجد ريحها كان أشد لها اشتهاً، وفي أحاديث أخر عدّها بمثابة الزانية والعياذ بالله.

خامساً: أن لا تتشبه بلبس الرجال: عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم «لَعَنَ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَلَعَنَ الْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ» ³.

سادساً: أن لا تتشبه بلباس الكافرات: والنهي عن مشاهمة أهل الكفر جاء مطلقاً في

¹ مسند أحمد 120/36 رقم 21786 وصححه شعيب الأرنؤوط والشيخ اللبناني في جلاب المرأة المسلمة ص 131

² رواه احمد 311/12 رقم 7356 وابن ماجه 1326/2 رقم 4002 وابو داود 79/4 رقم 4174، والبخاري 44/15 رقم 8254، والبيهقي 191/3 رقم 5375، وابن خزيمة 92/3 رقم 1682 وصححه اللبناني في صحيح ابن ماجه

³ رواه ابن ماجه 1904، والطبراني في الكبير 307/11 رقم 11823 وصححه اللبناني في صحيح وضعيف ابن ماجه.

كل مسائل الشريعة أصولها وفروعها، فوجب مخالفتهم في الاعتقاد بغير ما انزل الله، وكذلك في الاحكام والآداب والعادات، وورد النهي عن اتباع أهوائهم في شيء من مسائل الدين والوحي في غير موضع في القرآن الكريم. وأما في السنة فعن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُحْمِي، وَجُعِلَ الذَّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ " ¹.

سابعاً: أن لا يكون لباس شهرة: ولباس الشهرة هو ما يراد به التمايز عن الناس إما فخراً، أو كبراً، أو عُجباً، أو سمعة، غلا ثمنه أو رخص كثوب الزهد والتقشف. وفي ذلك حدّث ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " «لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ حِيَلًا» ². وعنه أيضاً: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ لَيْسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ فِي الدُّنْيَا، أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ مَدَلَّةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ أَهْلَبَ فِيهِ نَارًا» ³.

ثامناً: أن لا يكون ثوب تبج وزينة: عن فضالة بن عبيد، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ثَلَاثَةٌ لَا تَسْأَلُ عَنْهُمْ: رَجُلٌ فَارَقَ الْجُمَاعَةَ، وَعَصَى إِمَامَهُ، وَمَاتَ عَاصِيًا، وَأَمَةٌ أَوْ عَبْدٌ أَبَقَ فَمَاتَ، وَامْرَأَةٌ غَابَ عَنْهَا زَوْجُهَا، قَدْ كَفَاهَا مُؤْنَةَ الدُّنْيَا فَتَبَرَّجَتْ بَعْدَهُ، فَلَا تَسْأَلُ عَنْهُمْ، وَثَلَاثَةٌ لَا تَسْأَلُ عَنْهُمْ: رَجُلٌ نَازَعَ اللَّهَ رِدَاءَهُ، فَإِنَّ رِدَاءَهُ الْكِبْرِيَاءُ وَإِرَارَهُ الْعِزَّةُ، وَرَجُلٌ شَكَّ فِي أَمْرِ اللَّهِ وَالْقَنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ⁴.

¹ مصنف ابن ابي شيبة 33016، واحمد 5115، وابو داود 4031، وصححه الالباني في ارواء الغليل 109/5 رقم 1269

² متفق عليه، رواه البخاري 141/7 رقم 5783، ومسلم 1651/3 رقم 2085

³ رواه احمد 353/10 رقم 6244، وابن ماجه 1192/2 رقم 3607، وابو داود 43/4 رقم 4029، والنسائي 389/8 رقم 9487

9487 وصححه الالباني في مشكاة المصابيح 1246/2 رقم 4346

⁴ رواه احمد 368/39 رقم 23942، والبراز 4/ 204 رقم 3749، والطبراني في الكبير 18 /306 رقم 788، وصححه الالباني

في الصحيحة 81/2 رقم 542

وما نراه اليوم من ثياب المسلمات مما يعتقدن أنه ثياب ظاهرها الإحتشام، إلا أنهن يظهرن وكأنهن في حفل لعرض الأزياء. فلا تكاد تجد إلا ثيابا تفصل أجساد النساء وتبرز مفاتنهن، ناهيك عن الألوان الزاهية والمزركشة واللافتة للنظر. ومما ابتليت به الأمة في آخر زمانها جعل اللباس الإسلامي موضة من الموضات، تتفنن فيه النساء في استخدام غطاء الشعر بأشكال وطرق متعددة، وقد تغطي شعرها وتخرج بالماكياج كالعروس في يوم زفافها. ومنهن من تضع الحجاب على رأسها وقد ارتدت ثيابا ضيقة تفضح كل جزء من تفاصيل جسدها. ومن النساء - ممن اعتدن في ديار الاسلام لبس الحجاب الساتر الفضفاض - لما انتقلن الى الغرب تغيرت ثيابهن، وقصرن جلابيبيهن، واكتفين بديلا عن الجلباب بالجاكيت الذي لا يكاد يغطي اردافهن. وكل واحدة تظن أن مجرد الإقامة في الغرب تبيح لها ترك أمر ربها مجاراة للواقع، ظنا منها أن جلبابها سيكون مانعا لها من تحصيل وظيفة، أو عمل تعتاش منه. وغفل هؤلاء عن تعاليم رسول الله صلى الله عليه وسلم، واضطرب اليقين على ذات الله بما وسوس لهن به شياطين الانس والجن من تزيين للباطل، وشك فيما وعد الله سبحانه. عن ابن مسعود رضي الله عنه: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يُقَرَّبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُبْعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ إِلَّا قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُقَرَّبُكُمْ مِنَ النَّارِ وَيُبْعِدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا قَدْ هَمَيْتُكُمْ عَنْهُ، وَإِنَّ الرُّوحَ الْأَمِينَ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ حَتَّى تَسْتَوِي رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلُكُمْ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعَاصِي اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ»¹.

وفي نفس المدار نجد الشريعة كما فصلت في موضوع حجاب المرأة، لم تغفل عن ما قد يتعرض له الإنسان من مغريات يراها، ولذلك جاء النهي في الكتاب والسنة عن إطلاق

¹ مصنف ابن ابي شيبة 34332، والبخاري من رواية حذيفة 2914، وصححه الالباني في الصحيحة 2866

النظر، وأمر بغض البصر لأن العيون مغارف القلوب، فإذا ما أمعن النظر الى الحرام استقر في القلب أثره، وتداعت الشهوة فيه بما جنى عليه بصره. ولهذا أمر الله عباده بغض البصر فقال جل وعز: [قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ حَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا] [النور 30-31]. ولمراعاة الشرع لما جُبلت عليه المرأة من حب الزينة فقد فصل الشرع لها أحكاما تتلائم مع فطرتها، وأباح لها إظهار جمالها وأنوثتها في إطار البيئة المناسبة التي تحفظ لها كرامتها، وتحوطها برعايتها حرصا عليها وحبا لها، من الآباء والابناء والاخوة والمحارم.

وكما نهى عن النظرة الحرام، نهى عن الصوت الحرام، فقال سبحانه: [يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا] [الأحزاب 32]، والنهي عن الخضوع بالقول ليس مختصا بنساء النبي صلى الله عليه وسلم لوحدهن، بل هو عام لجميع النساء. فهو خاص أريد به العموم، وعليه فيجب أن يكون أظهر في نساء النبي صلى الله عليه وسلم لما اختصهن الله به من شرف الانتساب اليه، فإذا كانت نساء النبي اللواتي حرمهن الله على المؤمنين أمرن بذلك فمن باب أولى أن تكون المباحات من النساء مشمولات في تحريم الخضوع بالقول. فأشار الى أن حسن الظن قد يورد موارد الهلكة، ذلك أن المجتمع فيه السليم وفيه السقيم، ودرءا لما يترتب على القول من مفسدة الانجرار به خلف مرضى القلوب الذين يتحينون الفرص للوصول الى الحرام، فقد جاء النهي لسد الذرائع حفاظا على المسلمات والمجتمع كله.

وفي ترسيخ هذا المعنى ذكر سبحانه قصصا تنمي هذا الخلق الرفيع في قلوب النساء،

فذكر كيفية الخطاب بين المؤمن التقي، والمؤمنة التقية، في قصة موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين، فأظهر سبحانه صورة واضحة لحال المؤمنة عند اضطرارها الى الخروج من بيتها، وكيفية تعاملها مع الرجال اذا فرضت عليها الظروف ذلك، فقال سبحانه: [وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْتَأْذِنُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ] قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ] [القصص 23]، وهنا تتجلى عظمة الإيمان والالتزام، الابتعاد عن الاختلاط بكل معانيه، لا نسقي حتى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ، قد يطول الوقوف، وتتعب الأقدام، لكن أمر الله أولى بالاتباع. ولم يكن الخروج رغبة أو شهوة، لكنه الضرورة التي أجبرت المرأة على الخروج، وهي عدم قدرة الرجل على القيام بالمهمة، ثم عدم وجود البديل الذي يقوم بهذه المهمة.

وفي الوقت ذاته، يتجلى موقف المؤمن بعمل الخير دون أن تخالط نية السوء قلبه، [فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ] [القصص 24]، وبمقدار الاخلاص والوفاء يكون الجزاء، فإذا بأمر صاحب الأمر يصدر أمره من السماء، [فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ] [القصص 25] وكما كانت البداية بالكلام المقتضب، جاء النداء بالاستحياء الذي هو عنوان الايمان كله، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الإيمانُ بضعٌ وسبعون - أو بضعٌ وستون - شعبةٌ، فأفضلها قولُ لا إلهَ إلا اللهُ، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق، والحياؤُ شعبةٌ من الإيمان»¹. ولحيائها ومعرفتها بحدودها وجهلها من تخاطب، نسبت الدعوة لأبيها لا إلى نفسها، قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا. ومن مظاهر حيائها فيما نقله أهل التفسير من أنها كلمته وهي

¹ متفق عليه، رواه البخاري 11/1 رقم 9 ومسلم 63/1 رقم 35

تضع يديها وكمها على وجهها، ومن مظاهر ورعه أن طلب منها أن تسير خلفه لا أمامه حتى لا تصف الريح إن هبّت جسدها وهي تسير أمامه. وكانت النتيجة الحتمية لتحقيق أمر الله سبحانه، حصول اللاجئ الطريد على إقامة دائمة ثماني الى عشر سنوات، ومسكن، وعقد عمل، وزوجة.

وكذلك فإن المرأة بالتزامها أمر الله، وتحقيق خلق الحياء، لم ترهق نفسها بالبحث عن الزوج المناسب صاحب الخلق، ولم تحتج الى وسائل التواصل الالكترونية لتلتقي بالكذبة الذين سيكون أحدهم فارس أحلامها، بل جاءها المؤمن قدرا من الله سبحانه كأنها كانت معه على موعد في رحاب الإيمان، ليتحقق لها ما آمنت به من وحي الله سبحانه: [وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا] [الطلاق 2-3]

سنن لا تتغير

اقتضت مشيئة الله سبحانه وتعالى سننا في الخلق لا تتبدل ولا تتغير بتغير الزمان ولا المكان، وجعلها سبحانه آيات وبصائر ليستيقن الذين آمنوا ويزدادوا إيماناً مع إيمانهم، ويزودوا بما ينفعهم من الزاد لميعادهم وهم سالكون في طريقهم الى ربهم. ومن ذلك سنة الابتلاء، وأن طريق النجاة تعورها المشقات، وتحققها الصعوبات، وتعترضها العقبات، فلا يستطيع الاستمرار فيها إلا من تزود بصدق القلب وخالص النية. قال جلّ وعز: [أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ] [البقرة 214]. وفي الحديث عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ قَالَ لِجِبْرِيلَ: اذْهَبْ فَانظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَانظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، ثُمَّ حَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَانظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ حَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ " قَالَ: " فَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ النَّارَ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَانظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا، فَحَفَّهَا بِالشَّهَوَاتِ ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَانظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ حَشِيتُ أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا"¹.

وقديما قالوا إذا عُرِفَ السببُ بَطُلَ العَجَبُ، فقيمة الشيء أحيانا تظهر في ثمنه، أو في شدة العناية الذي يُبذل في سبيله، وفي أعراف الناس أن من أراد المكانة والرفعة سواء الاجتماعية أو المهنية، بذل في سبيل ذلك من ماله ووقته وجهده، ألا ترى الى شيوخ

¹ مسند احمد 125/14 رقم 8397، وابو داود 236/4 رقم 4744، والترمذي 693/4 رقم 2560، والنسائي 3/7 رقم 3763،

وابن حبان 406/16 رقم 7394 وصححه اللبناني في صحيح وضعيف الترمذي والنسائي وابي داود

العشائر يبدلون من حرّ ما لهم، و يقيمون الولائم إكراما لضيوفهم وأفراد عشيرتهم. وكذلك بعض المهن كالطب والهندسة وغيرها، يكّد الانسان شابا في الدراسة ويبدل الوالدان المال لتعليم ابنهما ليحظى بشرف العلم وتحصيله. وكذلك ترى الشاب يكّد ويتعب لتحصيل المال ليقدمه مهرا للفتاة التي يرغب بها ويستريح اليها قلبه، قال الشاعر والنحوي ابن هشام الأنصاري

وَمَنْ يَصْطَبِرَ لِلْعِلْمِ يَظْفَرِ بِنَيْلِهِ وَمَنْ يَخْطُبِ الْحَسَنَاءَ يَصْبِرُ عَلَى الْبَدْلِ
وَمَنْ لَا يُدِلُّ النَّفْسَ فِي طَلَبِ الْعُلَا يَسِيرًا يَعِشُ دَهْرًا طَوِيلًا أَخَا ذُلِّ

وقال أبو فراس الحمداني¹:

تَهَوُّنُ عَلَيْنَا فِي الْمَعَالِي نُفُوسُنَا وَمَنْ خَطَبَ الْحَسَنَاءَ لَمْ يَغْلُهَا الْمَهْرُ

عن ابن عباس قال: " لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا شاب، قلت لشباب من الأنصار: يا فلان هلم فلنسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولنتعلم منهم؛ فإنهم كثير، قال: العجب لك يا ابن عباس أتري أن الناس يحتاجون إليك وفي الأرض من ترى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: فتركت ذلك وأقبلت على المسألة وتتبع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن كنت لآتي الرجل في الحديث يبلغني أنه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجده قائلا - نائما القيلولة - فأتوسد رداي على بابه تسفي الريح على وجهي حتى يخرج، فإذا خرج قال: يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لك؟ فأقول: حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحبيت أن أسمعه منك، قال: فيقول: فهلا بعثت

¹ ديوان أبي فراس الحمداني ص 165.

إلي حتى آتيك، فأقول: أنا أحق أن آتيك فكان ذلك الرجل بعد ذلك يراني وقد ذهب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتاج إلي الناس فيقول: كنت أعقل مني"¹.

فإذا كان شأن الانسان مع ما يطلبه في الدنيا تعب وجهد وبذل، فلا شك أن الأخرة أولى بذلك، ذلك أن الجنة مطلب المؤمن ولا تُنال الا برضى الرحمن، ولا يُنال رضاه سبحانه إلا بالعمل بما أمر والانتهاز عما نهى عنه وزجر. وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَّا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَّا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ»².

لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم عالما بما سيقوله ورقة بن نوفل، ولا متوقعا له، بعد أن جاءه فقص عليه تفاصيل ما حدث معه في غار حراء. كل الذي كان يرجوه في تلك اللحظة؛ مجرد كلمة تعيد الى نفسه طمأنينتها، وتوقف هذا الاضطراب والخوف الذي استقر في كيانه كله. وورقة بن نوفل يسمع بلهفة واهتمام بالغ، ودقات قلبه كأجراس لها طنين. كأني بالنبي صلى الله عليه وسلم ينظر الى خلجات ورقة، وهو يرى هذه الالهفة البادية في سكونه. كان ينتظر من ورقة بما عنده من علم ما قد سبق، وبخبرة سنين عمره الطّوال تفسيراً للحدث؛ يوقف خفقان قلبه، ويخفف حدة توتره.

وأخيرا نطق ورقة، كان صوته في تلك اللحظة ينساب نهدا من رقة وفرح ممزوجة بالاشفاق على يتيم مكة، وأمينها المشهود له بالصدق وحسن الخصال. جاء صوت ورقة حاملا معه مشاعر مختلطة، كأنما كان على موعد سابق مع هذا الحدث، وها هو يأتيه. جاءه

¹ جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر 365/1 رقم 507

² رواه الترمذي 633/4 رقم 2450، والحاكم 343/4 رقم 7851، وابو نعيم في الحلية 377/8 وصححه الالباني في السلسلة

الصحيحة 442/5 رقم 2335

محمد بن عبد الله القرشي صلوات الله وسلامه عليه؛ ليحقق له أمنية طال انتظارها، يمسح بها عن كاهله شقاء سنين البحث عن الحنيفة المبتغاه، والدين الحق الذي تُختم به الرسالات. وإذا به يُلقي على مسامع محمد صلى الله عليه وسلم ما لم يكن عنده بالحسبان، " هذا الناموس الذي أنزل على موسى يا ليتني فيها جذعا أكون حيا حين يخرجك قومك".

لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم في تلك اللحظات متصورا أن كل هذا سيحدث، بل لنا أن نتصور نظرتة إلى ورقة بن نوفل، وهو رجل قد شاب شعره، وانحنى ظهره، وبلغ من العمر عتيا، ثم هو يتمنى أن يكون معه في أشد اللحظات قسوة، حين يُخرج من وطنه، وينقطع عن أرض مهده وطفولته. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أَوْ مُخْرِجِي هُمْ؟ قال: نعم لم يأت أحد قط بمثل ما جئت به إلا عودي وأوذني وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا¹.

إذن ليعدّ صاحب الرسالة نفسه، فإن سنة الله فيها ماضية منذ عهد الرسالة الأولى على نوح عليه السلام إلى قيام الساعة. إننا قدر الله على أصفياؤه الذين اصطفاهم لحمل اللواء، والقيام على أمر دينه. ليست هي إذن رحلة تستمتع فيها النفوس بالدعة والراحة، وليست هي حديقة تتدلى عناقيدها، ليتناول الإنسان منها ما يلذ ويشتهي بسهولة ويسر. ولن يكون الخير الذي تحملونه للناس شيئا سيحبه الناس بمجرد إبلاغهم به، ولن يكون ما تحملونه للناس تاجا أو صولجانا أو شرفا تتباهون به وتفخرون. انه عناء وتعب، أذى وألم، ليس لذلك حدّ معلوم، قد تحيون في عذاب وسجون، قد تطردون وتنفون، ولربما تموتون تحت العذاب أو تقتلون. هي سنة الله فيمن سلف، ولن تتغير

¹ دلائل النبوة لابي نعيم 213/1 رقم 162

فيمن خلف. [وَإِنْ كَادُوا لَيْسْتَغْفِرُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا. سُنَّةٌ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا] [الاسراء 76-77].

إذن فالواهمون الذين يعيشون أحلامهم الوردية، بانتقالهم من دار إلى دار، ومن بلد إلى بلد، لن يكونوا في مأمن من العنت. فلقد هاجر المؤمنون الأوائل إلى الحبشة لا لظنون أنفسهم بأن البلاد الجديدة أرض سمن وعسل، ولم يخرجوا من مكة وظلم أكابرها طلبا لرغيد العيش، ولا طمعا في دنيا، بل خرجوا بوحى أوحاه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم، دفعا للموت والعذاب عن أصحاب الدعوة، وربما لتكون آية من آيات الله لهم بانتفاع من لا يتوقع انتفاعه بدعوتهم.

ولقد افتتن البعض بقيامهم على شأن الدعوة في بلاد غير المسلمين، وغرقوا في نعيم العطايا والمعونات التي تُغدق على المؤسسات وحتى المشاريع الدعوية، ولا شك أن في هذا خير يسوقه الله سبحانه ينتفع به المؤمنون. لكن قد ينسى الإنسان مع النعمة مسائل يجب أن لا يُغفل عنها، خصوصا وهو غافل عن حقيقة أن من هم أكرم على الله منه - وعلى رأسهم الإمام الأول والشفيع المجتبي محمد صلى الله عليه وسلم - لم يشبعوا من خبز الشعير. عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّهُ مَرَّ بِقَوْمٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ شَاةٌ مَصْلِيَّةٌ، فَدَعَوْهُ، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ، وَقَالَ: «حَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَنْ يَشْبَعُ مِنْ حُبِّرِ الشَّعِيرِ»¹.

فأي وهمٍ يعيشه الداعية، إن فتحت عليه الدنيا أبوابها قبل التمكين، وأي حتلٍ يعيشونه وهم يظنون أن من أخبر الله عنهم بخبر يقين أنهم لا يرضون عن المسلمين حتى ينحرفوا

¹ رواه البخاري 75/7 رقم 5414

عن ملة الإسلام الى ملتهم؟! ولهذا تجد الخطاب الإسلامي في بلاد الغرب - في كثير من الأحيان - خطاب استجداء النعمة بإرضاء القوم بالاحتيال على نصوص الشريعة. ذلك أنهم لا يريدون أن تُغلق دونهم أبواب النعمة والمعونات. لعلمهم اليقيني أنه إن لم تجارهم فيما أرادوا حرموك، وإن لم تداهنهم منعوك، وإن قلت بخلاف ما أرادوا عادوك. وركن كثيرون للأسف الى ما أغدقت عليهم هذه الدول من الأموال مقابل السكوت عما يُستباح من المحرمات والمنكرات التي خسف الله الأرض بمن سبق من الأمم التي قارفتها، وأتى على بنيانهم من القواعد. بل والأدهى أن البعض أخذ يُزين فعله وسكوته عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي أمر الله به بدعاوى فقه الواقع، وأخذ هؤلاء يضعون النصوص والقواعد الفقهية في غير مواضعها تبريراً لما هم فيه. وأصبحت قاعدة درء المفسد تبريراً لما يدعو اليه البعض ويراه. وأن من الحكمة السكوت درءاً للمفسدة وجلباً للمصلحة. ولما كانت هذه القاعدة معتبرة وأصل في المسائل كلها، فلا بد من التأكد من أن إسقاطها على الواقع بهذا الشكل صحيح أو غير صحيح.

قاعدة درء المفسد وأهميتها في الفهم الإيماني

لا بد ابتداء من معرفة تعريفات القواعد والاصول الفقهية وأهميتها في تحقيق المؤمن لوجوده الإيماني في أي واقع يتواجد فيه، بل إن من مستلزمات الوجود الإيماني معرفة، كافة الأمور المتعلقة بالإيمان وما يقدر فيه. ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه معاوية رضي الله عنه: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَلَا تَزَالُ عِصَابَةُ مَنْ الْمُسْلِمِينَ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»¹

القواعد الفقهية:

القاعدة لغة: قواعد البَيْت: أساسه وأصول حيطانه، الواحدة قَاعِدَةٌ². وهي الأساس والأصل لما فوقها.

الفقه لغة: والفقه: التفهم في الدين والنظر فيه والتفطن فيما غمض منه، فقه يفقه وهو فقيه وأفقته: بيّن له³

القاعدة الفقهية اصطلاحاً: قضية كلية من حيث اشتغالها بالقوة على أحكام جزئيات موضوعها⁴،

أما أهميتها وفائدة معرفتها فهي كثيرة، قال شهاب الدين القرافي: وهذه القواعد مهمة في الفقه عظيمة النفع وبقدر الإحاطة بها يعظم قدر الفقيه، ويشرف ويظهر رونق الفقه

¹ متفق عليه، رواه البخاري 25/1 رقم 71، ومسلم 1524/3 رقم 1037

² جمهرة اللغة لابن دريد 662/2

³ غريب الحديث لابراهيم الحري 736/2

⁴ الكلياتلابي البقاء الكفوي ص728

ويعرف وتتضح مناهج الفتاوى وتُكشف، فيها تنافس العلماء وتفاضل الفضلاء، وبرز القارح على الجذع وحاز قصب السبق من فيها برع، ومن جعل يخرج الفروع بالمناسبات الجزئية دون القواعد الكلية تناقضت عليه الفروع واختلفت وتزلزلت خواطره فيها واضطربت، وضاعت نفسه لذلك وقنطت، واحتاج إلى حفظ الجزئيات التي لا تتناهى وانتهى العمر ولم تقض نفسه من طلب مناهها ومن ضبط الفقه بقواعده استغنى عن حفظ أكثر الجزئيات لاندراجها في الكليات، واتحد عنده ما تناقض عند غيره وتناسب¹.

وهذا ما حدده ابن الملقن في نقاط فقال:

الأولى: أنما تجعل الإنسان لا يضطرب في المسائل الفقهية، فإنه من سار على قاعدة فقهية كانت أحكامه الفقهية سائرة على منهج واحد، أما من لم يراع القواعد الفقهية فإن ترجيحاته تكون مضطربة غير سائرة على منهج واحد.

الثانية: أن علم القواعد يجعل المرء يعرف أسرار الشريعة ويفقه المقاصد التي تقصدها من خلال تقرير الأحكام الفقهية.

الثالثة: أن القواعد الفقهية موجزة الألفاظ سهلة العبارات يمكن للفقهاء أن يحيط بها وأن يحفظها بخلاف الفروع الفقهية.

الرابعة: أن القواعد الفقهية تعطي دارسها القدرة على استعمال القياس، إذ بمعرفة العلة التي من أجلها ثبت الحكم تُلحق بقية المسائل بهذه المسألة؛ كما أنه يكون قادرًا بها على معرفة حكم النوازل الجديدة، فإنه عندما يعرف علل الأحكام والقواعد التي

¹ الفروق للقرافي 3/1

ترد إليها الأحكام يكون بذلك عارفاً بأحكام النوازل الجديدة.

وبعد هذا التقديم نعود الى المسألة الأساس وهي قاعدة درء المفسد ولها عند أهل العلم استثناءات منها: أن المصلحة أولى بالاعتبار إذا عظم وقوعها وكان وقع المفسدة. وأن درء المفسدة إنما يترجح على جلب المصالح إذا استويا¹. وبغض النظر عن مراتب تقديم وتأخير المصلحة أو المفسدة بناء على ما ذهب اليه أهل العلم في حال كانت المصلحة هي الراجحة فتقدّم، أو في حال أن تكون المفسدة هي الراجحة فتُدرأ، أو في حال تساوت المصلحة والمفسدة، فهنا يُعمل بقاعدة " درء المفسد مقدم على جلب المصالح. فليس هذه هي المشكلة، لكن المشكلة التي يجب أن ننتبه اليها هي : ما هو الاساس الذي تُحدّد به المفسد والمصالح؟ وهل الحُسْنُ والقُبْحُ عقليان أم شرعيّان؟

قال الجويني: الحُسن والقبح لا يرجعان إلى وصف الفعل وحسنه، وإنما يرجعان إلى حكم الرب شرعا على ما سبق التّفصِيل في الحكم ومَعْنَاهُ. بخلاف ما قاله المعتزلة بأن قبح القبيح وصف راجع إلى ذاته، وكثير منهم قال نفس الشيء عن الحُسن، ثم قرر رحمه الله تعالى بأن مذهب أهل الحق يقول بأنه لا يدرك بمُجرّد العقل حُسن ولا قبح ولا يتحقّق إدراك الحُسن والقبح قبل وُرود الشرائع إذ لا معنى للحُسن والقبح سوى وُرود الشرائع بالذم والمدح².

بناء على ما تقدم فإن أولى ما جاءت به الشريعة هو أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما المطلب الأعلى، وأن منفعتهما هي الأعلى، ولا يتقدم على ذلك منفعة أخرى. وهذا ما دلت عليه نصوص الشريعة، وفي ذات الوقت أكدت النصوص على

¹ الاشباه والنظائر للسبكي 105/1

² التلخيص في اصول الفقه للجويني 157-155/1

أن تركهما هو المفسدة الأعلى لما يترتب على تركهما من عقوبة توعد الله بها من خالف. قال جلّ وعزّ: [وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَدِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِزَابٍ بَيِّسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ. فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ] [الاعراف 164-166].

وفي الحديث عن عبد الله بن عمر، قال: أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: " يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهنّ، وأعوذ بالله أن تدركوهنّ: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين، وشدة المئونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقصوا عهد الله، وعهد رسوله، إلا سخط الله عليهم عدواً من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكّم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم"¹

فهل يجوز السكوت عن المنكر لأجل منفعة مادية تعود على مؤسسة دعوية؟؟

إن قليلا من التدبر في آيات الله يقود الإنسان الى معرفة ما يجب وما لا يجب، ومتى وكيف، وما، ومن...؟؟

فمن الواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومن نكص عنه فلم يعمل به فهو خاسر قال سبحانه: [وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

¹ رواه ابن ماجه 1332/2 رقم 4019، والحاكم 582/4 رقم 8623، وصحه الالباني في الصحيحه 216/1 رقم 106

الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ [العصر 1 - 3]

ومتى: أي متى يكون الأمر بالمعروف واجبا ومتى لا يكون واجبا. وكذلك متى يُتْرَك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يكون المسلم آثما بالترك.

وكيف: يُقصد بها وسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وآلياته وملائمتها للحال.

وما: نقصد بها الاسباب المانعة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن: نقصد بها مَنْ يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبا في حقه، يأثم بتركه، ومن هو دون ذلك.

كل هذه المسائل الآنفه لا تخضع للعقل المجرد دون النص الشرعي، وذلك لأن الانسان غالبا يؤثر السلامة في كل المسائل، بينما يقتضي الشرع أحيانا ان السلامة في اقتحام الصعوبات والاهوال، دفعا للضرر الاكبر المتمثل في غضب الله سبحانه. وإذ أن الاسباب المانعة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متعددة منها ما هو مرتبط بالداعي، ومنها ما هو مرتبط بالمدعو، ومنها ما هو مرتبط بالدعوة. ونذكر من أهم أسباب امتناع الداعي عن الدعوة أمثلة على سبيل المثال لا الحصر:

أولا: حمل النصوص الشرعية على غير ما هي عليه:

قوله تعالى : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ] [المائدة: 105]، ففهم البعض الآية على ظاهر ما يبدو له أن معناها الظاهر هو أن الله يأمر الإنسان بإرشاد وهداية خاصة نفسه

ومن تشملهم مسؤوليته دون السعي لهداية وإرشاد الغير ممن ضل. ولو ذهب إلى ما فهمه الصحابة الأوائل ومن سار على نهجهم، وتتبع الأدلة الشرعية لعلم سقيم فهمه وخطأ تأويله، ومن ذلك ما ورد أن أبا بكر رضي الله عنه قام خطيباً في الناس فحمد الله عز وجل، وأثنى عليه، فقال: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرُؤُونَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَإِنَّكُمْ تَصْعَوْنَهَا عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: "إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ، لَا يُعْزِرُوهُ، أَوْشَكَ اللَّهُ أَنْ يَعْمَهُمْ بِعِقَابِهِ"¹

ومثله في أثر أبي العالية، قال: "كانوا عند عبد الله بن مسعود فوقع بين رجلين ما يقع بين الناس، فوثب كل واحد منهما إلى صاحبه، فقال بعضهم: "ألا أقوم فأمرهما بالمعروف، وأنهاهما عن المنكر"، فقال بعضهم: "عليك نفسك، إن الله تعالى قال { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ } [المائدة: 105] فسمعها ابن مسعود، فقال: "لم يجيء تأويل هذه الآية بعد، إن القرآن أنزل حين أنزل وكان منه آي مضي تأويله قبل أن ينزل، وكان منه آي وقع تأويله بعد اليوم، ومنه آي يقع تأويله عند الساعة، وما ذكروا من أمر الساعة، ومنه آي يقع تأويله بعد يوم الحساب والجنة والنار، فما دامت قلوبكم واحدة وأهواؤكم واحدة، ولم تلبسوا شيئا ولم يذق بعضكم بأس بعض، فمروا وانهوا، فإذا اختلفت القلوب والأهواء وألبستم شيئا وذاق بعضكم بأس بعض، فامرؤ ونفسه، فعند ذلك جاء تأويلها"². ويوضحها أثر سفيان

¹ رواه أحمد 197/1 رقم 16، وابن أبي شيبة 504/7 رقم 37583، وابن ماجه 1327/2 رقم 4005، وابو داود 122/4 رقم 4005، والترمذي 467/4 رقم 2168، والبخاري 135/1 رقم 65، وابن حبان 539/1 رقم 304 وصححه الالباني في المشكاة 1422/3 رقم 5142

² رواه البيهقي في السنن الكبرى 157/10 رقم 20194 وهو من مراسلات الحسن البصري رحمه الله

بن عقال قال: قيل لابن عمر: لو جلست في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه، فإن الله تعالى ذكره يقول: "عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ"؟ فقال ابن عمر: إنها ليست لي ولا لأصحابي، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ألا فليبلغ الشاهد الغائب"، فكنا نحن الشهود وأنتم العيب، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا، إن قالوا لم يقبل منهم¹.

وأهل التفسير على أنه لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو ما أثير عن ابن المبارك وسعيد بن جبير وابن المسيب وعمامة أهل التفسير، ومنهم من قال هو الإنكار بالقلب في زمن الفتن².

ثانيا: الخوف من الأذى والفتنة:-

يظن بعض الدعاة أن الأصل في ممارسة الدعوة الى الله هو السلامة من الأذى والفتنة، وأن الحكمة تقتضي أحيانا السكوت والاكتفاء بالانكار بالقلب. وليبيان ذلك مما وردت به النصوص والآثار فإن المعلوم من أقوال أهل العلم، أن مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثلاثة، كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُونَ، وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ

¹ تفسير الطبري تحقيق احمد شاكر 139/11

² تفسير القرطبي 344/6

مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةٌ حَرْدَلٍ»¹. ولا يجزئ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ترك الأعلى الى ما هو دونه إلا بمسوغ شرعي قال ابن شبرمة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالجهاد، يجب على الواحد أن يصابر فيه الاثنين، ويجرم عليه الفرار منهما، ولا يجب عليه مصابرة أكثر من ذلك. فإن خاف السب، أو سماع الكلام السيئ، لم يسقط عنه الإنكار، وإن احتمل الأذى، وقوي عليه، فهو أفضل، وعلى ذلك نص الامام أحمد، وقيل له: أليس قد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ليس للمؤمن أن يذل نفسه» أن يعرضها من البلاء ما لا طاقة له به، قال: ليس هذا من ذلك².

وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري، قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ فِي حَقِّ إِذَا رَأَاهُ، أَوْ شَهِدَهُ أَوْ سَمِعَهُ"³. وديدن المؤمن الايمان بما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " وَاعْلَمَنَّ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَيَّ أَنْ يَضْرُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضْرُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ"⁴. وطريق الدعوة هي طريق الأنبياء والاصفياء الذين اصطفاهم الله من خلقه وأعد لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فهم في طلب ذلك يبدلون الغالي والنفيس، ولا يُقعدهم ولا يحول بينهم وبين الدعوة الى الحق الذي يحملون بلاء أو عذاب. قال تعالى: [لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ] [آل عمران 186].

¹ رواه مسلم 69/1 رقم 50

² جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي 249/2

³ رواه احمد 61/17 رقم 11017، والطبراني في الاوسط 144/5 رقم 4906، وصححه شعيب الارناؤوط واخرون وقال

صحيح على شرط مسلم

⁴ رواه احمد 409/4 رقم 2669، والترمذ 667/4 رقم 2516، والطبراني في الكبير 178/11 رقم 11416، وصححه

الالباني في صحيح وظيف الترمذي

فهي ليست أمانىّ يتمنّاها النَّاسُ، ولكنها جهد، وبلاء، ومعاناة، فإذا أرادها المريدون وطلبها الطالبون، فليعملوا لها، وليؤدّوا الثمن المطلوب للحصول على نعيمها، ورضوان الله فيها! إنه ابتلاء في الأموال والأنفس. الأموال يبذلونها في سبيل الله، والأنفس يبيعونها ابتغاء مرضاة الله. وإنه تعرّض للأذى في المشاعر والعواطف، بسماع الكلمات المنافقة، والأكاذيب الملفقة، من الذين كفروا. إنه أذى مادىّ في الأموال وفى الأنفس، وأذى روحىّ في الشعور والوجدان.. أذى يشتمل على المؤمن كلّهُ، في ماديّاته ومعنوياته جميعاً. ولكنّ الجزء الحسن أعظم وأشمل، وإنه لأكثر قدراً، وأثقل وزناً. والصبر والتقوى، هما الزاد العتيد الذي يتزود به المؤمنون لاجتياز هذا الامتحان القاسي، واحتمال آلامه وشدائده" ¹.

النتائج المترتبة على ترك الأمر بالمعروف في الدنيا والاخرة على الأفراد والأمم:

الأولى: لعنة الله جلّ وعزّ: قال تعالى: [لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ] [المائدة: 78-79].

الثانية: نزع البركة والتقدير في الرزق: قال تعالى: [وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ] [الاعراف 96]

الثالثة: استعداد الله واستجلاب غضبه ونقمته: عن حذيفة، أن النبي صلى الله عليه

¹ التفسير القراني للقران لعبد الكريم الخطيب 666/2

وسلم قال: " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يُسْتَجِيبُ لَكُمْ " ¹

الرابعة: طلب المنافع المادية ومودة الناس: ومن أعظم البلاء المداهنة في دين الله طلبا لدنيا، فيسكت الانسان عما يراه من المنكرات والمخالفات، إما طلبا لشيء من الدنيا يخاف انقطاعه عنه منهم إن هو وعظهم أو أمرهم بخير أو نهاهم عن منكر، وإما طلبا لمودتهم وحرصا على علاقاته معهم. وينسى هؤلاء قول الله سبحانه وتعالى: [قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ] [التوبة 24].

قال ابن القيم: " وأي خير فيمن يرى محارم الله تنتهك، وحدوده تضاع، ودينه يترك، وسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يرغب عنها، وهو بارد القلب ساكت اللسان؟ شيطان أخرس، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق. وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم ما كلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين؟ وخيارهم المتحزن المتلمظ، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذل وجد واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه. وهؤلاء - مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم - قد بلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون، وهو

¹ رواه احمد 332/38 رقم 23301، والترمذي 468/4 رقم 2169، والبيهقي في الكبرى 159/10 رقم 20199، وصححه

الالباني في صحيح وضعيف الترمذي

موت القلوب؛ فإنه القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل¹.

وفي الوقت الذي تجد أصحاب المنكرات لا يستحيون من الله ولا من الناس، تجد صاحب الحق يستحي من الحق، وما هذا إلا لانقلاب المفاهيم واختلال الموازين. ومما تربى عليه أهل الإيمان في زمن النبوة تقديم أمر الله على ما سواه، وما استقر في فهمهم وفعالهم فكانوا لا يداهنون ولا يجاملون في دين الله، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، فقد كتب معاوية إلى عائشة أم المؤمنين أن اکتبي إلي كتابا توصيني فيه، ولا تكثري علي، فكتبت عائشة إلى معاوية: سلام عليك. أما بعد: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مَنْ التَّمَسَّ رِضَاءَ اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤَنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ التَّمَسَّ رِضَاءَ النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ»².

وخلاصة الأمر أن من يتصدر للدعوة أحد ثلاثة:

الاول: رجل علم دينه، وما يجب عليه فيه، وما سترتب على ذلك من أذى وبلاء، فقام به، ووطن نفسه على القيام به طلبا لما عند الله سبحانه، وهذا ما ضربه الله مثلا في كتابه فقال جلّ وعزّ: [وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا

¹ اعلام الموقعين لابن القيم 121/2

² رواه الترمذي 609/4 رقم 2414، وابن حبان 519/1 رقم 276، وصححه الالباني في السلسلة الصحيحة 392/5 رقم

يُنْقِذُونَ * إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ. إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ [يس 20-27]. فأهل الإيمان العارفين بما هم عليه من الخير، ومآلات ما هم عليه من الخير، يسارعون فيه لبلوغ الغايات، وتحقيق ما جعلوه لهم أمنيات. وهذا ما اتضح من فهم اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لنصوص القرآن والسنة، منذ اجتمعوا حول النبي صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم ليتعلموا أن يكونوا أداة تغيير سيبقى أثرها ماثلاً في التاريخ الانساني الى قيام الساعة.

الثاني: رجل علم دينه، وما يجب عليه فيه، وما سياترتب على ذلك من أذى وبلاء، فقام به، فلما اعترضته العقبات، وانصب عليه الأذى والبلاء، آثر السلامة وركن الى القعود.

الثالث: رجل علم دينه، وما يجب عليه فيه، وما سياترتب على ذلك من أذى وبلاء، وعرف طريقه فيه الى الدنيا، فأثر طلب ما في الدنيا على الآخرة وباع دينه بعرض من الدنيا زائل، وهو يظن ذلك خير له، فخاب وخسر.

البلاء والابتلاء

الابتلاء لغة: بَلَوْتُ الرَّجُلَ بَلَوًا وَبَلَاءً وَابْتَلَيْتَهُ: اخْتَبَرْتَهُ، وَبَلَاءُهُ يَبْلُوهُ بَلَوًا إِذَا جَرَّبْتَهُ وَاخْتَبَرْتَهُ. وَقَدْ ابْتَلَيْتُهُ فَأَبْلَانِي أَي اسْتَحْبَرْتُهُ فَأَخْبَرَنِي. وَفِي حَدِيثٍ أَمْ سَلَمَةَ: إِنَّ مِنْ أَصْحَابِي مَنْ لَا يَرَانِي بَعْدَ أَنْ فَارَقَنِي، فَقَالَ لَهَا عُمَرُ: بِاللَّهِ أَمِنْهُمْ أَنَا؟ قَالَتْ: لَا وَلَنْ أَبْلِي أَحَدًا بَعْدَكَ أَي لَا أَخْبِرْ بَعْدَكَ أَحَدًا، وَأَصْلُهُ مِنْ قَوْلِهِمْ أَبْلَيْتُ فُلَانًا يَمِينًا إِذَا حَلَفْتَ لَهُ بِيَمِينٍ طَيِّبَتَ بِهَا نَفْسُهُ. وَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: أَبْلَى بِمَعْنَى أَخْبَرَ.

وَابْتَلَاهُ اللَّهُ: امْتَحَنَهُ، وَالِاسْمُ الْبَلْوَى وَالْبَلْوَةُ وَالْبَلِيَّةُ وَالْبَلِيَّةُ وَالْبَلَاءُ، وَبُلِيَ بِالشَّيْءِ بَلَاءً وَابْتُلِيَ؛ وَالبَلَاءُ يَكُونُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. يُقَالُ: ابْتَلَيْتَهُ بَلَاءً حَسَنًا وَبَلَاءً سَيِّئًا، وَاللَّهُ تَعَالَى يُبْلِي الْعَبْدَ بَلَاءً حَسَنًا وَيُبْلِيهِ بَلَاءً سَيِّئًا، نَسَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ، وَالْجَمْعُ الْبَلَايَا، وَفِي التَّهْذِيبِ: بَلَاهُ يَبْلُوهُ بَلَوًا، إِذَا ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِلَاءً، يُقَالُ: ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِلَاءً. وَفِي الْحَدِيثِ: اللَّهُمَّ لَا تُبْلِنَا إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَبَلَاهُ اللَّهُ بِلَاءً وَابْتَلَاهُ أَي اخْتَبَرَهُ. وَالتَّبَايُ: الْإِخْتِبَارُ. وَالبَلَاءُ: الْإِخْتِبَارُ، يَكُونُ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ. قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: وَالْمَعْرُوفُ أَنَّ الْإِبْتِلَاءَ يَكُونُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ مَعًا مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ بَيْنَ فِعْلَيْهِمَا؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَنَبَلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً. وَيُقَالُ: بُلِيَ فُلَانٌ وَابْتُلِيَ إِذَا امْتَحِنَ. إِنَّمَا النَّذْرُ مَا ابْتُلِيَ بِهِ وَجْهَهُ اللَّهُ أَي أُرِيدَ بِهِ وَجْهَهُ وَفُصِّدَ بِهِ¹.

واقترضت حكمته تعالى أن يكون البلاء متنوعا يطال كافة جوانب حياة الانسان، فقال: [كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ] [الانبياء 35]. ومن عظيم فضل الله على الناس أنه قد أبلغهم بأن ما هم فيهم سواء كان نعمة وخيرا،

¹ لسان العرب لابن المنظور 85-84/14

أو فتنة وشرا إنما هو اختبار وامتحان، قال تعالى: " الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ " (المالك 2).

اصناف الابتلاء:

اخبر سبحانه وتعالى عن ان البلاء اصناف متعددة اظهرتها آيات القرآن منها:

الابتلاء بالشر: قال الله تعالى: [كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِنَّا تُرْجِعُونَ] [الانبياء 35]، والشور تتفاوت على قدر الإيمان، فقد يتلى الله عبده بالقليل فيراه العبد عظيما لا طاقة له باحتماله، بينما قد يكبر الابتلاء على المؤمن فيجد في الابتلاء راحته ببرد اليقين، وقوة الايمان بأقدار الله تعالى والخضوع لها والرضا بها، ولذلك كان أشد الناس بلاء أكثرهم ايمانا، وعليه بؤب البخاري بابا أسماء: باب أشدُّ النَّاسِ بِلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، وهو من حديث سعد رضي الله عنه قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بِلَاءً؟ قَالَ: " الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ، فَالْأَمْثَلُ مِنَ النَّاسِ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ فِي بِلَائِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَنْهُ، وَمَا يَزَالُ الْبِلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ لَيْسَ عَلَيْهِ حَظِيئَةٌ »¹

والابتلاء بالشرور أنواع ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه ومنها قول سبحانه وتعالى: [وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ] [البقرة 155]. ولا بد من الاشارة في هذا المقام الى بعض الابتلاءات لمعرفة ما يترتب عليها في حياة المؤمن وغيره من خير وشر ومن ذلك:

¹ رواه أحمد 1481، والترمذي 2398، وابن ماجه 4023، والنسائي في الكبرى 7439، والبزار 1154، والدارمي 2825، والحاكم 121، والطبراني في الكبير 245/24 حديث 629، وصححه الالباني والارناؤوط واحمد شاكر

الابتلاء في النفس: وذلك بما قدره الله على خلقه من أقدار ظاهرها السوء لهم، كابتلائهم بالامراض والحوادث وعقوق الولد، أو نشوز الزوجة أو الزوج، وما شابه ذلك. ولو أراد الإنسان لنفسه الخير في الدنيا والآخرة لوجد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم لنفسه خير عزاء وتسرية، فصَبَرَ وشكر، فعن أبي سعيد، وأبي هريرة أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ، وَلَا نَصَبٍ، وَلَا سَقَمٍ، وَلَا حَزَنٍ حَتَّىٰ أَلْهَمَ يَهُمُّهُ، إِلَّا كُفِّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ»¹

يقول احد الاطباء: من أغرب ما شاهدت في حياتي، مريضا عمره سبعين سنة، كان يراجعني بسبب اصابته بمرض السكرى. وكان في كل مرة يراجعني فيها يقول مع ابتسامة كبيرة على وجهه: (الحمد لله على نعمة السكرى)

سألته مرة: "عمي أنت غريب!! أول مرة أسمع أحداً يُسمي مرض السكرى نعمة"
قال: يا ولدي السكرى نعمة من أعظم النعم!!

قلت له: كيف؟

قال: سأقول لك السبب: إن الله أبتلاني بمرض ليس فيه ألم، وكثير من الناس يتألمون من أمراضهم.

وإن الله أبتلاني بمرض في زمن وجود علاج له، بينما كثير من الناس ابتلاهم بأمراض ليس لها حتى الآن دواء يُعرَف.

والله أبتلاني بمرض اسمه حلو (سُكْرِي).

والله أبتلاني بمرض يجعلني أراجع عند طبيب حلو مثلك .

والله أبتلاني بمرض يجعلني أراجع الطبيب كل أربعة شهور فأطمئن على صحتي بشكل دوري.

¹ رواه مسلم 1992/4 رقم 2573

والله أبتلاني بمرض لأصبر وأشكر فتغفر سيئاتي وذنوبي من دون تعب وعناء..
ثم قال محتتما حديثه: الحمد لله أصبحت أصلي قيام الليل لأني أصحو مرتين لقضاء
الحاجة فالفضل لله ثم لمرض السكرى.
قال الطيب: لقد قرأت العديد من الكتب عن الإيجابية وحضرت العديد من الدورات
عن الإيجابية، والله لم أتعلم في ذلك كله ما تعلمت من هذا الرجل في دقيقتين !!

ابتلاء الخلق بالخلق: فقد جعل الله بعض الخلق لبعض الخلق فتنة، وجاءت في الآيات
متعددة، فمنها قوله سبحانه: [وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ] [الأنعام: 53]، وفي هذا روى خباب بن
الأرت رضي الله عنه قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاري،
فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صهيب، وبلال، وعمار، وخباب، قاعدًا في
ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حول النبي صلى الله عليه وسلم حقروهم،
فأتوه فحلوا به، وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسًا، تعرف لنا به العرب فضلنا،
فإن وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترائنا العرب مع هذه الأعداء، فإذا نحن جئناك،
فأقمهم عنك، فإذا نحن فرغنا، فأفعد معهم إن شئت، قال: «نعم»، قالوا: فاكثب لنا
عليك كتابًا، قال: فدعا بصحيفة، ودعا عليًا ليكتب، ونحن فعود في ناحية، فنزل
جبرائيل عليه السلام، فقال: { وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ،
فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ } [الأنعام: 52]، ثم ذكر الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن،
فقال: { وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ
بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ } [الأنعام: 53] ثم ذكر فقال: { وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا
فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا } [الأنعام:

[54] فَرَمَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالصَّحِيفَةِ جَانِبًا فَمَا أَنْسَى وَهُوَ يَقُولُ: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» فَدَنَوْنَا يَوْمَئِذٍ مِنْهُ حَتَّى وَضَعْنَا رُكْبَنَا عَلَى رُكْبَتِهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجْلِسُ مَعَنَا قَبْلَ ذَلِكَ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ قَامَ وَتَرَكْنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: 28] وَلَا تُجَالِسِ الْأَشْرَافَ: وَلَا تُطْعَمَنَّ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ دِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ [الكهف: 28] وَأَمَّا مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ فَهُوَ غَيِّبَتُهُ وَالْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ، وَأَمَّا فُرْطًا فَهَلَاكًا، ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ وَمَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، قَالَ: فَكُنَّا نَقْعُدُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا بَلَغْنَا السَّاعَةَ الَّتِي كَانَ يَقُومُ فِيهَا أَقْمَنَا وَتَرَكْنَاهُ حَتَّى يَقُومَ مَتَى قَامَ¹. فذكر أن فتنة هؤلاء في استعلائهم على المؤمنين من الضعاف والعيبد، فحال ذلك دون اتباعهم لما فيه خيرهم في الدنيا والاخرة.

وقال سبحانه: [وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا] [الفرقان 20]. ليظهر فتنة الناس في التمايز بما أعطاهم الله، وبيان شكر من أعطي وصبر من حرم، قال الطبري: وامتحننا أيها الناس ببعضكم ببعض، جعلنا هذا نبيا وخصصناه بالرسالة، وهذا ملكا وخصصناه بالدنيا، وهذا فقيرا وحرمانه الدنيا، لنختبر الفقير بصره على ما حرم مما أعطيه الغني، والملك بصره على ما أعطيه الرسول من الكرامة، وكيف رضي كل إنسان منهم بما أعطى، وقسم له، وطاعته ربه مع ما حرم مما أعطى غيره. يقول فمن أجل ذلك لم أعط محمدا الدنيا، وجعلته يطلب المعاش في الأسواق، ولأبتليكم أيها الناس، وأختبر طاعتكم بركم وإجاباتكم رسوله إلى ما دعاكم إليه، بغير عرض من الدنيا

¹ رواه ابن ماجة 1382/2 رقم 4127، والبزار 69/6 رقم 2130، والطبراني في الكبير 75/4 رقم 3693، صححه الالباني

ترجونه من محمد أن يعطيكم على اتباعكم إياه، لأني لو أعطيته الدنيا، لسارع كثير منكم إلى اتباعه طمعا في دنياه أن ينال منها"¹.

وهذا الابتلاء ليس حكرا على ما كان من الناس فيما سلف، بل هو ماض الى يوم القيامة، اذ ما زلت تسمع عبارات عدم الرضى والتمني في أقوال الناس وتصرفاتهم، فقد ترى سائق دراجة ينظر الى سائق سيارة يتمنى لو كان هو من يمتلكها، وتجد فقيرا لا يجد ثمن الدراجة يتمنى دراجة يركبها كسائق الدراجة، وتجد مقعدا على كرسي يتمنى لو كان له رجلين يستطيع أن يمشي بهما، ولو صبر المبتلى بالحرمان وشكر المبتلى بالنعمة لحازوا أفضل الشرف وأعلى المنازل.

وقد جعل الله سبحانه من خير ما يدعو به المؤمنون قولهم كما قال على لسان اتباع موسى من المؤمنين: [فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ] [يونس 85]، وقال ايضا على لسان إبراهيم: [رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ] [الممتحنة 5]. وفي معناها قال الطبري رحمه الله: " يا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا بكَ فَجَحِدُوا وَحِدَانِيَتِكَ، وعبدوا غيرك، بأن تسلطهم علينا، فيروا أنهم على حق، وأنا على باطل، فتجعلنا بذلك فتنة لهم"².

وكما جعل الله تعالى المؤمنين فتنة للكافرين والظالمين، كذلك كانت بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ابتلاء له وللناس كما في الحديث عن عياض المُجَاشِعِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي حُطْبَتِهِ: " أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُم مَّا جَهَلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالًا، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي خُنَفَاءَ

¹ تفسير الطبري 252-253/19

² تفسير الطبري 319/23

كُلُّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَأَجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أُخْلِتْ لَهُمْ، وَأَمَرْتَهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَّتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيكَ وَأَبْتَلِي بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَفَرُّوهُ نَائِمًا وَيَقْظَانِ، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحْرِقَ قُرَيْشًا، فَقُلْتُ: رَبِّ إِذَا يَنْتَعُوا رَأْسِي فَيَدْعُوهُ حُبْرَةٌ، قَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرِجُوكَ، وَاغْزِهِمْ نُعْرَكَ، وَأَنْفِقْ فَسَنْتَفِقَ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبَعَتْ حَمْسَةٌ مِثْلَهُ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ، قَالَ: وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَّصِدِقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقٌ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ، قَالَ: وَأَهْلُ النَّارِ حَمْسَةٌ: الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبْرَ لَهُ، الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لَا يَبْتَعُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا، وَالْحَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ، وَإِنْ دَقَّ إِلَّا حَانَهُ، وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ «وَدَكَرَ» الْبُحْلُ أَوْ الْكَذِبُ وَالشَّنْظِيرُ الْفَحَّاشُ¹

ولم يتوقف ابتلاء الناس ما أرسل به النبي صلى الله عليه وسلم على وجوده حيًا بين أظهر الناس، بل ما زال الابتلاء مستمرًا إلى يومنا، بل سيدوم حتى يرث الله الأرض ومن عليها. ومن صور ذلك في زماننا ما ابتلي به بعض الأغرار ممن زين لهم الشيطان سوء أعمالهم فصددهم عن السبيل فهم لا يبهتدون، فراحوا بجهلهم يردون أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم بدعوى الاكتفاء بما في القرآن الكريم، وأن السنة غير ملزمة، بل ذهبوا للتشكيك في الأحاديث والرواة والمحدثين، مرة بدعوى أن القرآن شامل لكل ما يلزم المؤمن، ومرة بدعوى أن الأحاديث ظنية الثبوت، ومرة بدعوى أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر الصحابة بعدم كتابة الحديث، ومرة بدعوى التشكيك بالمحدثين ومرة بدعوى تعارض الأحاديث مع القرآن. ويكفي في الرد على هؤلاء اختصارا ندفع به

اضاليل المضلين، وشبهات الجاهلين فنلزمهم بالزامات ثلاث:

الإلزام الأول: زعموا أن قوله تعالى: [وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أُمَّتَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ] [الانعام 38]، وأن ما فرطنا في الكتاب من شيء تعني أن القرآن الكريم شامل لكل ما يلزم المؤمن فهو في غنى عن السنة.

فهل فعلا لو بحثنا في القرآن سنجد تفاصيل فرائض الله سبحانه وتعالى وأحكامه في القرآن، فمثلا عدد ركعات الصلوات وزمان ابتداء وقتها ونهايته، أو مقدار الزكاة وشروطها كاتكمال النصاب والحول، أو الحج أركانه وواجباته، وزمان ابتدائه ونهايته، وغير ذلك من المسائل كالعديد وصلاة العيدين التي أمرنا بها بنص القرآن وكيفيةها!!

والرد على هذا واضح لكل مسلم فالقرآن الكريم جمع الأصول التي يقوم عليها الاعتقاد والاحكام، ولم يفصل في فروعها وهذا ما قاله جلّ وعزّ موضحا هذا إذ قال: [هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ] [آل عمران 7]، ثم جاءت آية سورة النحل لتقوّض بنيان منكري السنة من جذورها إذ قال جلّ وعزّ: [بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ] [النحل 44] ولهذا ذهب جميع المفسرين الى أن مقصود القرآن أن الذي بيّن القرآن هي السنّة، قال الرازي: وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ظاهر هذا الكلام يقتضي أن هذا الذكر مفتقر إلى بيان رسول الله والمفتقر إلى البيان مجمل، فظاهر هذا النص يقتضي أن القرآن كله مجمل، فلهذا المعنى قال بعضهم متى وقع التعارض بين القرآن وبين الخبر وجب تقديم الخبر لأن القرآن مجمل، والدليل عليه هذه الآية، والخبر مبين له بدلالة هذه الآية، والمبين مقدم على المجمل.

والجواب: أن القرآن منه محكم، ومنه متشابه، والمحكم يجب كونه مبيناً فثبت أن القرآن ليس كله مجملاً بل فيه ما يكون مجملاً فقوله: لتبين للناس ما نزل إليهم محمول على المجملات.

المسألة الثانية: ظاهر هذه الآية يقتضي أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم هو المبين لكل ما أنزله الله تعالى على المكلفين، فعند هذا قال نفاة القياس: " لو كان القياس حجة لما وجب على الرسول بيان كل ما أنزله الله تعالى على المكلفين من الأحكام، لاحتمال أن يبين المكلف ذلك الحكم بطريقة القياس، ولما دلت هذه الآية على أنه المبين لكل التكليف والأحكام، فعلمنا أن القياس ليس بحجة".

وأجيب عنه بأنه صلى الله عليه وسلم لما بين أن القياس حجة، فمن رجع في تبين الأحكام والتكاليف إلى القياس، كان ذلك في الحقيقة رجوعاً إلى بيان الرسول صلى الله عليه وسلم¹.

الإلزام الثاني: وفيه مسألتان:

الأولى: أن الله سبحانه وتعالى في أكثر من آية في القرآن الكريم بين وجوب اتباع النبي

¹ تفسير الرازي 212/20

صلى الله عليه وسلم وطاعته، وأن الدين متعلق باتباع قول الله تعالى وهو القرآن واتباع النبي صلى الله عليه وسلم باتباع سنته قال تعالى: [وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا] [النساء 61]، وقوله تعالى: [وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْكَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ] [المائدة 104]، وفي هاتين الآيتين يبرز سؤال لكل الْمُتَهَوِّكِينَ: هل هذه الآية كما القرآن صالحة لكل زمان ومكان؟! فإن كان الجواب نعم، فقد لزمتمكم الحجة وسقطت مزاعمكم، إذ الله سبحانه وتعالى هنا يأمر الناس بالرجوع الى ما أنزل وهو القرآن والى الرسول صلى الله عليه وسلم، والرسول صلى الله عليه وسلم ميّت، وما بقي إلا سنته صلى الله عليه وسلم.

الثانية: لو كان القرآن كما زعم منكرو السنة ممن أطلقوا على أنفسهم اسم القرآنيين لا يحتاج المجلد فيه الى بيان الرسول صلى الله عليه وسلم، فلماذا يدعوننا الله سبحانه وتعالى أن نعود الى الرسول صلى الله عليه وسلم ما دام يكفيننا ما أنزل.

الإلزام الثالث: يقول الله تعالى: [وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا] [النساء 115]، وقال تعالى: [وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ بَاطِنًا تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ] [التوبة 100]. فقد توعد الله سبحانه وتعالى من يسير على غير ما سار عليه المؤمنون الأوائل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بأنه سيوليهما ما تولوا من مناهج المخالفة للمؤمنين وسيصليهم جهنم وساءت مصيرًا. وحتى لا يتوهّم متوهّم فقد جاءت آية التوبة لدفع التوهّم وذلك بالقول أن الذين لهم الجنة هم السابقون الأولون من

المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، والإلزام هنا هو: هل السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان قالوا بما قال به منكرو السنة، أم أنهم كانوا يلتزمون بسنة النبي صلى الله عليه وسلم ويدعون إلى الالتزام بها؟!
فإن زعم زاعم بالكذب والزور بأنهم لم يلتزموا السنة وينشروها لكذبهم أقوال الصحابة ورواياتهم.

البناء الإيماني

إن قيمة أي بناء ترتكز على قوة أساسه ومتانة بنائه، وكلما كان البناء صلبا قادرا على مواجهة كافة الظروف البيئية، وحصينا آمنا في حال الحروب ارتفعت قيمته، ولهذا فإن معايير متانة البناء وقوته تقوم على ثلاث مسائل، فإن اعتور الخلل أحدها آذنت بسقوط البناء وانهاره.

المسألة الأولى: الأرض التي يقام عليها البناء: لا خلاف بين الناس عالمهم وجاهلهم أن البناء على أرض صخرية أشد وأمتن، وأقدر على الثبات والتحمل من البناء الذي يقوم على أرض رملية أو سبخة، ومن أقام بنائه على شفا جرف فسينهار طال الزمن أو قصر، وهو ما بيّنه جلّ وعزّ بقوله: [أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ] [التوبة 109]

المسألة الثانية: متانة القواعد وصلابتها: فكلما أحكم البناء وضع الأسس والقواعد والأركان على الأرض الصلبة؛ ثبت البناء واشتد بإذن الله، وازداد قوة ومتانة، وكلما ضعفت الأسس والأركان كلما كان أكثر عرضة للاهتزاز، وكان أضعف قدرة على التحمل. وبين سبحانه حقيقة الاعتماد على القواعد لا على البناء ذاته، وأن اهتزاز القواعد يعني اهتزاز البناء كله بقوله سبحانه: [فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ] [النحل 26].

المسألة الثالثة: متانة اللبّات وقماسكها: وكلما أحكم الإنسان صنع اللبّات وأعطاهها مؤونتها اللازمة وأتقن ضغطها وتشكيلها، ثم رضّ بعضها الى بعض ليشدّ بعضها بعضا

أصبح البناء كله مشدودا متماسكا صلبا لا خلل فيه، وهو ما أشار الله سبحانه وتعالى إليه بقوله: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ [الصف

[4

والمجتمعات ما هي إلا بناء، إلا أنه ليس بناء حجريا من اللين أو الطين أو الطوب، بل هو بناء بشري، لبناته الإنسان، وقواعده القيم والأحكام، وأرضه العقيدة والمنهج. فإذا كان المنهج والاعتقاد صلبا متينا؛ ثبتت عليه القواعد، وإذا ما كانت القواعد متينة راسخة مُحْكَمَةٌ استقر البناء، وإذا ما أُحْكِمَت اللَّيِّنَاتُ ووضعت كل لينة في موضعها الملائم لها كُئِلَ البناء وظهر جماله، وأي لينة لم يُحْكَمْ صنعها، ولم توضع في مكانها المناسب لها من البناء انكشف فسادها، وبان عُوارها. وكان لا بد من إعادة تقويمها أو سلخها عن البناء للحفاظ على متانته وسلامته.

هكذا جاء الإسلام ليقوم البناء الانساني السليم على أرضية المنهج الإلهي، المتمثل بالتشريع الأحكم والأقوم والأسلم بل والأقوى، على أنه رغم قوته يتناسب مع قدرات الإنسان وطاقاته. ثم جاء النظام القيمي الضابط، والذي يقود لبنات المجتمع ويبيّن لها مكانها ودورها، ويجعلها تستشعر مسؤولياتها تجاه البناء والنسيج الاجتماعي كله. وبهذا تحقق للمجتمع الإسلامي التماسك والصلابة، حتى إذا ما اعتور الخلل بعض اللينيات بدأ بعضها يفسد بعضا، فتغير الحال، ولكن رغم ذلك كله تبقى القواعد على صلابتها والارضية على نقائها وقوتها، ولربما سقطت الجدران بسبب ما اعتور لبناتها من خلل، لكن يبقى الاساس ثابتا، والأركان صامدة، والسقف شامخ لا تزعزعه العواصف. هذه هي حقيقة الإسلام التي أدركها أعداؤه فأرادوا أن يتركوه عاريا من اللينيات، لأنّ التصاق كل لينة بأختها يعيد للبناء الاسلامي قوته وشدّته التي لم يستطع أحد أن يفتر من

عضدها يوماً، حتى في أحلك الظروف وأصعبها، وفي أقصى حالات الضعف بقي الإسلام شامخاً، وكل لبنة ابتعدت لم تلبث أن عادت إلى موضعها، تعيد للبناء رونقه وجماله.

واقتضت حكمة الباري جلّ وعزّ أن يكون الرعيل الأول من أتباع الأنبياء هم الأتقى والأتقى قلوباً، والأرسخ عقيدة، والأثبت إيماناً، والأشد التزاماً واعتصاماً بالله، ذلك أن أشد ما تلقاه الدعوات يكون في البدايات، حتى إذا ما قامت الدعوة واشتد عودها، وأصبحت أمة وقوة، تسلل المتسلقون وأصحاب المآرب الدنيوية، ليجدوا لهم مكاناً في البناء الجديد، حتى إذا ما استطاعوا ذلك بدأوا يوظفون الدين لخدمة مصالحهم وأهدافهم. ولقد كان خير الناس بعد موسى وهارون قلة اختارهم موسى واصطفاهم على قومه فكانوا أقرب المقربين، وكذلك كان الحواريون أصحاب عيسى عليه السلام، ثم جاء النبي صلى الله عليه وسلم واختار الله له صفوة خلقه وأحبهم إليه، وقد يقول قائل كيف يكونون أحب الخلق إلى الله عز وجلّ وقد كانوا يعكفون على عبادة الأصنام ويقتربون المنكرات؟!

والجواب على ذلك معلوم من آيات القرآن ومن صحيح الحديث، فإن الجاهلية يَجِبُّهَا الإسلام والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، هذا من ناحية ما دلت عليه الآثار، ومنه حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُوهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُوهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتُهُ» قَالَ إِبْرَاهِيمُ: «وَكَاثُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ، وَالْعَهْدِ»¹. ومن قرأ القرآن وجد مدح الصحابة فيه بمجموعهم ماثلاً في أكثر من موضع، ولكن الذين اعمى الله قلوبهم

¹ متفق عليه رواه البخاري 2652، ومسلم 2533 وللحديث طرق أخرى متفق عليها منها حديث عمران بن حصين وكذلك حديث أبي هريرة

وختم على سمعهم وأبصارهم غفلوا عن الآيات، واتبعوا أهل الكذب والضلال، ويكفينا في مدح أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: [مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا] [الفتح 29]. وجاء حديث النبي صلى الله عليه وسلم يلجم أهل الباطل، ويسفهم الملّ بقوله: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ»¹.

إن اصطفاء البشر واختيارهم ليس مهمة بشرية، ومهما بلغت متانة علاقة إنسان بغيره فإنه لا يمكن أن يعلم من حقيقتهم إلا ما ظهر منها بقول أو فعل، ولهذا يسهل أن ينخدع الإنسان بمن حوله لعدم معرفته بسرائرهم، حتى لو كان هذا الإنسان نبيا. وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدلّ على ذلك منها قوله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم: [عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ] [التوبة 43]، وقوله تعالى: [وَبِمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمَنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ] [التوبة 101].

ولهذا فإن الله سبحانه يصطفي لحمل الرسالة أناسا أصفياء أتقياء أنقياء، يؤيد بهم رسله، وينصر بهم دينه، ويكونوا قدوة لمن بعدهم ي التزم أمر الله والقيام به، ودليله قوله تعالى: [وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ]

¹ متفق عليه، رواه البخاري 3673، ومسلم 2541

وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [التوبة 100]، ولما ذكر الله سبحانه وتعالى والذين اتبعوهم بإحسان دل على فضلهم وتفضيلهم، وفيه أنكى رد على الرافضة الذين طعنوا فيهم، وزعموا ردتهم. ثم جاءت آيات الأنفال لتبين أن هذه الصفوة المؤمنة هي اختيار من الله تعالى، قال ربنا جل وعز: [وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِبَصِيرَةٍ وَالْمُؤْمِنِينَ * وَالْأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ] [الأنفال 62-64]، وفيها مسائل:

الأولى: أن الله هو من أيد نبيه صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين، فهم اختياره واصطفاهو جل وعلا.

الثانية: أنه وصفهم بصفة الإيمان وهو الأعم بما في الصدور، فإذا خلع عليهم صفة الإيمان ووصفهم بالمؤمنين دل ذلك على تركيته لهم وتأكيد صدق إيمانهم.

الثالثة: أنه جل وعز أراد لنبيه الإقتصار على هذه الزمرة المؤمنة من المهاجرين والانصار وفيه دليل صدقهم وخيريتهم وأنهم أهل لنصرة الله ورسوله.

وقد كان الرعيل الأول في دعوات المرسلين صلوات الله عليهم وسلامه لهم سمات ومعالم خاصة لازمة فيهم؛ تؤهلهم للقيام بأعباء المهمة الموكلة إليهم، والقيام بالدور المناط بهم، وهو ما ذكره الله سبحانه وتعالى فيهم بقوله: [وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ

الكَافِرِينَ] [آل عمران 146-147]. والسؤال هو هل يمكن أن يتكرر هؤلاء في عصر وزمان لا يكون فيه نبي حي؟!!!

إن سنة الله الماضية في خلقه اقتضت أن الخير باق في الناس إلا أن يشاء الله، ولا يمكن أن يتحقق التمكين لأمة إلا إذا حققت شروطه، مما يعني أن إمكانية أن يتكرر الرعييل الأول موجودة على صعيد الأفراد، وإن انعدمت كأمة متكاملة كما كانوا. وإلا لما حصر النبي صلى الله عليه وسلم الخيرية في قرنه ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم.

ولم يكن جيل الصحابة رضي الله عنهم ملائكة نزلت من السماء، ولا كانوا خلقا من جنس آخر، بل كانوا بشرا عاشوا ما عاشه الناس في جاهليتهم، فمنهم من عبد الاصنام، ومنهم من سرق، ومنهم من زنى، ومنهم من ظلم، ومنهم من أكل حقوق الناس، بل ومنهم من وأد الموءودة¹. ولكنهم عندما لامس الإسلام شغاف قلوبهم خلعوا عنهم أسمال الشرك والوثنية، ولبسوا عباءة الإيمان، وحققوه في أنفسهم منهجا وسلوكا، فأصبحوا مثالا وقدوة لمن جاء بعدهم ولهذا ذكر الله للمهاجرين صفة الصدق وللانصار صفة الفلاح فقال عز وجل: [لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] [الحشر 8-9]. ولو سأل سائل بماذا امتاز اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؟! وما الذي ميّزهم عمّن جاء بعدهم؟! وكيف امتازوا؟! والجواب على الأسئلة الثلاثة بكلمة واحدة، لقد كانوا رجالا.

¹ انتشر على السنة كثير من الخطباء أن عمر رضي الله عنه وأد ابنة له في الجاهلية وأنه لما أراد دفنها تناثر التراب على لحيته فكانت تنفضه عنها، وليس لمثل هذه القصة سند صحيح ولا ضعيف، ولم يثبت ذلك، وأد الموءودة رغم وجوده إلا أنه لم يكن منتشرًا بين كافة الناس وإن كان البعض قد فعله في بعض قبائل العرب خوفا على الاعراض أو بسبب الفقر.

إن الرجولة سمة خاصة لا يعرفها إلا أربابها، فليس كل ذكر رجل. إذ مقتضيات الرجولة وسماتها لا تتحدد بذكورة أو قدرة على الإنجاب، ولهذا تسمع في أمثال الناس قولهم " الرجل موقف"، وليبيان حقيقة الرجولة نجد في كلام ربنا سبحانه قوله: [مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا] [الاحزاب 23]، وهذه الآية نزلت في أنس بن النضر وأصحابه رضي الله عنهم كما ذكر أنس بن مالك رضي الله عنه قال: غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَن قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ غِبْتُ عَن أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ، لَعِنَ اللَّهُ أَشْهَدِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيْرِيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ»، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ، قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَدِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي أَصْحَابَهُ - وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ، - يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ - ثُمَّ تَقَدَّمَ»، فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: «يَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، الْجَنَّةَ وَرَبَّ النَّضْرِ إِنِّي أَحَدُ رِيحَيْهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ»، قَالَ سَعْدُ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعُ، قَالَ أَنَسُ: فَوَجَدْنَا بِهِ بَضْعًا وَثْمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ، أَوْ رَمِيَةً بِسَهْمٍ وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَقَدْ مَثَلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتُه بِنَانِهِ قَالَ أَنَسُ: "كُنَّا نَرَىٰ أَوْ نَظُرُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ: { مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ }¹

فأظهر الله سبحانه مفهوم الرجولة في فعل هؤلاء وموقفهم الثابت وعزيمتهم المتوقدة نصره لدين الله تعالى عند أشد الشدائد، حينما يصبح الموت اقرب للإنسان من شراك نعله، وحينما يجبن الجبناء، ويتخلف المتخلفون، يظهر المؤمن الرجل، متيقنا من حقيقة ذاته وإيمانه، ولم يكن موقف أنس بن النضر وأصحابه يوم أحد إلا استمرارا لما سبق من مواقف أهل الإيمان، فقد اخبر الله جل وعلا عن حقيقة الرجولة الایمانية في أكثر من

¹ متفق عليه رواه البخاري 2805، و مسلم 1903

قصة ممن سلف من الامم ومن أظهر الأمثلة التي أخبر ربنا جلّ وعزّ عنها في بيان ذلك قصة اصحاب القرية، إذ قال سبحانه وتعالى: [وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ * إِيَّيَّ إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِيَّيَّ آمَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ] [يس 20-27]. وفيه بيان لحقيقة الصراع والمعركة المستمرة، معركة الإيمان في مراحل الضعف، وقلة الأتباع، وتحاذل الناصرين، إلا ممن رسخ الإيمان في قلوبهم، وعلموا المطلوب منهم فقاموا به على أكمل وجه لما دعاهم.

هنا تتجلى العظمة ويستعلي الإيمان في مواجهة الظلم والقمع، ففي اللحظة التي يستعلي فيها الباطل ويستحرّ القتل بأهل الإيمان فيقبع الجبناء في ملاجئهم ايثارا للسلامة، ويتفوق المنافقون في خوفهم فيمالتون الباطل، أو يسكتون وينسحبون بكل صمت، وقد كانوا قبل ذلك يملؤون المنابر صياحا وصراخا بعظيم أجر أهل البلاء، وقوة الإيمان. فلما وقع البلاء وجاء الاختبار انكشفت الحقيقة وظهرت علا حقيقتهم.

لكن في ظل ذلك كله تأتي صورة أهل الإيمان الحقيقي، الذين يظهرون عندما تطلبهم الميادين، فيأتي رجل لا سلطان له ولا مكانة، لا مال ولا قبيلة، سلاحه الكلمة، ودرعه الإيمان، يزأر بكلمة الحق يا قوم اتبعوا المرسلين، لم تكن الكلمة كلمة ترف أو مترف، لم تكن طلبا لمكانة في الدنيا، او إظهارا لموهبة، إنها الكلمة الأعلى، لقد قتل المرسلون أصحاب الدعوة، فهل سينجو الاتباع؟!!!

هنا تجلت العظمة، وهنا تجلّت أسمى معاني الإيمان لتتحقق السيادة والسعادة معا، السيادة

والاستعلاء بالحق مهما كان الثمن، وهذا ما اراده نبينا صلى الله عليه وسلم من أتباعه من أهل الإيمان، كما في حديث جابر: «سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْرَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَالَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَهَاهُ فَقَتَلَهُ»¹.

لكن المسألة لم تقف عند حدود الدعوة لاتباع المرسلين، بل جاء البيان لمنهج أهل الإيمان في الاتباع، والتأكيد على الحقيقة الغائبة، إنه الاستنكار على صرف العبادة لغير مستحقها، ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون. كلمة أقوى من كل الكلمات، أنا لن أعبدكم، لن أعبد دنياكم ولا أموالكم، ولن أكون مستعبدا لعظاياكم، لم آت اليكم طالبا الدنيا من خالقها ومالكها، ولن أطلبها منكم.

ولما كانت الكلمة تنطلق لتلامس القلوب، كانت هناك سيوف تنتظر أمر الطاغوت وهي تتوهم تحقيق الانتصار، ووصلت الى هدفها لتخترق الجسد، ولتنزف الدماء، لتقلب المعادلة، ولتأتي البشارة مع أول قطرة دم " أدخل الجنة "، ولتحدد هوية وتطلعات أهل الإيمان، " يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين " انه الفرح بالفوز، مع تمنني الخير لأولئك الذين لم يدركوا حقيقة المعركة ولا مآلاتها. بل لم يعرفوا حقيقة هذا الخصم المستعلي بالإيمان على ضعفه، ومقدار ما تحمله نفس المؤمن من إرادة الخير حتى لمن حاربوه في دينه.

كان المؤمن متمثلا بالرجل الذي جاء من أقصى المدينة على عجل لينطق بكلمة الحق عالما بالنتيجة، فقد رآها في دماء المرسلين التي نذفت، لكن الأعجب أن فريقا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم رغم ما جاءهم من وحي ربهم، وسنة نبيهم صلى الله عليه

¹ رواه الحاكم 4884، والطبراني في الاوسط 4079، والالباني في السلسلة الصحيحة 374 وله اكثر من طريق يشهد بعضها لبعض فهو حسن بمجموع طرقه

وسلم نكصوا وما زال منهم من ينكص على عقبيه، لم يدرك هؤلاء معنى أن يقفوا مع الحق، وأن يسيروا في ركابه، وأن يحملوا الخير للناس بكلمة لو ذهبت بأرواحهم عن الدنيا فقد فتحت لهم أبواب السماء ومصاريع الجنة. هي كلمة ودعوة لخير ينفع الناس، ونهي عن شرّ يحيق بالأرض ومن عليها، ليتجلى حقيقة أهل الايمان، وثقتهم برهم، وما زالت الآيات تناديهم، لن يخذلكم ربكم، [وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ] [آل عمران 157]، فكيف إذا كان الجزء أعظم وأكبر وأكمل [وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ] [آل عمران 170].

وهكذا تتضح النتيجة، أن الرجل لما علم يقينا أن موته أصبح حياة وفوزا، لكنه لم يكن يعلم أن موته كان فناء لقاتليه. معذرة فهو لم يمت هو في النعيم، ومن بقي من خلفه هوى الى الجحيم، جحيم القلق والخوف، ثم نهاية السوء والألم [وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ * إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ] [يس 82-29]

وفي كلتا الحالتين - مؤمن آل فرعون أو مؤمن القرية التي جاءها المرسلون - لم تكن الرجولة حالة فردية، وإن كانت لم تكن حالة كلية، فالمستضعفون الذين اتبعوا صالحا عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام رغم ضعفهم وقلة حيلتهم، لم يمنعمهم الضعف من أن يستعلوا بإيمانهم [قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ] [الاعراف 75].

هذه هي الصورة التي تتكرر في آيات القرآن لإظهار مواقف أهل الايمان. الايمان المعجون

بماء الرجولة، والمنسوج بخيوط التوكل والثقة بالله. وهو النموذج الذي أراد الله لعصبة الإيمان أن تحتذي حدوه، لتقيم بناءها الايماني على صخر الثقة بالله والتوكل عليه والاعتماد عليه، وكانت أمة محمد صلى الله عليه وسلم الأمة الولود، والرحم الأكثر خصبا، فتوالى الرجال يتوالدون عبر العصور ويتعلمون معاني الرجولة من قائد الرجال محمد صلى الله عليه وسلم. قال علي رضي الله عنه: «كُنَّا إِذَا احْمَرَ الْبَأْسُ، وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدْنَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْهُ»¹، وفي رواية أبي إسحاق، قال رجل للبراء بن عازب رضي الله عنهما: أَفَرَزُّمُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ حُنَيْنٍ؟ قَالَ: لَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَفِرَّ، إِنَّ هَوَازِنَ كَانُوا قَوْمًا رُمَاءً، وَإِنَّا لَمَّا لَقِينَاهُمْ حَمَلْنَا عَلَيْهِمْ، فَأَهْرَمُوا فَأَقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْغَنَائِمِ، وَاسْتَقْبَلُونَا بِالسِّهَامِ، فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمْ يَفِرَّ، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ وَإِنَّهُ لَعَلَى بَعْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ، وَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَخَذُ بِلِجَامِهَا، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»²

وكان من أوائل دروس الرجولة التي علمه النبي صلى الله عليه وسلم لصحابته رضوان الله عليهم؛ يوم جعلهم أصحاب قرار في خوض المعركة الأولى ما بين معسكر الايمان الناشئ حديثا، منعزلا، لا تحالفات، ولا مناصرين، في محيط خضم من الاعداء والمتربصين، مع العدو الأشرس الذي ما فتى منذ قامت الدعوة يحاربها بكل ما أوتي من قوة ومال وسلطان. لكن إيمانه بأنه من اعتمد على الله لا قل ولا مل ولا ذل ولا ضل، لهذا قام الْمُقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ امْضِ لِمَا أُمِرْتَ بِهِ فَنَحْنُ مَعَكَ وَاللَّهِ لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى إِذْ هَبَّ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ، وَلَكِنْ

¹ رواه احمد 1374، والنسائي 8585، والبخاري 723، والحاكم 2633، وابو يعلى 302، وصححه الذهبي والارناؤوط وابن

حجر واحمد شاكر

² متفق عليه، رواه البخاري 2864، ومسلم 1776

أَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمْ مُقَاتِلُونَ. فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ سِرْتُ بِنَا إِلَى بَرَكِ الْعِمَادِ لَجَالِدْنَا مَعَكَ مَنْ دُونَهُ حَتَّى تَبْلُغَهُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْرًا وَدَعَا لَهُ بِهِ ثُمَّ قَالَ: أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ وَإِنَّمَا يُرِيدُ الْأَنْصَارَ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ عَدَدُ النَّاسِ، وَكَانُوا حِينَ بَايَعُوهُ بِالْعَقَبَةِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا بَرَاءٌ مِنْ ذِمَامِكَ حَتَّى تَصِلَ إِلَى دَارِنَا، فَإِذَا وَصَلْتَ إِلَيْنَا فَأَنْتَ فِي ذِمَّتِنَا نَمْنَعُكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَنْفُسَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَخَوَّفُ أَنْ لَا تَكُونَ الْأَنْصَارُ تَرَى أَنَّ عَلَيْهَا نُصْرَتَهُ إِلَّا بِالْمَدِينَةِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسِيرَ بِهِمْ إِلَى عَدُوِّ بِلَادِهِمْ، فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: وَاللَّهِ لَكَأَنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تُرِيدُنَا.

قَالَ: أَجَلٌ. قَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: فَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ حَقٌّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عَهْدَنَا وَمَوَائِقَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَاْمُضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ فَنَحْنُ مَعَكَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ لَخَضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا وَاحِدٌ، وَمَا نَكَرُهُ أَنْ نَلْقَى عَدُوَّنَا غَدًا، إِنَّا لَصَبْرٌ عِنْدَ الْحَرْبِ، صُدِّقَ عِنْدَ اللَّقَاءِ، وَلَعَلَّ اللَّهُ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ، فَسِرَّ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سِيرُوا وَأَبْشِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللَّهِ لَكَأَنَّيَ أَنْظُرُ الْآنَ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ¹.

ويوم أحد بعد مخالفة الرماة أمر النبي صلى الله عليه وسلم، وبعد أن كانت الدائرة قد دارت على الكفار، وتشنت شملهم، وولوا مدبرين، جاءت المعصية والمخالفة شرًا ووبالا على جمع المسلمين. فالتفت فرقة من المشركين لتهاجم المسلمين من الخلف، وتأخذهم على حين غرة، وتبدد النصر، وتفرق جمع المسلمين، وطاشت الأحلام، وجمع المشركون

¹ رواه البيهقي في دلائل النبوة 34/3

أشلاءهم الممزقة ليعاودوا الكرّة والهجوم، واشتدت الهجمة تريد النيل من شخص النبي صلى الله عليه وسلم. ما بين رعايد يريدون الوصول اليه صلى الله عليهم بسيوهم، وآخرون يرشقونه بسهامهم. وثبت أهل الإيمان حول رسولهم صلى الله عليه وسلم، يتلقون عنه السهام، ويردون عنه أهل الإجرام، ومنهم نسيبة بنت كعب المازنية رضي الله عنها، لما انكشف الناس وفرّ منهم من فرّ باشرت القتال، وجعلت تذبّ عن النبي صلى الله عليه وسلم بالسيف، وترمي عن القوس. ولما قصد ابن قمئة رسول الله صلى الله عليه وسلم اعترضت له ومصعب بن عمير، وضربت ابن قمئة ضربات، ولكن عدوّ الله كان عليه درعان، وضربها هو بالسيف فجرحها جرحاً عظيماً، صار له فيما بعد غور. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان » وقال: « مَا التَّفَتَّ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا إِلَّا وَأَنَا أَرَاهَا تَقَاتِلُ دُونِي »¹.

ومن أشرف وأنبل وأشجع المواقف ما حدّث به زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: " بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد أطلب سعد ابن الربيع. قال: فجعلت أطوف بين القتلى، فأتيته وهو بأخر رمق، وبه سبعون ضربة؛ ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت: يا سعد! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليك السلام، ويقول لك: أخبرني كيف تجددك؟ فقال: وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم السلام، قل له: يا رسول الله! أجد ريح الجنة. وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيكم عين تطرف. وفاضت نفسه من وقته"².

وتجلّت مواقف الإيمان من نساء الانصار بعد المعركة، عن سعد بن أبي وقاص، قال: مر

¹ سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الصالحى الشامى 201/4، وقد رواها غير واحد من رواة السيرة
وومنهم ابن سعد في الطبقات نقلا عن الواقدي بسنده وفيه انقطاع.

² البداية والنهاية لابن كثير 44/4

رسول الله صلى الله عليه وسلم بامرأة من بني دينار - السُّمَيْرَاء بنت قيس -، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد، فلما نُعوا لها، قالت: فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

قالوا: خيرا يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه؟ قال: فأشير لها إليه، حتى إذا رآته قالت: كل مصيبة بعدك جلل! - أي صغيرة -.

وهذه المدرسة اليمانية التي خرجت خير جيل على وجه الأرض، لم تكن مدرسة عادية، بل هي مدرسة انقادت لربها، فكان معلّمها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهاجها كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وصفوفها وفصولها المساجد، ودروسها حلق الذكر، وموائد العلم، ووظائفها البيئية تلاوة القرآن والأذكار وقيام الليل. ويبقى السؤال: كيف بنى النبي صلى الله عليه وسلم هؤلاء الرجال؛ فانتظم عقدهم، وأصبحوا صورة حيّة ونموذجية في التاريخ الانساني كله؟!!

إن أول شرط من شروط الانتساب الى هذه المدرسة المتخصصة في إعداد الرجال هو الانتساب الى المدرسة بالرغبة والخضوع، بتعبئة استمارة الدخول اليها بكلمة الشهادة، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. فإذا كان المعلّم عبدا لله، فالطالب تبع في إعلان العبودية لخالقه، فتحرر روحه ونفسه وجسده من عبودية غير الله، فيعطي بيعة قلبه ولسانه وجوارحه لله بأن يخلص العبودية لله وحده، وينقاد بقيادة الدليل الذي اصطفاه الله على خلقه، متبعا وملتزما بالمنهج الذي أنزله الله، وبالسنّة التي جاء بها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. [إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا] [الفتح 10].

إن الرجولة تقتضي أن يسلك الإنسان مسالك الرجال، ويتخلق بأخلاقهم، ويفعل فعالمهم، ويقف مواقفهم. لهذا بيّن الله حالهم، وخلّد مواقفهم، وذلك استشارة لهم من يأتي بعدهم. وعند النظر في أحوال من عدّوا أنفسهم على أهل الإيمان، سواء فيمن كان قبلنا من أهل الكتاب - كما أخبر الله عنهم - أو من المسلمين، نشاهد ما تسلل إليهم من خلل، اطمئنت إليه نفوسهم، وركنت إليه طبيعتهم، وحسبوا أنهم به قد وصلوا معارج الكمال، وما انتبهوا لما أبلغ الله به أهل الإيمان، لكي لا يركنوا إلى ما ركن إليه أسلافهم ممن انحرفوا من الأمم السابقة، إذ قال سبحانه: [وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ] [المائدة 18].

وكما قال أهل الكتاب من قبل قال بعض الذين تلبسوا لباسهم، فظنوا أنهم مجرد قول أنهم مسلمين فقد حازوا الخيرية على غيرهم، متناسين شروطها التي وضعها الله سبحانه وتعالى، وبيّن أنه لا انفكك عنها لمن أراد الخيرية على الناس: [كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ] [آل عمران 110]. فلما زعموها بمعزل عن شرطها فقدّ التفضيل قيمته. والمتدبر لآيات الله في القرآن يجد ذلك واضحاً، فالله سبحانه عندما ذكر تفضيل بني إسرائيل على غيرهم من العالمين، أتبع آية التفضيل بآية كأنما لا تنفك عنها في موضعين من سورة البقرة، فقال في الأولى: [يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ] [البقرة 47-48] وفي الآية الثانية قال جلّ وعزّ: [يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي

أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَبْنِي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ [البقرة 122-123].

هي نفس الكلمات ونفس العبارات، الأفضلية لمن اتقى وخشي يوم لقاء الله حيث لا ينفع نفس شيئا من ذاتها أو من غيرها، ولا تنتصر نفس لنفسها، ولا تجدد من ينصرها، إلا أن يكون معها برهان من الله بالتزامها شرطه، وعملها بما أمر وانتهائها عما نهي عنه وزجر، فتتداركها رحمته، وينأى فضلها سبحانه.

وأما من خالف وضلّ وزلّ وأعمى الله بصيرته، فأخذ بنص الخيرية بمعزل عما تلاه، فقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن قبيح فعلهم، وما ترتب عليه من خلل في السلوك والاعتقاد فقال سبحانه: [فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ] [المائدة 13].

فعندما نسوا ما ذكروا به من ارتباط الخيرية والتفضيل بالتقوى والخشية والخوف من لقاء الله، أصبح سلوكهم ينضح بالخيانة، إلا الذين استقاموا منهم وهم قليل. وضرب الله لهذا القليل مثلا في رجلين أنعم الله عليهما بالثبات على ما أمر به من خشيته سبحانه فوصفهم به، [قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] [المائدة 23].

إن السمة الأبرز في التكوين الإعدادي للرجلين كرجال يُعتمد عليهما، ويوثق بهما، أنهما يخافان، فكان الخوف الذي هو مظنة النقص أداة كمال. والخوف خوفان:

خوف المرء على نفسه وإيثارها ذاتها عن غيرها، وهو إن كان مشروعاً إلا أنه معلول

بالنقص.

وخوف المرء على غيره مع خوفه على نفسه، ويبقى فيه علة السبب، ونقص هل خوفه على غيره بما يتعلق بدنياهم أو بأخراهم.

أما المؤمن فخوفه لا على نفسه وأهله وأحبابه لعارض دنيوي، بل رجاء فوزهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة، ومثاله في القرآن الكريم مؤمن آل فرعون، قال الله سبحانه وتعالى مخبراً عنه: [وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَأْقُومُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ * وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَأْقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ الْآخْزَابِ * مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ * وَيَأْقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُؤَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ] [غافر 30-33]. وإن ما تظهره الآيات يفصح عن حقائق لا يمكن الغفلة عنها أو تجاهلها،

الحقيقة الأولى: أن الله سبحانه وتعالى وصفه بوصفين وقال رجل مؤمن، ولو جاء النص بقول وقال مؤمن لعلمنا أن المقصود ذكر لخلق اللفظ من تاء التأنيث كقوله تعالى: [وَأَمْرًا مُمِناً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ] [الاحزاب 50]، اذن فلفظة رجل جاءت للتأكيد على حقوق الرجولة التي تحققت بالايان فهو رجل مؤمن، وهذه الرجولة قد لا تتحقق بكاملها لكل مؤمن ولذلك جاء في نصوص القرآن في موضعين [مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ]، فالمؤمنون أما أن يكونوا ذكورا أو إناثا لكن تحقيق الرجولة الايمانية يتطلب

مميزات تحقق التميز في الصنفين، وهذا التميز يظهر عند الشدائد، قد يتسلل الخوف للنفوس، لكن عندما يصبح الأمر شديدا فلا بد من أن يصدع أهل الحق بالحق دزن خوف رحمة بالناس، كان خوف مؤمن القرية شبيه بموقف مؤمن آل فرعون، فقد حذر قومه مما قد يصيبهم بمخالفة المرسلين موقعا المثل على نفسه بما يمكن أن تتعرض اليه من الأذى في حال الكفر فقال: [يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ] [يس 20-23]. بهذا تتحقق الأفضلية، بالایمان، وبالحرص على هداية الناس رحمة بهم مما غفلوا عنه من عواقب الكفر والجحود.

الحقيقة الثانية: التديّة والاستعلاء: قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ. فالباطل ينتفخ دائما ظنا منه أنه بذلك يستعلي على أهل الإيمان يبطشه وجبروته، ولكن من ذاق طعم الإيمان يعرف الحقيقة، فيعطي كل شيء قدره الحقيقي، ويصدع بدعوته بقوة وثبات: [وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ] [غافر 38-39].

الحقيقة الثالثة: أن وعد الله لأوليائه بالنصر حق، وأن مكر أهل الباطل في ميزان أهل الإيمان مجرد وهم، وبطشتهم هباء، ولهذا جاء النص صريحا بقوله تعالى: [فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ] [غافر 45]. وهذه الحقيقة يجليها لنا قول النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد، وقد انقلبت الامور وتغيرت الحال فصرخ ابو سفيان: يَوْمٌ يَوْمٌ بَدْرٍ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ، إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي الْقَوْمِ مُثَلَّةً، لَمْ أَمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسْؤُنِي، ثُمَّ أَخَذَ يَرْجُزُ: أَعْلَى هُبْلًا، أَعْلَى هُبْلًا، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا

تُجِيبُوا لَهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ»، قَالَ: إِنَّ لَنَا الْعِزَّةَ وَلَا عِزَّةَ لَكُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا تُجِيبُوا لَهُ؟»، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا اللَّهُ مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ»¹، وفي رواية أخرى عند احمد وغيره فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَوْمَ بَيْتِمْ بَدْرٍ، الْأَيَّامُ دُؤْلٌ، وَإِنَّ الْحَرْبَ سِجَالٌ. قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: لَا سَوَاءً، فَتَلَانَا فِي الْجَنَّةِ، وَقَتَلَانَا فِي النَّارِ².

وهذه الحقائق هي أساس بناء أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وعليه كان شرط تفضيل أمة محمد صلى الله عليه وسلم يقوم على أربع قواعد، كما أخبر سبحانه وتعالى: [كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ] [آل عمران 110]. وفي ذلك مسألتان:

الأولى: أن النص ذكر ثلاثة أمور: أمر بمعروف ونهي عن منكر وإيمان بالله، فأين هي القاعدة الرابعة؟!؟

الثانية: ما علاقة أهل الكتاب بنص تفضيل أمة محمد صلى الله عليه وسلم؟!؟

إن إدخال أهل الكتاب في نص تفضيل أمة محمد صلى الله عليه وسلم هو جواب السؤال الأول، وهو الشرط الرابع من شروط التفضيل، ذلك أن ما تلا ذلك من آيات بين حكمة إدخال أهل الكتاب في نص تفضيل المسلمين على غيرهم، وبإتمام تلاوة الآيات تنكشف اسرار النص. فقد أخبر الله عنهم ليبين لنا أنهم كانوا أيضا محل تفضيل

¹ رواه البخاري 3039

² رواه احمد 2609، والحاكم 3163، والطبراني في الكبير 10731، وعبد الرزاق 9735، وصححه الارناؤوط واحمد شاکر والذهبي والهيتمي

في أزمانهم بشرط الله، فلما خالفوه انترعت منهم الخيرية، بل وأكثر من ذلك فقد أخبر تعالى بأنهم عوقبوا بالدونية بعد تفضيل، [ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ] [آل عمران 112-114]. وعندما حدد الله في آية التفضيل المسائل الثلاث (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)، فلا شك بأنها مسائل واضحة لا لبس فيها، ثم جاء قوله تعالى (ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم) ، والایمان واضح في الآية من أولها (وتؤمنون بالله)، فما حكمة تكراره!!؟

كأنما يريد الله سبحانه وتعالى أن يُخبرنا عن المسألة الأهم، والتي وقع فيها أهل الكتاب من قبل، ثم بدأ كثيرون من الأمة يتساقطون فيها، ألا وهي مسألة كلية الإيمان، فالإيمان لا يتجزأ، فذكر سبحانه قتل بني اسرائيل لأنبيائهم، كفرا بهؤلاء الانبياء، إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا] [النساء 15-151]. فالإيمان كل لا يتجزأ، سواء كان بالرسول جميعا أو بالكتاب كله، أو بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم. وبهذا كفر من قال آخذ بالكتاب دون السنة، ومن قال آخذ بما يوافق عقلي من السنة وأرد ما لا يوافق عقلي. فكل ما جاء عن الله سبحانه أو عن رسوله صلى الله عليه وسلم محلّ اتباع والتزام وتصديق، وردّه ردّ أمر الله وهو عين الكفر. فمن لم يؤمن ولم يلتزم ولم يتبع رسولا أمر الله باتباعه والتزام أمره وحكمه إنما هو تكذيب وردّ وعدم إيمان.

ومن المسائل المهمة التي يجدر الانتباه لها لفهم دلالات النص، أن الله سبحانه وتعالى قدّم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) وقد يتصور البعض جهلاً أن الأمر كذلك، وليس هو كذلك. إذ لمعرفة المعروف ولمعرفة المنكر لا بد من ضابط يضبطها، فليس كل ما استحسنته الناس حسن، وليس كل ما استقبحة الناس قبيح. وكثير من أهل الأهواء والباطل استحسنتوا محرمات حرّمها الله كالمعاملات الربوية البنكية بحجة أنها في زماننا لا يترتب عليها استعباد الناس، وفيها تخفيف كبير على الناس. ولذا تدافع الكثيرون الى استحسان فتوى اباحة القروض الربوية لشراء المنازل، ووجدوا فيها ضالتهم المنشودة غير آبهين بأن الذي استقبح الربا وحرّمه هو الله.

وتقديم الامر بالمعروف والنهي عن المنكر على وتؤمنون بالله لا يعني ما ورد في الترتيب، لأن الواو لا تفيد ترتيباً ولا تعقيباً بل تفيد المشاركة. ولقد دلت نصوص الوحيين على أنّ كل أمر وكلّ عمل مردّه ومرجعه الايمان، وأنه لا قبول لشيء إلا بمقتضى تحقق الإيمان في عمله خالصاً لله، جاء التفصيل بأن أفعال المؤمنين من أهل الكتاب في الايات التي تلت مرتبط بالايمان بالله، قال جلّ وعزّ: [لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ] [آل عمران 113-114].

وبعملية ربط بين كافة ما ذكرنا ستتضح لنا أركان معادلة الرجولة، لكن لا بد لنا من مثال آخر لتكتمل الصورة، وتنكشف تفاصيلها، وذلك لتوضيح مسألة إن اختلطت على الناس معالمها لا تحقق المعادلة نتائجها، والمثل الذي أخبر عنه ربنا سبحانه وتعالى،

يتكرر في كل مجموعة من الناس في كل زمان ومكان، قال تعالى: [فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهَ كَمِمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ] [البقرة 249].

جاء النص ليخبر عن ثلاث فئات من الناس، كلها أمرت بنفس الأمر، لا تشربوا مطلقاً، فإن كان ولا بدّ فما قلّ مما تضطرون إليه. والنتيجة أن الأكثرية خالفت الأمر رغم أن طالوت أعلن براءته ممن يفعل ذلك قبل أن يفعله، ولا تستغرب عزيزي القارئ فليس مقصودنا هنا من ذهب الى المخالفة التامة، ولا من ذهب الى الضرورة، بل مقصودنا من التزموا بالأمر، (فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه) فهي شهادة لهم بالإيمان، لكن تأتينا المفاجأة صاعقة تبعث على الحيرة، فهم رغم إيمانهم وشهادة الله لهم بالإيمان يقولون (لا طاقة لنا اليوم جالوت وجنوده) فإيمانهم لم يحقق لهم اكتمال الرجولة الإيمانية المطلوبة للنصر والتمكين، ذلك أن هناك حداً ومعلماً للإيمان هو الفيصل في مسألة الرجولة الإيمانية من عدمها. وهو ما لم يتوفر في كافة المؤمنين الذين التزموا الأمر، بل انحصر في قلة قليلة منهم (قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين).

من هنا يتضح كمال وعدل ما أخبر به سبحانه وعزّ بقوله: [مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا] [الأحزاب 23]، فليس كل المؤمنين تتحقق فيهم رغم إيمانهم المواصفات المطلوبة لاكتمال الرجول الإيمانية، فالإيمان يزيد وينقص، وللرجولة فيه حدّ إن نقص لم تتحقق على شكلها

المطلوب، ويبقى اللغز المحيّر هل بالإمكان أن تخرج أمة بمجموعها - بذكورها وإناثها - تتحقق فيها معالم الرجولة الايمانية. ومع الرسالة الأكمل والنبى الخاتم تحققت المعجزة، وخرجت للناس أمة وجيل لم يتكرر في التاريخ الإنساني كله، واستطاع الرسول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم أن يربي هذا الجيل ليكون النموذج الأمثل للإيمان المتكامل، والأجمل والأسمى أنه ترك لنا ملخصاً ومنهجاً واضحاً في التربية لتحقيق مقصد الشارع وإخراج المجتمع الذي يحقق مراد الله ورسوله فيه، ونلخصه فيما يلي:

أولاً: الاعتناء بالقلوب وتعهدتها بما يصلحها: إن المتدبر لآيات الله يجد بيان أحوال الرجال من خلال قيمة الإحساس ما بين حياة القلوب ومرضاها وموتها، ولذلك جاء أثر السلوك بمقدار صحة القلوب واعتلالها، فإذا استقبل القلب غيث المعاني وغذاء الروح، ظهر أثر ذلك على الجوارح، قال الله تعالى: [**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**] [الأنفال 2]، وهو نفسه ما أكده حديث أبي هريرة قال: **قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»**¹. ولهذا جاء التأكيد على أن ظهور الأثر دليل على سلامة القلب وصحته، قال تعالى: [**فَالهٰكُمُ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ** * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ] [الحج 34-35].

ولتحقيق استمرارية الحفاظ على سلامة القلوب بقي النداء الإلهي لأهل الايمان مستمرا، [**أَمْ يَأْنٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**] [الحديد

ثانيا: ربط القلب بما يحويه ويفيض عليه نفحات الإيمان: والقلب في إطار هذا الارتباط

يرتبط بثلاثة أمور:

الأمر الأول: المكان.

الأمر الثاني: الزمان.

الأمر الثالث: الفعل.

أما المكان فالمقصود به الأماكن التي شرعها الله عز وجل، وخصها بنفحاته ورحماته، وليست الأماكن التي استهوت اصحاب البدع والمنكرات. وكل مكان شرعه الله سبحانه قام عليه دليل من كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وسلم. وكل ما لم يرد فيه نص فزعم أحد أن فيه خيرا فقد افترى على الله كذبا، وقال على الله ما لم يأذن به الله ولم ينزل به سلطانا. وما كان لأحد أن يأتي بخير مما جاء به رسولنا صلى الله عليه وسلم. وأما الأماكن التي وردت النصوص بخيريتها على غيرها، وندب الشرع اليها فهي:

الكعبة المشرفة:

ودليلها قوله سبحانه وتعالى: **وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ** [البقرة 125], وكذلك قوله جلّ وعزّ: **[إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ]** [آل عمران 97]. وفي الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أَنَّ رَجُلًا، قَامَ يَوْمَ الْفَتْحِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي نَذَرْتُ لِلَّهِ إِنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ مَكَّةَ، أَنْ أَصَلِّيَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ

رَكَعَتَيْنِ، قَالَ: «صَلِّ هَاهُنَا»، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «صَلِّ هَاهُنَا»، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «شَأْنُكَ إِذَنْ»¹

المسجد النبوي:

ودليله حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيَمَا سِوَاهُ، إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ»²، وفي الحديث عن عبد الله بن زيد المازني رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمَنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ»³.

المسجد الأقصى:

ودليله حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: تَدَاكَرْنَا وَنَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّهُمَا أَفْضَلُ: مَسْجِدُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ مَسْجِدُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَرْبَعِ صَلَوَاتٍ فِيهِ، وَلِنَعْمَ الْمُصَلَّى، وَلْيُوشِكَنَّ أَنْ لَا يَكُونَ لِلرَّجُلِ مِثْلُ شَطْنِ فَرَسِهِ مِنَ الْأَرْضِ حَيْثُ يَرَى مِنْهُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا - أَوْ قَالَ: خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا"⁴، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لَا تُشَدُّ

الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِي هَذَا، وَمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى"⁵.

قال الصنعاني: لا يستقيم شرعا أن يقصد بالزيارة إلا هذه البقاع لاختصاصها بما

¹ رواه احمد 14919، وابو داود 3305، والحاكم 7839، والبيهقي في الصغير 3222، وابو يعلى 2116، وصححه الالباني والارناؤوط والذهبي

² متفق عليه، رواه البخاري 1190، ومسلم 1394

³ متفق عليه، رواه البخاري 1195، ومسلم 1390

⁴ رواه الحاكم 8553، والطبراني في الاوسط 6983، وصححه الالباني والذهبي

⁵ متفق عليه، رواه البخاري 1189، ومسلم 1397

اختصت به من المزية التي شرفها الله تعالى بها. والحديث دليل على فضيلة المساجد هذه، ودل بمفهوم الحصر أنه يحرم شد الرحال لقصد غير الثلاثة كزيارة الصالحين أحياء وأمواتا لقصد التقرب، ولقصد المواضع الفاضلة لقصد التبرك بها والصلاة فيها. وقد ذهب إلى هذا الشيخ أبو محمد الجويني، وبه قال القاضي عياض وطائفة، ويدل عليه ما رواه أصحاب السنن من إنكار أبي بصرة الغفاري على أبي هريرة خروجه إلى الطور؛ وقال: لو أدركتك قبل أن تخرج ما خرجت. واستدل بهذا الحديث ووافقه أبو هريرة. وذهب الجمهور إلى أن ذلك غير محرم واستدلوا بما لا ينهض، وتأولوا أحاديث الباب بتأويل بعيدة، ولا ينبغي التأويل إلا بعد أن ينهض على خلاف ما أولوه الدليل. وقد دل الحديث على فضل المساجد الثلاثة وأن أفضلها المسجد الحرام؛ لأن للتقديم ذكرا يدل على مزية المقدم ثم مسجد المدينة ثم المسجد الأقصى¹.

المساجد:

ودليله حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ عَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ وَرَاحَ، أَعَدَّ اللهُ لَهُ نُزْلَهُ مِنَ الْجَنَّةِ كُلَّمَا عَدَا أَوْ رَاحَ»². ولهذا جعل الله عظيم الأجر في الآخرة لمن تعلقت قلوبهم بالمساجد، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابُّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبْتُهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهُ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهُ خَالِيًا فَقَاضَتْ عَيْنَاهُ" ³

¹ سبيل السلام للصنعاني 598/1

² متفق عليه، رواه البخاري 662، ومسلم 669

³ متفق عليه، رواه البخاري 660، ومسلم 1031

ولا شك أن هناك أماكن مقدسة ورد ذكرها في الكتاب والسنة، وجمهور أهل العلم على جواز سكنها وزيارتها التماساً للبركة فيها بالضوابط الشرعية، ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: من قصد بقعة يرجو الخير بقصدها، ولم تستحب الشريعة ذلك، فهو من المنكرات، وبعضه أشد من بعض، سواء كانت البقعة شجرة أو عين ماء أو قناة جارية، أو جبلاً، أو مغارة، وسواء قصدها ليصلي عندها، أو ليدعو عندها، أو ليقراً عندها، أو ليذكر الله سبحانه عندها، أو ليتنسك عندها، بحيث يخصها بنوع من العبادة التي لم يشرع تخصيص تلك البقعة به لا عينا ولا نوعاً¹.

وأما الزمان، فقصدنا به أفضل الأوقات؛ التي تنزل فيها الرحمات، وتهب فيها على الأرواح السكينة والنفحات، تستجاب فيها الدعوات ويكون العمل فيها أفضل في الأجر والمثوبة من غيرها من الأوقات ومنها:

الثالث الأخير من الليل:

ودليله حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ " ²

العشر الأوائل من ذي الحجة:

ودليله حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ » يَعْنِي أَيَّامَ الْعَشْرِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلٌ حَرَجَ

¹ اقتضاء الصراط المستقيم 159/2

² متفق عليه رواه البخاري 1145، ومسلم 758

بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ»¹:

يوم عرفة:

ودليله حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " حَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَحَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " ²

يوم النحر ويوم القَر:

وقصد بهما يوم عيد النحر - الأضحى -، ويوم القَر هو يوم الحادي عشر من ذي الحجة حيث يقر الحجيج بمنى، ودليله حديث عبد الله بن قُرط، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ أَعْظَمَ الْأَيَّامِ عِنْدَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمُ النَّحْرِ، ثُمَّ يَوْمُ الْقَرِّ»³.

ليلة القدر:

وليس أدل على فضلها ومكانتها من قول الله تعالى: [إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ حَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ] [القدر 1-5]،

وفي الحديث عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من قامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن صامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه⁴. وما ذكرناه لا يحصر أفضل الأوقات فهناك غيرها، كساعة الاستجابة في

¹ رواه ابو داود 2438، وابن ماجه 1727، وابن ابى شيبه 19540، والبيهقي في الكبرى 8392، وابن خزيمة 1814، وابن

حبان 324، وصححه الالباني والارناؤوط

² رواه الترمذي 3585، وحسنه الباني وقال الارناؤوط له شواهد

³ رواه أحمد 19075، ابو داود 1765، والبيهقي في الكبرى 10239، والحاكم 7522، والطبراني في الاوسط 2421،

وصححه الالباني والارناؤوط والذهبي

⁴ متفق عليه، رواه البخاري 1901، ومسلم 760.

يوم الجمعة، والعاشر الأواخر من رمضان، وغير ذلك.

أما الفعل والعمل فقد وردت النصوص بتخصيص أفعال بعينها في أوقات محددة، وإن كانت هذه الاوقات يمكن أن يقوم العبد المؤمن فيها بكثير من الأعمال التي ندب إليها الشارع، إلا أن الأفضلية لفعل بعينه تفضيلاً له عن غيره في هذه الأوقات يدل على خيريته، ومحبة الله من عبده بفعله دون غيره ومن ذلك:

استغفار الاسحار:

قال الله سبحانه وتعالى: [كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ [الذاريات 17-18].

التكبير في العشر وأيام التشريق:

وقد أمر الله سبحانه بالتكبير في أيام الحج في أكثر من موضع في القرآن، وفي الحديث عن نُبَيْشَةَ الْهَدَلِيَّةِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامٌ أَكَلٍ وَشُرْبٍ» وزاد في رواية أخرى «وَذِكْرٍ لِلَّهِ»¹.

والتكبير مأثور عن الصحابة رضوان الله عليهم قال البخاري في معلقات الصحيح: كان عمر رضي الله عنه، «يكبر في قبته بمنى فيسمعه أهل المسجد، فيكبرون ويكبر أهل الأسواق حتى ترتج منى تكبيراً» وكان ابن عمر «يكبر بمنى تلك الأيام، وخلف الصلوات وعلى فراشه وفي فسطاطه ومجلسه، وممشاه تلك الأيام جميعاً» وكانت ميمونة: «تكبر يوم النحر» وكن «النساء يكبرن خلف أبان بن عثمان، وعمر بن عبد العزيز ليالي التشريق مع الرجال في المسجد»² وقد تتبع ابن حجر رحمه الله هذا الأثر في كتابه تغليق

¹ رواه مسلم 1141
² صحيح البخاري 20/2

التعليق، مثلنا صحة إسناده¹

وروى ابن رجب عن عن ميمون بن مهران، قال: أدركت الناس وإنهم ليكبرون في العشر، حتى كنت أشبهه بالأمواج من كثرتها، ويقول: إن الناس قد نقصوا في تركهم التكبير. ثم قال ابن رجب وهو مذهب أحمد، ونص على أنه يجهر به.

وقال الشافعي: يكبر عند رؤية الأضاحي. وكأنه أدخله في التكبير على بهيمة الأنعام المذكور في القرآن، وهو وإن كان داخلا فيه، إلا أنه لا يختص به، بل هو أعم من ذلك كما تقدم². ومنه أيضا صيام الايام البيض، وصيام عاشوراء، واعتكاف العشر وقيام الليل وغير ذلك.

وما ذكرناه هو في إطار التربية الإيمانية لإخراج جيل الرجولة الإيمانية، وهو ما جاء واضحا في قوله تعالى: [فِي بُيُوتٍ أذنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْعُدْوِ وَالْأَصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ] [النور 36-37].

وما نراه في زماننا من الخلل في البناء الاسلامي، لإعداد أمة الاستخلاف والرفعه، يعود في الدرجة الأولى الى ضعف ارتباط الناس بهذا الغذاء الرباني المتمثل في المساجد، وعندما خلت المساجد من عمارها الا في الجمع والأعياد، عزّ الرجال، وتبدلت الأحوال، وظهر الخلل في ارتباط الناس بدينامهم أكثر من آخرتهم. فتأخر النصر وحلّ الدلّ، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، وهذا ما أدركه صلاح الدين في فهم آليات تحقيق النصر، إذ أثر عنه رحمه الله تعالى ورضي عنه أنه كان يتفقد جنده فإذا رأى خيمة

¹ تعليق التعليق 379/2

² فتح الباري لابن رجب 9/9

نام من فيها عن قيام الليل قال: من هنا تأتي الهزيمة. وبالمقابل إذا سمع آيات الله تتلى في خيمة قام من فيها محبتين بين يدي ربهم قال: من هنا يأتي النصر. والسؤال هو لو جاء صلاح الدين الى زماننا ورأى ما فيه كثير من الناس من تضييع الصلوات المفروضات - إلا من رحم ربي وقليل ما هم - فماذا كان سيقول!!!

وقد أدرك أعداء الملة داءنا ودواءنا في الوقت الذي غفل عنه منا الكثير، رغم علمنا جميعاً أن الأمة إن عادت لترتبط بتراثها الاسلامي النابع من اعتصامها وتمسكها بدينها فستكون لها الصدارة والنصر، وقد ادرك موشي ديان وزير دفاع الكيان الصهيوني هذه الحقيقة فقال: " حقاً سيأتي يوم نخرج فيه من هذه الأرض، وهذه نبوءة نجد لها في كتبنا أصلاً، ولكن إذا قام فيكم شعب يعتز بتراثه، ويحترم دينه، ويقدر قيمه الحضارية، وإذا قام فينا شعب يرفض تراثه، ويتنكر لتاريخه، عندها تقوم لكم قائمة، وينتهي حكم إسرائيل"¹.

ولتحقيق هذه المقاصد جاءت سنة الابتلاء خاصة على الأفراد وعامة على أمة المسلمين لترويض النفوس وإظهار حقيقة الإيمان في المجتمع وكشف الزيف والتزوير الذي قد يختلط بجمهور المسلمين، وما قد يظنه الناس من شر في الابتلاء تتحقق فيه فوائد عظيمة:

الاولى: معرفة حب الله للعبد: جاء في الحديث عن انس رضي الله عنه عَن رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: «عِظْمُ الْجَزَاءِ مَعَ عِظْمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»². وقد يقول قائل كيف يكون البلاء دليل حب والمحبة يعمل كل شيء لإسعاد من يحب، يجيبنا عن ذلك

¹ خلاصة التحقيقات في الرد على الشبهات والتصورات لمحمد عطا رمضان ص44

² رواه ابن ماجه 4031، والترمذي 601/4، ورواه احمد بلفظ آخر 23623، وصححه الالباني والارناؤوط واحمد شاکر

حديث آخر للنبي صلى الله عليه وسلم تبياناً للمسألة كما في حديث أبي خالد السلمي رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَنَزَلَةً لَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلِهِ ابْتِلَاءُ اللَّهِ فِي جَسَدِهِ وَفِي مَالِهِ وَفِي وَلَدِهِ، ثُمَّ صَبَّرَهُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يَبْلُغَ الْمَنَزَلَةَ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»¹. وهذه المنزلة العظيمة التي تأتي العبد مع ما يلاقيه من شدة البلاء تحقيقاً لكمال السعادة بعد الشقاء، والراحة بعد العناء، وفيه ما جاء من حديث جابر رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلَاءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ فُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ»²

وبمقدار حجم البلاء يتحدد حجم الإيمان الذي عليه تنبني محبة الله لعبده، فالإيمان دافع للطاعة والقربات وفي حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْظِيئَتِهِ، وَلَعِنِ اسْتِعَاذَنِي لِأَعِيدَتِهِ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ"³.

ويخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن البلاء يكون على قدر الإيمان فيقول كما في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: فَقَالَ: " الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ، فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ،

¹ رواه أبو داود 3090، والطبراني في الكبير 318/22 رقم 801، وصححه الألباني

² رواه الترمذي 2402، والطبراني في الكبير 155/9 رقم 8777، وصححه الألباني وأحمد شاكر

³ رواه البخاري 6502

فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرُحُ
الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَبْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ حَطِيئَةٌ¹

الثانية: تمييز الخبيث من الطيب وكشف المؤمن من المنافق: قال تعالى: [مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذَرَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمَيَّزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ] [آل عمران 179]. قال الرازي ، أن الله تعالى أخبر أن ما حدث في احد صار دليلا على امتياز المؤمن من المنافق، لأن المنافقين خافوا ورجعوا وشمتموا بكثرة القتلى منكم، ثم ثبطوا وزهدوا المؤمنين عن العود إلى الجهاد، فأخبر سبحانه وتعالى أنه لا يجوز في حكمته أن يذركم على ما أنتم عليه من اختلاط المنافقين بكم وإظهارهم أنهم منكم ومن أهل الإيمان بل كان يجب في حكمته إلقاء هذه الحوادث والوقائع حتى يحصل هذا الامتياز، ثم ذكر الخلاف بين اهل العلم حول بأي شيء ميز الله بين المؤمنين والمنافقين وذكرها وجوها:

أحدها: بإلقاء المحن والمصائب والقتل والهزيمة، فمن كان مؤمنا ثبت على إيمانه وعلى تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن كان منافقا ظهر نفاقه وكفره.

وثانيها: أن الله وعد بنصرة المؤمنين وإذلال الكافرين، فلما قوي الإسلام عظمت دولته وذل الكفر وأهله، وعند ذلك حصل هذا الامتياز

وثالثها: القرائن الدالة على ذلك، مثل أن المسلمين كانوا يفرحون بنصرة الإسلام وقوته، والمنافقين كانوا يغمون بسبب ذلك. ثم بيّن أن معرفة نفاق المنافق من إيمان المؤمن غيب

¹ رواه احمد 1481، والدارمي 2825، والحاكم 121، والبيهقي في الكبرى 6534، وابن حبان 2901، وصححه الالباني والارناؤوط وحسين سليم اسد

لله تعالى وأنه لا يجوز أن يحصل ذلك التمييز بأن يطلعكم الله على غيبه فيقول: إن فلانا منافق وفلانا مؤمن، وفلانا من أهل الجنة وفلانا من أهل النار، فإن سنة الله جارية بأنه لا يطلع عوام الناس على غيبه، بل لا سبيل لكم إلى معرفة ذلك الامتياز إلا بالامتحانات مثل ما ذكرنا من وقوع المحن والآفات، حتى يتميز عندها الموافق من المنافق، فأما معرفة ذلك على سبيل الاطلاع من الغيب فهو من خواص الأنبياء¹.

وحقيقة كشف الله لأفعال المنافقين بما يتبلي الله به العباد لإظهار حقائق ما يحتج القلوب والصدور من الإيمان وعدمه بارزة المعنى والدلالة في قوله تعالى: [وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ] [آل عمران 167]

الثالثة: ليعلم الله من يخافه بالغيب: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيِّدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ] [المائدة 94]. وقوله تعالى ليعلم ليس مقصوده علم بعد جهل وحاشا لله أن يجهل شيئاً من أمر خلقه، بل هو علم حجة على من خلق، ليطهر الخائف من عقابه وهو غائب منتظر لقوة إيمانه؛ ممن لا يخافه لضعف قلبه وقلة إيمانه، قال البيضاوي: ذكر العلم وأراد وقوع المعلوم وظهوره أو تعلق العلم². وقال الخطيب: هذا الامتحان هو امتحان لما في القلوب من إيمان وتقوى وإحسان.. حيث لا وازع يزع الإنسان هنا إلا إيمانه وتقواه.. فلا سلطان يحول بين المؤمن وبين هذا الصيد الذي بين يديه.. فمن غفل في كيانه وازع إيمانه وتقواه كان له أن ينال من هذا الصيد ما يشاء، وعليه أن يلقي

¹ تفسير الرازي 441/9-442

² تفسير البيضاوي 143/2

العقاب وأصوله. ومعنى علم الله هنا، هو العلم المسلط على الواقع بعد أن يقع، أما علمه سبحانه، فهو علم شامل محيط بكل ما كان وما سيكون، وما وقع أو سيقع¹.

الرابعة: تمايز الصابرين من غيرهم: فالمؤمنون يتفاوتون في اعمال القلوب كما يتفاوتون في أعمال الجوارح، والصبر درجات، كما أن الابتلاء درجات، وقد أثارت آيات القرآن قضية الصبر وتمايز الناس فيه، وما يترتب عليه من أجر ومثوبة للمؤمنين ذكورا وإناثا، تخصيصا وتعميما، ومنه قوله تعالى: [لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ] [البقرة 155-157]. وفي بيان تفاوت أهل الإيمان في الصبر حديث أنس رضي الله عنه قال: مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرِ، فَقَالَ: «اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي» قَالَتْ: إِلَيْكَ عَيِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبِّ بِمُصِيبَتِي، وَمَنْ تَعْرِفُهُ، فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَائِبِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى»².

الخامسة: تهذيب النفس وتربيتها: فما كانت النفس لترتقي الى مرتبة الكمال عند رها جلّ وعزّ إلا بإظهار أحسن ما فيها، ولا يصفو الذهب الا بالنار، ولذلك توالى الإختبارات على الأمة منذ الصدر الأول للإسلام، وظل القرآن ينزل مبيّنا لكل حدث يصيب المؤمنين مع بيان ارتباطه بحقيقة الإيمان ومراد الحق سبحانه، ومنه قوله تعالى: [أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ

¹ التفسير القرآني للقرآن 37/4

² رواه البخاري 1283

[البقرة 214]. وما ترتب على فهم المسلمين لحقيقة الإبتلاء ومرادات الحق سبحانه فيه جعل جذوة الإيمان في الرعيل الأول هي الأبرز عبر عصور الإسلام كلها، لتظل صورة واضحة تمثل القدوة والأنموذج الأعلى الذي تترى عليه الأمة، وتنوعت فيها الإبتلاءات ما بين عدوان أهل الكفر على أهل الإيمان، أو خسارة بعض المعارك، أو القحط والجوع، أو وقوع الظلم بالاتهام الظالم وترويج الإشاعات الباطلة ضد أهل الإيمان كما وقع في حادثة الإفك، أو الفتنة، بل أحيانا وقوع عقوبة شديدة بسبب مخالفة كما حدث مع الثلاثة الذين خُلفوا الى أن جاء العفو من رب العالمين [وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ] [التوبة 118].

وما أطلعنا الله عزّ وجل عليه من نماذج في آياته - مع بيان ما اختص به أهل البلاء من كرامة وفضل أراد بهم - إنما هو شحذ لهمم أهل الإيمان للثبات على الطريق، والصبر عليها للوصول الى المرتبة الأعلى، رضي الله عنهم ورضوا عنه، فأحبهم وأحبوه، واتبعوا رضوانه فأسبغ عليهم ثوب كرامته ورداء سكينته.

تناقضات مؤمن

إن غاية الفكر الإنساني في كافة المجتمعات الإنسانية، وفي كافة الأزمنة هو الوصول الى الاستقرار النفسي الذي يحقق السعادة والراحة والصلح مع الذات. والايمان اذا خالطت بشاشته القلوب ذلت أمامه الصعاب، وهانت عليه الخطوب، ذلك أن الايمان إذا استقر في القلب وجد به برد اليقين، الذي يدفع عنه دائما خواطر اليأس وظلمات القنوط. وأما اولئك الذين ظنوا الايمان ميراثا ورثوه، وظنوه حلية أو إسما يطلقونه بألسنتهم دون أن يكون له جذر منغرس في أعماق النفس، تمتد أغصانه لتغذي ثمرتها خلايا الجسد بالطمأنينة والسلام، فإن هؤلاء يعيشون حالة شيزوفرينيا مزمنة، تركت أثرها يبابا في الروح، وجفافا في القلب، وجلمودا في الشعور.

وعندما يصبح الايمان مجرد كلمة بلا معنى، ولفظ بلا إحساس، مما يعني أنه جسد بلا روح، كأنما هو موجود مفقود، موجود لفظا ومفقود معنى، وهو الوصف الدقيق الذي وصفه ربنا سبحانه وتعالى لهذه الطغمة إذ قال: [قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ] [الحجرات 14].

وهذا ما يجب أن نطلق عليه النفس الحجرية، أو المتحجرة، وليست هذه التسمية تسمية بشرية، بل هي التسمية التي أطلقها الله سبحانه على هؤلاء وصفا وتحديدا للحالة التي وصلوا إليها، أو انصهروا فيها فأصبحت هي هم، وهم هي، قال جلّ وعز: [ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ] [البقرة 74]، وهذا هو الفارق الذي نجد ماثلا في آيات

القرآن بين أهل الايمان وأهل التردد والنفاق، فهو الفارق بين حياة القلوب وموتها، ونبضها وخفوتها، ورقتها وقسوتها، [أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ] [الحديد16].

ولهذا كان مجرد وجود هؤلاء في مجتمع المؤمنين سببا لحزن النبي صلى الله عليه وسلم، ذلك أنهم كانوا يقفون على حافة نهر الايمان، ينظرون رقراق ماءه، وبهاء روائه، ويمتنعون عن اعتراف عذب فراته، ويظهروا به أدران قلوبهم، لينضموا الى قافلة الايمان، فكان صلى الله عليهم يتألم لقبيح فعلهم، ويحزن لتأخرهم عن اللحاق بركب الايمان، فيأتيه النداء العلوي من رب الارض والسماء، [يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ] [المائدة 41].

ما هو سبب هذه الحالة المتردّية؟! ولماذا هذا التّخبط؟! وإذا وقف المرء على حال هؤلاء انكشف له السرّ، وقد بما قالوا: اذا عُرِفَ السبب بطل العجب. وعند عرض هؤلاء على أداة الفحص الايماني نجد أن هؤلاء قد تسلل الى قلوبهم فايروس الشك، وجراثومة الريب، واستحوذت على خلاياهم بكتيريا التردد، فأفسدت خلايا الإيمان، وثمار اليقين. ولم يتمكنوا من فهم شروط الايمان التي تلزم لتحقيقه كيانا حيا في النفوس، ولم يفهموا ما ينبغي وما لا ينبغي، ولم يفرقوا بين ما هو مسموح وما هو ممنوع، ولم يدركوا حقيقة المنع ومعناها. ولا يشترط في المنع أن يكون كماً، ومن ذلك أنّ الشارع الحكيم حدد ممنوعات يمنع تسلل ولو ذرة واحدة منها الى القلب، لعظيم خطرها، وفساد ما ينتج عنها، وأثرها في عدم وصول الإيمان الى القلب لتحقيق الإيمان المطلوب.

وقد يتساءل الإنسان ما هو الذي لا ينبغي أن يتسلل الى حياة وقلب المؤمن لكي لا

يفسد بذرة الإيمان فيه؟!!

وكل متدبر للقران أو قارئ له يستطيع الوصول الى كل قاذح في الايمان أو مانع منه بكل سهولة ويسر، فكثير من الايات أوضحت بالنص المحكم الدلالة موانع الايمان والتي تتلخص في عدة أمور منها:

الأول: أكل ما نهى الله عنه:

ذلك أن ما يدخل الجوف يترك أثرا في تكوين هذا الجسد فسيولوجيا وسيكولوجيا، ونعني بالفسولوجي: علم التغيرات الجسدية المرئية التي يمكن رؤيتها مباشرة ومنها التغيرات في بنية الجسد من الطول والوزن ومظهر البنية الخارجية. وأما السيكولوجي فنعني به التغيرات النفسية التي تأثر في تفكير الإنسان أو سلوكه وتصرفاته.

وحتى تبقى الفطرة السليمة لا تتغير ولا تتبدل، جاءت النصوص الشرعية آمرة بإطابة المأكل والمشرب، وناهية عن أن يدخل الجوف شيء من الخبائث. وفي الحديث عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } [المؤمنون: 51] وَقَالَ: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ } [البقرة: 172] ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَعُذِي بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟"¹. وقد أدرك الصحابة هذا الأثر للمحرم، فاستعلوا عنه، وجاهدوا أنفسهم أشد الجهاد لعدم الوقوع فيه، ومن ذلك ما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: " كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من

¹ رواه مسلم 1015.

خراجة، فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: أتدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية، وما أحسن الكهانة، إلا أني خدعته، فلقيني فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلت منه، فأدخل أبو بكر يده، فقاء كل شيء في بطنه¹.

وفي رواية زيد بن أرقم أنّ أبا بكر قال لخادمه: قال افٍ لك كدت أن تهلكني، فأدخل يده في حلقة فجعل يتقيأ، وجعل لا يخرج، فقيل له إن هذه لا تخرج إلا بالماء فدعا بعس من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها. فقيل له رحمك الله كل هذا من أجل هذه اللقمة؟! فقال لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها، سمعت رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يقول كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به فخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة" ورواه عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة نحوه والمنكدر محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر نحوه². لكن هذه الروايات فيها ضعف.

وقد أجاد ابن القيم في وصف الأثر الذي تتركه الأطعمة على السلوك الإنساني فقال: جوهر كل عضو على ما هو عليه غذاؤه ملائماً له، فالغاذي شبيه بالمغتذي في طبعه وفعله. وهذا كما أن حكمة الله سبحانه في خلقه فيه، جرت حكمته في شرعه وأمره، حيث حرم الأغذية الخبيثة على عباده، لأنهم إذا اغتدوا بها صارت جزءاً منهم. فصارت أجزاءهم مشابهة لأغذيتهم، إذ الغاذي شبيه بالمغتذي. بل يستحيل إلى جوهره. فلهذا كان نوع الإنسان أعدل أنواع الحيوان مزاجاً لاعتدال غذائه، وكان الإغتناء بالدم ولحوم السباع يورث المغتذي بها قوة شيطانية سبعية عادية على الناس. فمن محاسن الشريعة تحريم هذه الأغذية وأشباهها، إلا إذا عارضها مصلحة أرجح منها كحال الضرورة. ولهذا

¹ رواه البخاري 3842.

² تخريج احاديث احياء علوم الدين للعراقي 1059 /2

لما أكلت النصارى لحوم الخنازير أورثها نوعاً من الغلظة والقسوة، وكذلك من أكل لحوم السباع والكلاب صار فيه قوتها، ولما كانت القوة الشيطانية عارضة ثابتة لازمة لذوات الأنياب من السباع حرمها الشارع. ولما كانت القوة الشيطانية عارضة في الإبل أمر بكسرها بالوضوء لمن أكل منها. ولما كانت الطبيعة الحمارية لازمة للحمار حرم رسول الله لحوم الحمر الأهلية. ولما كان الدم مركب الشيطان ومجراه حرمه الله تعالى تحريماً لازماً¹.

وفي قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ] [البقرة 172]. بيان الحال في العمل والسلوك المتوزع على منطقتين مرتبطتين ببعضهما، فعند التزام الامر وهو العمل المنطلق من مساحة الوجود الایماني يتحقق بذلك السلوك من منطلقاته الحقيقية التي أرادها الشارع الحكيم، والماثلة في قوله تعالى: [إن كنتم إياه تعبدون] .

وفي النص صورة فريدة لأهل التوحيد في منطلقات الفعل والسلوك، المرتبط بالإعتقاد السليم القائم على إفراد الله وحده بالعبادة، فقد اقتصر الربّ جلّ وعزّ العبادة على ذاته، لاستحقاق لا حاجة. فالاستحقاق له، والفائدة تعود على الفاعل للعبادة لا للمعبود. ومن دخل في مجموع الكل الایماني، لا بدّ له أن يتصف بأوصاف من فيه والذين قال الله سبحانه عنهم: [التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ] [التوبة 112]. فالنص متعلق بأمرين يجمعان أهمية خاصة قد تكون متحققة في أحدهما أكثر من الآخر، وذلك في قوله تعالى: [كلوا من طيبات ما رزقناكم] و قوله تعالى [

¹ التبيين في أقسام القرآن لابن القيم ص373-374

واشكروا لله [وقد تتباين آراء المتدبر للنص في الشمولية المتحققة بين الفعلين، وأيهما الأقرب لتحقيق الشرط [إن كنتم إياه تعبدون]، فمن قال أن تقديم فعل الأمر بالشكر على أمر أكل الطيبات نظر الى النص من زاويتين:

الأولى: ان نقيض الشكر هو الكفر، وعدم شكر الرب جلّ وعزّ ليس مانع فقط من صفة الإيمان بل فيه صورة الضدّ.

الثانية: أن وضع الامر بأكل الطيب وترك غيره في سياق آيات القرآن كله يقود الى حقيقة أن فعل خلاف الأمر يعني قصور الإيمان عن تحقيق اكتماله وربما يصل الى ضياعه كاملا، وهذا واضح في قوله تعالى: [فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ] [الأنعام 118]، وكما هو معلوم فإن الشيء يُعرف بضده، فإن كان في إيمانكم خلل فستأكلون مما نهيتم عنه، وإن صلح إيمانكم فستأكلون مما أمرتم بأكله، وتنتهون عن غيره.

الثاني: الربا والمال الحرام:

قال الله تعالى: زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ [آل عمران 14]. وحبّ الزيادة في المال مرض يحتاج المسلم لعلاجه بكل ما أوتي من قوة، لما يترتب عليه من مخاطر قد تعصف ببنيان الإيمان، وتبتعد بالانسان عن الارتباط بالآخرة، ومن أظهر ما حرّمه الإسلام من شهوة المال تحريم الربا، وقبول الزيادة رغبة بها بغير وجه حق متحقق في الربا أكثر من غيره، ولذلك جعله الشارع الحكيم من أكبر الكبائر، عن جابر رضي الله عنه قال: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكَلَ الرِّبَا، وَمُؤْكَلُهُ، وَكَاتِبُهُ، وَشَاهِدِيهِ»، وَقَالَ: «هُمْ سَوَاءٌ»¹. والمجامع الفقهية الإسلامية كلها إلا ما شذَّ جمعة على أن فوائد البنوك محرمة.

وأعجب ما في الأمر بخصوص فتوى جواز شراء البيوت في الغرب بالقروض الربوية - عند من سمح لها في البداية - كان لها ضوابط وشروط، تخلى عنها جلهم فيما بعد، وتمثل هذه الشروط فيما يلي:

1. أن يكون المسلم خارج دار الإسلام.
2. أن تتحقق فيه الحاجة لعامة المقيمين في خارج البلاد الإسلامية.
3. أن يقتصر على بيت للسكنى الذي يحتاج إليه، وليس للتجارة أو الاستثمار.
4. ألا يكون لديه بيت آخر يغنيه.
5. أن يكون هو مسكنه الأساسي.
6. ألا يكون عنده من فائض المال ما يمكنه من شرائه بغير هذه الوسيلة.

ومن أجاز ذلك استند فيه الى قاعدة (الضرورات تبيح المحظورات)، وكذلك الى أن الحاجة قد تنزل منزلة الضرورة، خاصة كانت أو عامة. وهو قول ابي حنيفة ومحمد بن الحسن الشيباني، وبعض أهل العلم من جواز التعامل بالربا، وغيره من العقود الفاسدة، بين المسلمين وغيرهم في غير دار الإسلام.

وجمهور أهل العلم سلفا وخلفا يرى تحريم الربا في دار الإسلام وخارجها، وأنه لا يباح إلا للضرورة الشرعية إن وجدت، والذي يعيش في الغرب يعلم يقينا أن هذه الشروط المعتبرة شرعا منعدمة، وليس لها وجود في الغالب الأعم ان لم يكن في كلِّ حالات الشراء

¹ رواه مسلم 1598، والبخاري 2086

التي تمت.

ودليل جواز الربا بين المسلم والكافر عند الأحناف حديث مكحول عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لَا رَبًّا بَيْنَ أَهْلِ الْحَرْبِ أَظْنُهُ قَالَ وَأَهْلُ الْإِسْلَامِ ". ولأهل الحديث فيه مقال، قال الزيلعي: غريب، وأسند البيهقي في المعرفة في كتاب السير عن الشافعي، قال: قال أبو يوسف: إنما قال أبو حنيفة هذا لأن بعض المشيخة حدثنا عن مكحول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لا ربا بين أهل الحرب"، أظنه قال: "وأهل الإسلام"، قال الشافعي: وهذا ليس بثابت، ولا حجة فيه، انتهى كلامه¹. وقال الألباني: منكر.

وما يهمنا هنا قول الأحناف لبيان اختلافهم في المسألة، والحكم بالراجح من الأقوال عندهم دفعا للشبهة في احكام الدين.

ذكر الكمال بن الهمام - وهو من ائمة العلم من الاحناف في القرن التاسع الهجري - ما قاله الشافعي من أن الحديث لا يثبت ولا حجة فيه. ثم ذكر كلام محمد بن الحسن في المبسوط بأن الحديث مرسل، وانه يقبل حديث مكحول وإن كان مرسلا لأنه ثقة، والمرسل من مثله مقبول.

وهذا القول من الامام محمد بن الحسن مردود، لأن المسألة متعلقة بحكم شرعي في استباحة ما حرّمه الله تعالى، فيجب ثبوت الحكم بالحديث الصحيح أو الحسن، لا بانقطاع السند حتى وإن كان ثقة، وهو مذهب أهل الحديث، ومنه قول الإمام مسلم في مقدمة صحيحه في قبول الخبر المعنعن بأنّ القول الشائع المتفق عليه بين أهل العلم بالأخبار والروايات قديما وحديثا، أن كل رجل ثقة روى عن مثله حديثا، وجائز ممكن

¹ نصب الراية للزيلعي 44/4

له لقاءه والسماع منه لكونهما جميعا كانا في عصر واحد، وإن لم يأت في خبر قط أنهما اجتمعا ولا تشافها بكلام فالرواية ثابتة، والحجة بها لازمة، إلا أن يكون هناك دلالة بينة أن هذا الراوي لم يلق من روى عنه، أو لم يسمع منه شيئا. ثم أفاض رحمه الله في ردّ من ردّ الاحاديث بحجة أن العنينة لا تُثبت اللقاء والسماع مع كونهما في زمن واحد، وأنّ الذي يُردّ هو عدم معاصرة الراوي لمن يروي عنه فقال: والمرسل من الروايات في أصل قولنا، وقول أهل العلم بالأخبار ليس بحجة¹.

واحتجاج محمد بن الحسن رحمه الله تعالى برواية أخرى هي « أن أبا بكر قبل الهجرة حين أنزل الله تعالى {الم} [الروم: 1] {غلبت الروم} [الروم: 2] الآية قالت له قريش: ترون أن الروم تغلب؟ قال نعم، فقال: هل لك أن تخاطرنا، فخاطرهم فأخبر النبي - صلى الله عليه وسلم -، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: اذهب إليهم فزد في الخطر ففعل، وغلبت الروم فارسا فأخذ أبو بكر خطره، فأجازه النبي - صلى الله عليه وسلم -، وهو القمار بعينه بين أبي بكر ومشركي مكة، كانت مكة دار شرك (ولأن ما لهم مباح) وإطلاق النصوص في مال محظور، وإنما يحرم على المسلم إذا كان بطريق الغدر (فإذا لم يأخذ غدرا فبأي طريق يأخذه حل)، بعد كونه برضا. وكلامه أيضا فيه مقال لسببين:

الأول: ما قاله ابن الهمام أنه لا يخفى أنه إنما يقتضي حل مباشرة العقد إذا كانت الزيادة ينالها المسلم، والربا أعم من ذلك إذ يشمل ما إذا كان الدرهمان من جهة المسلم ومن جهة الكافر، وجواب المسألة بالحل عام في الوجهين، وكذا القمار قد يفضي إلى أن يكون مال الخطر للكافر بأن يكون الغلب له، فالظاهر أن الإباحة تفيد نيل المسلم

¹ صحيح مسلم 29/1

الزيادة، وقد التزم الأصحاب في الدرس أن مرادهم من حل الربا والقمار ما إذا حصلت الزيادة للمسلم نظرا إلى العلة وإن كان إطلاق الجواب خلافه، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب¹.

الثاني: أن فعل أبي بكر رضي الله عنه جاء قبل نزول أحكام التشريع بالحرمة، والمعلوم من قواعد الشريعة أن الأصل في الأمور الإباحة ما لم يرد نص بالتحريم، فلما انعدم النص بالتحريم كان فعل أبي بكر رضي الله عنه مباحا، لا بسبب كون الديار ديار كفر، بل لعدم وجود النص بالحرمة إبان الحقبة المكية سواء فيما نزل من القرآن أو من الأخبار والروايات والتي امتازت بأنها خلت من التشريعات ما عدا الصلاة، وحتى الجمعة لم تكن فرضت، وعليه فلم تكن تشريعات تحدد المعاملات المحرمة من غيرها، فلا يُحتج بالأفعال في الحقبة المكيّة على التحريم أو الإباحة. وهذا ما ظهر من خلال أمر النبي صلى الله عليه وسلم من إسقاط كافة العقود الربوية المعقودة في مكة لمسلمين ومنهم العباس، ولم يبح لهم إلا أخذ أصل المال دون ربا، عن السنوات التي مضت لم يكن المسلمون قادرين على استيفاء أموالهم إلا بعد الفتح، فجاء تصريح النبي صلى الله عليه وسلم بتحريم أخذ الربا عن الفترة السابقة التزاما بنص التحريم، وربما يكون ذلك خشية أن يتأول أحدهم الإباحة على أنها كانت قبل التحريم. وما يقرره كلام ابن الهمام أن التعامل بالربا يجوز بشرطين وهما:

الأول: أن يكون المسلم هو الآخذ للربا.

الثاني: وأن يقع التعامل مع الحربي في دار الحرب عن تراض منهما.

ولو سلمنا جدلا بالجواز استنادا للشرطين فالواقع يُثبت أن كلا الشرطين غير متحققين

¹ فتح القدير للكمال بن الهمام 39/7

في زماننا، ذلك أن المسلم هو المعطي لا الآخذ، ورغم أن الأحناف يُفَرِّقون بين دار الحرب ودار الكفر، ويرون أن دار الحرب هي التي ليست بدار الإسلام ولا تخضع لسلطة الإسلام، حتى لو كان بينها وبين المسلمين عهود ومواثيق وموادعة. وفي المقرر عند الأحناف أن مال الكافر ليس حلالاً على إطلاقه، إلا إن كان محارباً. وعللوه بأن مال المحاربين مباح في دارهم، فبأيّ طريق أخذه المسلم كان مالا مباحاً، بخلاف المستأمن، لأن ماله محظور بعقد الأمان. وقال البايرتي في شرحه على البناية أن مذهب ابي حنيفة، ومحمد بن الحسن، أنه لا ربا بين المسلم والحربي في دار الحرب، وخالفهما القاضي أبو يوسف والشافعي، بأن الاعتبار بالمستأمن من أهل الحرب في دارنا، فإنه إذا دخل الحربي دارنا بأمان وباع درهمين بدرهم فإنه لا يجوز، فكذا إذا دخل المسلم دار الحرب وفعل ذلك لا يجوز؛ بجامع تحقق الفضل الخالي عن العوض المستحق بعقد البيع¹.

وعليه تسقط دعوى جواز التعامل بالرّبا مع الكفار غير المحاربين، ولو كانوا محاربين ففي جواز البقاء في بلادهم حكم ظاهر معلوم لأهل العلم ومن هو دونهم بعدم جوازه.

ولو نظرنا الى ما يتعذر به البعض للأخذ بالجواز بحجة الضرورة من ناحية، وبحجة استعلاء المسلمين وعدم بقائهم الأدنى في المجتمعات التي انتقلوا اليها، وبحجة غلاء ايجار البيوت مما يترتب عليه مشقة على المسلمين في الغرب، فنقول أولاً أنّ القاعدة الأساس في تعامل المسلم مع أحكام الشريعة يقوم على أن ما حرمه الله لا يُحِلُّه البشر، وإن كان الله سبحانه اشترط لإباحة المحرم وجود الضرورة المُلجأة إليه؛ إلا أنه اشترط ضابطين لهذه الضرورة لا يحلّ لأحد تجاوزهما إلا بما تقوم به الحجة الشرعية قال تعالى: [إِنَّمَا حَرَّمَ

¹ العناية شرح الهداية للبايرتي 40/7

عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالِدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [البقرة 173]، وفي سورة النحل قال تعالى: [إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالِدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ] [النحل 115] وقال سبحانه: [قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ] [الأنعام 145]، فضابط الضرورة هو عدم البغي وعدم العدوان، وهذا ما يجب على المسلم مراعاته وفهمه، قال الرازي: اضطر: أحوج وألجئ، وهو افتعل من الضرورة، وأصله من الضرر، وهو الضيق. فلما حرم الله تعالى تلك الأشياء، استثنى عنها حال الضرورة، وهذه الضرورة لها سببان أحدهما: الجوع الشديد، وأن لا يجد ما كولا حلالا يسد به الرمق، فعند ذلك يكون مضطرا الثاني: إذا أكرهه على تناوله مكره، فيحل له تناوله. أما قوله تعالى: غير باغ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الفراء غير هاهنا لا تصلح أن تكون بمعنى الاستثناء، لأن غير هاهنا بمعنى النفي، ولذلك عطف عليها لا لأنها في معنى: لا، وهي هاهنا حال للمضطر، كأنك قلت: فمن اضطر باغيا، ولا عاديا فهو له حلال.

المسألة الثانية: أصل البغي في اللغة الفساد، وتجاوز الحد قال الليث: البغي في عدو الفرس اختيال ومروح، وأنه يبغي في عدوه ولا يقال: فرس باغ، والبغي الظلم والخروج عن الإنصاف¹.

ووضح الشيخ السعدي ما ذهب اليه الرازي فقال: [غَيْرَ بَاغٍ] أي: غير طالب

¹ تفسير الرازي 192/5

للمحرم، مع قدرته على الحلال، أو مع عدم جوعه، {وَلَا عَادٍ} أي: متجاوز الحد في تناول ما أبيح له، اضطرارا، فمن اضطر وهو غير قادر على الحلال، وأكل بقدر الضرورة فلا يزيد عليها¹. وهذا ما ذهب اليه عامة أهل التفسير، وبإسقاط ذلك على المسألة نجد أنه لو سلمنا جدلا بصحة ما ذهب إليه القائلون بالجواز فيجب أن يتوفر الشرطان بعد توفر الضرورة.

أولا: عدم البغي: أي أن لا يلجأ المسلم لشراء بيت بعقد ربوي وهو قادر على توفير مسكن ملائم يستره وعائلته بدون أن تنقص حاجاته الأساسية، وهذا الأمر كما هو معلوم متاح لكل الناس في الغرب مسلمين كانوا أو غير مسلمين، وهدف المشتريين في الغالب أن يتوفر عندهم مال يدخرونه للتوفير على أنفسهم.

ثانيا: عدم العدوان: أي أن لا يشتري إلا منزلا لا يزيد عن الحاجة الضرورية، بمعنى أن يكون البيت مقتصرًا على غرف النوم للزجين والابناء الذكور والبنات الإناث بدون إسراف فليس مقصود ذلك أن يكون لكل فرد غرفة منفردا بنفسه، وكذلك بدون المسائل الكمالية كصالونات الضيافة والغرف الخارجية والكراج وقطعة أرض تابعة للمنزل للعب الأطفال. وللأسف الشديد عامة من يشترون البيوت لا يلتزمون بشرط الله فيها، مما يجعل القول بهذه الفتوى عبث لا تقوم به الحجة لأنه استباحة لما حرم الله بغير شرط الله سبحانه وتعالى.

أما الترويج للمسألة بالقول لماذا يكون المسلمون هم الأذنى فيتملكون بيوتا أسوة بغيرهم فهذا عذر أقبح من ذنب، ذلك أنه من المعلوم أن الغالبية العظمى من أهل البلاد

¹ تيسير الكريم الرحمن/ تفسير السعدي 81/1

الأصليين لا يمتلكون بيوتا بل هم مستأجرون. فلا دونية في الاستئجار في أعرافنا كمسلمين أو في أعراف غير المسلمين في الغرب.

وختاماً لهذه المسألة يكفيننا فيها ما جاء في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " الْحَلَالُ بَيْنَ، وَالْحَرَامُ بَيْنَ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الْمَشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِزُّهُ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ: كَرَاعٍ يَزْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَى، أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْعَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ " ¹

وفي هذا الحديث كفاية للمسلم الباحث عن الهدى والحق، في الانتهاء عن العمل بفتوى شراء البيوت بالقروض الربوية، حذراً من مغبة الوقوع في الحرام من ناحية ثانية، وخروجاً من الخلاف من ناحية.

الثالث: تولى الكفار والمستهزئين بدين الله تعالى:

قال الله تعالى: [لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ] [آل عمران 28]، فإن كان تولى الكافر لكفره محرم في دين الله جل وعز، تبرأ الله من فاعله، فمن باب أولى حرمة تولى المحاربين لدين الله سبحانه، أو الهازئين بالدين أو شيئاً من متعلقاته كالقرآن الكريم أو النبي صلى الله عليه وسلم. وأمثال هؤلاء ظاهرون معلومون بما يكتبون وما ينشرون سواء كانوا اعلاميين أو سياسيين، ومع هذا تجد من المسلمين من يُمالئهم، ويروج لهم، ويتبنى مواقفهم المعلومة تجاه المسلمين. قال جل وعز: [يَا أَيُّهَا

¹ متفق عليه، رواه البخاري 52، ومسلم 1599

الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُورًا وَعَلْبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ
وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ [المائدة 57]

ولهذا جاء الأمر الواضح والبيّن بيان انتفاء الإيمان عمّن تولى أمثال هؤلاء، ونهى عن توليهم حتى ولو كانوا أقرب الأقرباء وأعزّ الأصدقاء والحلفاء قال سبحانه: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ] [التوبة 23]، ثم بيّن الله هشاشة إيمان هؤلاء وسوء حالهم فقال سبحانه: [مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ] [العنكبوت 41].

ولما كانت هذه حالهم فقد جاء النص القرآني لينزع عنهم صفة الإيمان الظاهرة لهم في مجتمع المسلمين، قال تعالى: [لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ] [المجادلة 22].

الرابع: نكاح الزواني:

ولا فرق في كون الزاني ذكرا أو أنثى، وما أضعاف الناس في أواخر الزمان إلا التفريق في هذه المسألة بين الرجل والأنثى، فأصبح الحال قبول العائلات لزنا الرجل وعدم قبول زنا المرأة متناسين قول الله تعالى: [الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَدَاؤُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ] [النور 2]. ولهذا جاء الأمر الإلهي للمؤمنين ليس فقط بالنهي عن الزنا بل بتحريم الزواج بالزواني، ونزع صفة الإيمان عمّن يفعل ذلك ويقرّه قبولاً به، فقال جل وعزّ: [الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ] [النور 3]، وبعيدا عن الخلاف سلفا وخلفا فيما ذكره أهل العلم

فيها من مسائل إلا أن المعنى الذي يكون معلوماً بدهاة لكل صاحب نظر أن من عُلم زناها فاتخذته مهنة لها، أو اشتهرت بمقارفته لا ينكحها مؤمن، كما أن المؤمنة تستنكف أن تنكح زان معلوم الزنا، مشتهر به، ومن ذلك ما قاله الرازي أن كل من كان زانياً فلا ينبغي أن ينكح إلا زانية وحرماً ذلك على المؤمنين. وهكذا كان الحكم في ابتداء الإسلام، وعلى هذا الوجه ذكروا قولين: أحدهما: أن ذلك الحكم باقٍ إلى الآن حتى يحرم على الزاني والزاني والزانية التزوج بالضعيفة والضعيف وبالعكس، ويقال هذا مذهب أبي بكر وعمر وعلي وابن مسعود وعائشة، ثم في هؤلاء من يسوي بين الابتداء والدوام. فيقول كما لا يحل للمؤمن أن يتزوج بالزانية فكذلك لا يحل له إذا زنت تحته أن يقيم عليها، ومنهم من يفصل لأن في جملة من يمنع من التزويج ما لا يمنع من دوام النكاح كالإحرام والعدة. ودلّ على هذا المعنى حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أَنَّ مَرْثَدَ بْنَ أَبِي مَرْثَدٍ الْعَنْوِيَّ كَانَ يَحْمِلُ الْأَسَارَى بِمَكَّةَ، وَكَانَ بِمَكَّةَ بَغِيًّا يُقَالُ لَهَا: عَنَاقُ وَكَانَتْ صَدِيقَتَهُ، قَالَ: جِئْتُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْكِحْ عَنَاقَ؟ قَالَ: فَسَكَتَ عَنِّي، فَزَلَّتْ: {وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ} [النور: 3] فَدَعَانِي فَقَرَأَهَا عَلَيَّ وَقَالَ: «لَا تَنْكِحَهَا»¹.

فمقتضى الإيمان أن يسمو بصاحبه عن الزواج بالزواني، فإن فعل الرجل وتزوج بزانية وهو يعلم زناها، أو تزوجت المرأة بزنان تعلم زناه، فقد اختل ميزان الإيمان فيهما، ذلك أن المؤمن لا يقبل الخنا والدياثة، لا من رجل ولا من امرأة. وفي الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثَلَاثٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُ بِوَالِدَيْهِ، وَالْمَرْأَةُ الْمُتَرَجِّلَةُ - الْمُتَشَبِّهَةُ

¹ رواه ابو داود 2051، والترمذي 3177، والنسائي 3228، والحاكم 2701، والطحاوي في شرح مشكل الآثار 2701، وصححه الالباني واحمد شاكر والذهبي

بِالرِّجَالِ -، وَالذِّيُوثُ، وَثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُ بِوَالِدَيْهِ، وَالْمُدْمِنُ الْحَمْرَ، وَالْمَنَانُ بِمَا أُعْطِيَ"1.

الرابع: الخوض في الأعراض:

اشتراط الشارع على من يتكلم في عرض مؤمن أو مؤمنة أن يأتي بأربع شهادات على صحة دعواه، ولو أقسم مليون يمين دون بيّنة فإنه يُحَدّ بالجلد. ولو جاء بشاهدين فأصبحوا ثلاثة جلدوا جميعاً، إلا أن يكونوا أربعة شهداء يشهدون برؤية الفعل بتمامه. ولهذا جاء الوعيد الشديد لمن يتجرأ على أعراض المؤمنين، لما فيه من إفساد للمجتمع، وقطيعة لأرحام المؤمنين. ولما خاض أهل النفاق في عرض أم المؤمنين عائشة الصديقة رضي الله عنها توعددهم الله بالعذاب العظيم، وبين شدة الأمر وعظمته عند الله، بل جعل الدخول في عداد المؤمنين بتركه وعدم الخوض فيه، فقال جل وعز: [وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] [النور 14-17].

الخامس: السلبية والركون الى الهزيمة:

إن أحد دعائم الإيمان الأساسية بناء المجتمع المتكامل القائم على مبنى ايجابية أفراده ومجموعاته، سواء في تحقيق ذواتهم، أو تجاه المجتمع، أو تجاه النظام القائم بصفة عامة، ونظرة الى معنى الايجابية في مفهوم المجتمعات الغير دينية نجد أنها تقوم على ايجاب شيء على الذات، لا بأمر خارجي يفرضه قانون أو سلطة، بل بفعل اندفاع ذاتي ناشئ عن

¹ رواه احمد 6180، والنسائي 2562، والبخاري 6050، والحاكم 244، والطبراني في الكبير 13180، والبيهقي في الكبرى 21025، وابو يعلى 5556، وصححه الالباني والارناؤوط والذهبي ومحمد أسد

قناعات عقلية وقلبية تتجاوز القيام بالاعمال المعتادة، والمبادرة الى وضع أهداف خاصة وعامة فيها خير للفرد وللمجتمع، ثم المبادرة الى تنفيذها من أجل التأثير والتغيير في الواقع، للوصول الى الافضل مهما تتطلب ذلك من جهد. وهي بهذا تقضي تقوم على النشاط الدائم والعطاء المستمر، وعدم الركون والقبول بالقعود والركون الى الواقع المعاش بمساوئه وسلبياته، وهذا المعنى على جلال ما فيه يبقى ناقصا، ذلك أن الذات الإنسانية تتناوشها أحوال ومؤثرات ذاتية وموضوعية يختلف تأثيرها على الأفراد، لذلك فلا بد لها من سند وظهير يشجعها على الإستمرار ويدفعها الى النهوض بعد العثرات مهما اشتدت الصعاب.

لهذا جاء الاسلام ليرفع من هذه القيمة ويجعلها مطلبا لا على صعيد الافراد فحسب بل على صعيد الجماعات، ولم يجعلها مسألة طوعية بل جعلها مسؤولية، وأن التقصير فيها لمن قدر على دفع الشر عن نفسه ومن حوله ينيب عليه حسرة وعقوبة. قال تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ تَوَقَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** * **إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا** * **فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا غَفُورًا** [النساء 97-99]، فالمسألة إذن ليست مجرد فكرة لدى فرد يعمل عليها بدافع ذاتي ليطلق عليه أنه إيجابي، ثم إذا شاء تخلى عن فكرته وقعد مع القاعدين. إنها تكليف ينبع من الذات انطلاقا من فهم متطلبات استكمال الإيمان، والإنسان فيها مسؤول مسؤولية مباشرة عن الأداء لتحقيق المصلحة لذاته وغيره، وسلبيته ستكون وبالا عليه هو، وسينال عليها عقوبة إن كان قادرا على دفع الشر عن ذاته وغيره ولم يفعل.

والفعل البشري يبقى حائراً متردداً بل وخائفاً من النتائج، فيأتي الإيمان ليجعل الحيرة سكيناً والتردد يقينا بالوصول والخوف طمأنينة، وأن النتائج ليست عليك أنت كبشر، وليست المصلحة هي فقط ما يظهر لك، سواء استفاد منها الناس أو لم يستفيدوا، وهذا المعنى جاء في حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إِنْ قَامَتْ عَلَى أَحَدِكُمُ الْقِيَامَةُ، وَفِي يَدِهِ فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا " وهذا الحديث يكاد يكون الفاصل بين المفهوم الإيماني والمفهوم البشري للإيجابية، إذ المفهوم البشري يقوم على رؤية النتيجة، والمصلحة المادية الظاهرة، وعليه فإن غرس فسيلة والدنيا ستزول لن يترتب عليه مصلحة مادية ظاهرة، ولن يستفيد أحد من ثمرة هذه الفسيلة لأنها تحتاج وقتاً طويلاً لتنمو ثم تثمر، وإذا كانت الدنيا قد انتهت فلا حاجة ترحى منها. وبالمقابل جاء المفهوم الإيماني ليسترعي النظر إلى المبدأ الذي يقوم عليه الإيمان في الأفعال كلها، ألا وهو أن غاية الأفعال ومقصودها هو تحقيق أمر الله سبحانه بإصلاح الكون، واحتساب الأجر في كل فعل خير من الله جل وعز.

وقد ضرب الله للناس في هذا القرآن من كل مثل؛ في كافة ما يتعلق بحياتهم ومعادهم، وجاءت الشريعة لتبين للناس جمال الإيجابية وأنها مقصد شرعي يجب على المؤمن تحقيقه في ذاته كإنسان مكلف، خصوصاً أن من هم دونه أدركوه، وعملوا به فمن باب أولى أن يكون العاقل المكلف أكثر فهماً وأعظم فعلاً ممن هم دونه لتحقيق مصالحه ومصالح جنسه.

النملة تتفوق على الهدهد:

نملة سليمان: [حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ] [النمل 18].

من جماليات الدعوة الى الإيجابية في قصة نملة سليمان، أن الله لم يُخَلِّد فقط فعل النملة بذكر الحادثة، بل اكرم فعل النملة فجعل السورة كلها باسم النمل لبيان ما يترتب على الإيجابية من خير عنده سبحانه إنه غفور شكور.

ذهب ابن باديس رحمه الله تعالى الى أن هذه النملة هي كبيرة النمل، وأن هذا الذي فعلته استنادا لموقعها من النمل، فقد كان عندها من قوة الإحساس ما أدركت به الخطر قبل غيرها، فبادرت بالإندار. ثم أضاف أنه لا يصلح لقيادة الأمة وزعامتها إلا من كان عنده من بعد النظر، وصدق الحدس، وصائب الفراسة، وقوة الإدراك للأمر قبل وقوعها ما يمتاز به عن غيره، ويكون سريع الإندار بما يحس وما يتوقع. ولا شك أن ما ذكره من مواصفات وشروط القائد صحيح، إلا أنه لا يوجد في النص أي دلالة على أن النملة كانت قائدة أو مسؤولة قيادية في مملكة النمل، بل جاء النص بما نكرة لبيان أنها مجرد نملة، وهو أبلغ في بيان المقصود من وجوب قيام كل فرد من الأمة بدوره المناط به حفاظا على المجموع. وهو المعنى الذي جاء في حديث ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أَلَا كُتُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»¹.

وقد أجاد ابن باديس حين قال: هذه النملة لم تهتم بنفسها فتتنجو بمفردها. ولم يُنسها هول ما رأت من عظمة ذلك الجند إنذار بني جنسها؛ إذ كانت تدرك بفطرتها أن لا حياة لها بدونهم، ولا نجاة لها إذا لم تنج معهم، فانذرتهم في أشد ساعات الخطر أبلغ

¹ متفق عليه، رواه البخاري 2554، ومسلم 1829

الإندار. وهذا يعلمنا أن لا حياة للشخص إلاّ بحياة قومه، ولا نجاة لهم إلاّ بنجاتهم، وأن لا خير لهم فيه إلاّ إذا شعر بأنه جزء منهم. ومظهر هذا الشعور أن يحرص على خيرهم كما يحرص على نفسه، وألا يكون اهتمامه بها دون اهتمامه بهم. ولم يُنسها الخوف على نفسها وعلى بني جنسها من الخطر الداهم، أن تذكر عذر سليمان وجنده¹.

إن من أعظم مظاهر الإيجابية في قصة النملة أن الثمن قد يكون أحيانا هلاكاً، ذلك أن حركة الأجسام وسرعة انتقالها مبنية على حجم الجسم وسرعة انتقاله، ولو قارنا بين حركة الإنسان وسرعتها وسرعة انتقال النمل فلا شك أن حركة الإنسان أكبر واسرع مما قد يعني وصول الإنسان الى مملكة النمل قبل قدرة النمل الوصول الى مخابئه، ورغم ذلك لم يمنع ذلك النملة من أن تصيح محذرة النمل، وإن كان ذلك سيأخرها عن الوصول الى مأمنها.

هدهد سليمان: يطالعنا ربنا بعجائب حكمته وعظيم فضله وكرمه، فهو سبحانه إكراما لفعل النملة جعل السورة كلها باسم سورة النمل، رغم أن الذي ظهر في ايجابية النملة أنها فقط أرادت أن تحمي بني جنسها من الهلاك. وحينما ننظر في قصة الهدهد نجد مسألة أعظم وأكبر، فالهدهد أظهر الاستياء من فعل البشر بما أحدثوه من شرك برهم، واتباع للشيطان الذي أغواهم، ورغم أن المسألة التي تحدث بها الهدهد تتعلق بأهم مسألة في حياة الموجودات، إلا أن ربنا سبحانه أكرم النملة فجعل السورة باسم النمل. فما السرّ يا ترى!؟

وينجلي السرّ عند قراءة الآيات، فما يظهر لنا أن الهدهد قال ثلاث مسائل:

¹ تفسير ابن باديس ص 262-263

الأولى: الخبر: [فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ] [النمل 22-24].

الثانية: الإستنكار: [أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ] [النمل 25].

الثالثة: اعلان الإيمان بالله وصفاته وهو متضمن في آيات استنكاره على فعل سبأ.

وهنا يتضح الفرق، ويظهر المقصود الشرعي، إذ يخبرنا سبحانه أن الإيجابية تقتضي أن تحدث بنفسك التغيير، فالنملة صرخت محذرة لتغيير النتائج، فنادت [يَا أَيُّهَا النَّملُ] وأمرت [ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ] ونهت [لَا يَخْطِئَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ] وبيّنت [وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ] وفي بيانها اشعار لمن لا يستجيب بأن الذنب لن يكون ذنب الذي فعل فعلا دون قصد، بل ذنب من علم أن فناءه في عدم الإستجابة.

إذن الفرق في الأداء بين النملة والهدهد فرق كبير، إذ شتان بين من يعمل على التغيير فيحقق أقوى الإيمان، ومن يكتفي بمجرد الاستنكار فيحقق أضعف الإيمان. وهو ما دلّ عليه حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيَعْبِرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلْيَسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»¹.

وقد ذكرنا مواقف اخرى للايجابية في قصة رجل القرية ومؤمن ال فرعون وما جاء من

أفعال واقوال ايجابية من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم وهي أكثر من ان تحصى. وكما حرص الاسلام على تنمية الايجابية في قلب المؤمن بما يتعلق بمسائل الدين والآخرة، فإنه لم يغفل ذلك في مسائل الدنيا، عن المقدم بن معد يكرب رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»¹.

وفي قوله تعالى: وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [آل عمران 139] بيان لأعلى درجات الايجابية بنذ السلبية وقتلها في نفس المؤمنين، ذلك أن خسارة معركة، أو التعرض للأذى ليس هو الهزيمة، بل الهزيمة النفسية هي الهزيمة الحقيقية، فالمؤمن منتصر بما يحمله في نفسه من مقومات العلو لارتباطه بالعلي سبحانه، وبما رباه عليه الإسلام من إيجابية تقوم على الايمان بوعد الله عز وجل بالنصر والتمكين في الدنيا طال الزمن أو قصر، ثم الفوز بالجنة والنعيم في الآخرة، قال تعالى: [مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ] [الحج 15]، وهو ما لا يتحقق للكافر. ولهذا في اعقاب معركة أحد، روى البراء بن عازب رضي الله عنه الحدث فقال: قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَوْمَ بَيْتِ بَدْرٍ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ، إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي الْقَوْمِ مَثَلَةً، لَمْ أَمُرْ بِهَا وَمَ تَسُونِي، ثُمَّ أَخَذَ يَرْجُرُ: أَعْلَى هُبَلٍ، أَعْلَى هُبَلٍ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا تُجِيبُوا لَهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا نَقُولُ؟ قَالَ: " قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلٌ "، قَالَ: إِنَّ لَنَا الْعِزَّى وَلَا عِزَّى لَكُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا تُجِيبُوا لَهُ؟»، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا اللَّهُ مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ»²، وفي رواية ابن عباس وابن مسعود زيادة: قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَوْمَ بَيْتِ بَدْرٍ، الْأَيَّامُ دُولٌ، وَإِنَّ الْحَرْبَ سِجَالٌ. قَالَ: فَقَالَ عَمْرُ: لَا سَوَاءً،

¹ رواه البخاري 2072

² رواه البخاري 3039

قَتَلَانَا فِي الْجَنَّةِ، وَقَتَلَاكُمْ فِي النَّارِ¹.

السادس: التوكل على الله وخشيته دون غيره

ومعنى التوكل: وَكَلْتُ الْأَمْرَ إِلَيْهِ وَكَلًّا مِنْ بَابِ وَعَدَ وَوَكُولًا فَوَضَعَهُ إِلَيْهِ وَاکْتَفَيْتُ بِهِ وَالْوَكِيلُ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ لِأَنَّهُ مَوْكُولٌ إِلَيْهِ وَيَكُونُ بِمَعْنَى فَاعِلٍ إِذَا كَانَ بِمَعْنَى الْحَافِظِ وَمِنْهُ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ وَالْجَمْعُ وَكَلَاءٌ وَوَكَلْتُهُ تَوَكَيْلًا فَتَوَكَّلَ قَبْلَ الْوَكَالَةِ وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ اعْتَمَدَ عَلَيْهِ وَوَثِقَ بِهِ وَاتَّكَلَ عَلَيْهِ فِي أَمْرِهِ كَذَلِكَ وَالِاسْمُ التُّكْلَانُ وَتَوَاكَلَ الْقَوْمُ تَوَاكَلًا اتَّكَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَوَكَلْتُهُ إِلَى نَفْسِهِ لَمْ أَقْمِ بِأَمْرِهِ وَلَمْ أَعْنِهِ².

وتسليم الأمر لله رضا بقضائه واستسلاما لحكمه تعظيم لحكمته وأقداره. فإن سلمت إليه امرك وما أهمك كفاك. ودفع عنك ما تخشى وتخاف شريطة تحقيق شرطه بأن لا تخاف إلا هو، وأن تعلم أن ما اختصك به بمكنون حكمته وأقداره أفضل لك مما اخترت لنفسك. ولذلك كان ديدن الشيطان صرف الناس عن التوكل على ربه، وتخويفهم من المخلوق دون الخالق، فإذا انفصلت قلوبهم عن خالقهم سهل عليه افتراسهم، وهو ما بينه الله لأوليائه بقوله جلّ وعزّ: **إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ** **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** [آل عمران 175]. فالخوف بهذا المعنى خوفان:

الأول خوف محمود: وهو خوف الإنسان من ربه فيما لا يملك شأنه إلا الله سبحانه، أو خوف الإنسان من ضرر متحقق كالخوف من وحش أو أذى متحقق كالطوفان والبركان والنار والصواعق، على أن لا يكون خشية هذه الأشياء كخشية الله عز وجل. قال تعالى: **[إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ**

¹ رواه احمد 2608، 4414، والحاكم 3163، والطبراني في الكبير 10731، وابن ابي شيبة 36783، وعبد الرزاق 9735، وصححه الالباني والارناؤوط واحمد شاكر والذهبي

² المصباح المنير في غريب الشرح الكبير لابي العباس الفيومي 670/2

زَادَهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [الأنفال 2]

الثاني: خوف مذموم: وهو خوف مسائل لا يملك تغييرها أو وقوعها إلا الله عز وجل وضرب الله لذلك مثالا بقوله: [أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَتْ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا] [النساء 77]. وما يهمننا من صفة المؤمنين هو الخوف المحمود، وهو الذي أحبه الله في اصفياؤه فمدحهم به ومنه قوله سبحانه وتعالى: [قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] [المائدة 23]، بل جعل الله فارق الايمان في الإنسان بخشية الله دون غيره، فقال: [أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] [التوبة 13]، فمن خشى الله وسلّم الأمر إليه، وعلم يقينا أن الخلق لا يملكون ضرا ولا نفعا كان مؤمنا، ومن اعتقد النفع والضرر بيد أحد من الخلق دون الخالق ومشيعته فقد اعتور إيمانه الخلل، وهو ما جاء في وصية عبادة بن الصامت رضي الله عنه لولده قال: قال عبادة بن الصامت لابنه: يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَنْ بَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّىٰ تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُحْطِطْكَ، وَمَا أَحْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبِكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: " إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ " يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَىٰ غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي»¹. وقال ابن القيم:

¹ رواه ابو داود 4700، واحمد 22705، والترمذي 2155، والبزار 2687 والبيهقي في الكبرى 20875، وصححه الألباني والارناؤوط

ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد به، فأعرف الناس أخشاهم لله، ومن عرف الله اشتد حياؤه منه وخوفه له وحببه له، وكلما ازداد معرفة ازداد حياءً وخوفاً وحباً، فالخوف من أجلّ منازل الطريق، وخوف الخاصة أعظم من خوف العامة، وهم إليه أحوج، وهو بهم أليق، ولهم ألزم. فإن العبد إما أن يكون مستقيماً أو مائلاً عن الاستقامة فإن كان مائلاً عن الاستقامة فخوفه من العقوبة على ميله، ولا يصح الإيمان إلا بهذا الخوف¹.

السابع: طاعة الله ورسوله:

قال الله سبحانه: [مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا] [النساء 80]، فإذا كانت طاعة الله واجبة فالنص حجة على أن طاعة النبي صلى الله عليه وسلم محلها الوجوب، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وهو ما أشار إليه ربنا سبحانه بأن طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم طاعة له، فأصبح كلاهما واجبا. وكما ارتبطت طاعة الله بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم دل ذلك أن مقتضى الارتباط يحمل ضده، فمن يعصى الرسول فقد عصى الله. ولهذا جعل طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم تحقيق للإيمان، ومعصيته انتزاع لمسمى الإيمان في أكثر من موضع من كتابه جلّ وعزّ إذ قال: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا دَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [الأنفال 1]، قال الرازي: ثم بالغ في هذا التأكيد فقال: إن كنتم مؤمنين والمراد أن الإيمان الذي دعاكم الرسول إليه ورغبتم فيه لا يتم حصوله إلا بالتزام هذه الطاعة، فاحذروا الخروج عنها، واحتج من قال: ترك الطاعة يوجب زوال الإيمان بهذه الآية، وتقريره أن المعلق بكلمة إن على الشيء عدم عند عدم ذلك الشيء، وهاهنا الإيمان معلق على الطاعة بكلمة (إن) فيلزم عدم الإيمان

¹ طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم 283

عند عدم الطاعة¹.

وذكر أن علة انعدام إيمان المنافقين عدم التزامهم برضاه صلى الله عليه وسلم كما أخبر ربنا سبحانه: [يَجْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ [التوبة 62] وفي مقابل ذلك أن دخول المرء في جماعة المؤمنين يقتضي التسليم لحكم النبي صلى الله عليه وسلم [إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [النور 51]

¹ تفسير الرازي 450-449/15

بين الإجماع والافتراق

ما بين الوقوف على عتبة الإسلام للدخول الى عالمه الفسيح، وما بين تحقيق الإنسجام الكلي مع حقائقه ومعطياته، يقف الايمان إشعاعا يضيء طريق العابرين من ظلمات الجهالة الى نور اليقين والعلم. وإذا كان حديث عمر رضي الله عنه قد فصل الاسلام والايان والاحسان من حيث البناء والاسم؛ إلا أن مفهوم ذلك في منهج أهل السنة وعمّ وأشمل من ذكر أعمدة البناء الذي يقوم عليه بناء الاسلام والايان والاحسان في نفس المسلم، ولهذا قعد أهل السنة قواعد جلييلة في العقيدة لبيان مفهوم الايمان والاسلام ومنها قاعدة الاجتماع والافتراق وتقوم على حالتين:

الأولى: الأفراد الجامع: وهو الافتراق الذي يجمع بين معنييهما في معنى واحد، وبلفظ آخر اذا افترقا اجتماعا، ونعني بها أنه إذا جاء النص بذكر الإسلام مفردا فإن الإيمان داخل فيه، ومن وجه آخر نقول أن الإيمان أو الإسلام إذا ذكر أحدهما مفردا جمع معنى كليهما، وقصد به القول وأعمال القلوب وأعمال الجوارح وهو ما ذهب اليه القاضي أبو يعلى بقوله: "وأما حده في الشرع فهو جميع الطاعات الباطنة والظاهرة"¹ ومنه قوله تعالى: [إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ] [آل عمران 19] وقوله: [وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ] [آل عمران 85]، ودليل ما ذهبنا إليه جاء في حديث ابن عباس قال: إِنَّ وَفَدَ عَبْدَ الْقَيْسِ لَمَّا أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ الْوَفْدُ؟»، قَالُوا: رَبِيعَةُ، قَالَ: «مَرْحَبًا بِالْوَفْدِ - أَوْ الْقَوْمِ - غَيْرِ حَزَايَا وَلَا نَدَامَى»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كُفَّارٌ مُضَرٌّ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ نَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ وَنُخْبِرُ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا، فَسَأَلُوا عَنِ الْأَشْرِيَّةِ، فَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، وَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ، أَمَرَهُمْ:

¹ الايمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند اهل السنة والجماعة لعبد الله الانثري ص 73

بِالإِيمَانِ بِاللَّهِ، قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللَّهِ؟»، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، - وَأَطْنُ فِيهِ صِيَامَ رَمَضَانَ - وَتُؤْتُوا مِنَ الْمَعَانِمِ الْحُمْسَ» وَهَاهُمْ عَنْ: الدُّبَاءِ، وَالْحَنْتَمِ، وَالْمَرْقَتِ، وَالنَّقِيرِ، وَرَبَّمَا قَالَ: «المَقِيرِ»، قَالَ: «أَحْفَظُوهُنَّ وَأَبْلِعُوهُنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ»¹. ولهذا حكم الإمام أحمد بكفر تارك الصلاة بناء على ما جاء في النصوص، ذلك أن إقام الصلاة لازمة من لوازم الإيمان، مثلما أنها ركن من أركان الإسلام.

وفي آيات المولى جلّ وعزّ نجد مسميات لا ينفك عنها مرمن، وكل مفردة منها تدلّ على مسمى الإيمان على الموصوف بها، ومن ذلك المؤمنون، المتقون، المحسنون، المخبتون، العابدون، الحامدون وغير ذلك، جمع عددا منها قوله تعالى: [التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ] [التوبة 112]، وفي معظم هذه الصفات يظهر العمل مكوّنا رئيسيا فيها، فالمؤمن اذا لم يجمع إلى تصديقه العمل لا يسمى مؤمنا، ولهذا قال النووي رحمه الله تعالى: " الذي يستحق به العبد المدح والولاية من المؤمنين هو إتيانه بهذه الأمور الثلاثة؛ التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح، وذلك أنه لا خلاف بين الجميع أنه لو أقر وعمل على غير علم منه ومعرفة بربه لا يستحق اسم مؤمن، ولو عرفه وعمل وجحد بلسانه وكذّب ما عرف من التوحيد لا يستحق اسم مؤمن. وكذلك إذا أقر بالله تعالى وبرسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ولم يعمل بالفرائض لا يسمى مؤمنا بالإطلاق، وإن كان في كلام العرب يسمى مؤمنا بالتصديق، فذلك غير مستحق في كلام الله تعالى لقوله عز وجل [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ] *

¹ متفق عليه، رواه البخاري 7266، ومسلم 17

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا [الأنفال 2-4] فأخبرنا سبحانه وتعالى أن المؤمن من كانت هذه صفته¹. وفي وصفه تعالى للمتقين جمع بين معطيات الإيمان ومعطيات الإسلام فقال: [ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ] [البقرة 2-4] ويتكرر هذا الوثف في سورة النمل وسورة لقمان بتغيير في المسميات فيقول ربنا جل وعزّ في سورة النمل: [هُدًى وَبُشْرَى لِّلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ] [النمل 2-3] وفي سورة لقمان [هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ] [لقمان 3-4]، فمتطلبات التقوى والاحسان والايمن واحده، وبمقارنة سريعة بين السور الثلاث؛ البقرة والنمل ولقمان نجد الآتي:

السور الثلاث ابتدأت بحروف:

البقرة: الم،

النمل: طس،

لقمان: الم

كلها ابتدأت بذكر الكتاب وأنه هدى:

البقرة: ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ [2].

النمل: تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ هُدًى وَبُشْرَى لِّلْمُؤْمِنِينَ [1-2].

لقمان: تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ [2-3].

¹ شرح النووي على مسلم د/147

السور الثلاث ذكرت الصلاة والانفاق:

- البقرة: الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ [3].
 النمل: الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ [3].
 لقمان: الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ [4].

السور الثلاث أخبرت أن من لازم صفاتهم اليقين:

- البقرة: وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ [4].
 النمل: وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ [3].
 لقمان: الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ [4].

أخبرت سورة البقرة ولقمان عن فلاح المتقين والمحسنين:

- أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. [البقرة 5]
 تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ [لقمان 5]

بينما أخبرت سورة النمل عن خسران من لم تتحقق فيه الصفات

- أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ [5]. والشيء يعرف بضده فان خسروا لعدم تقواهم فلا شك لهم الفلاح بالتقوى.

تفردت سورة البقرة بذكر الايمان بالغيب والايان بالكتب:

- وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ [البقرة 4]

الثانية: الاجتماع المتباين والمتمايز: ومقصوده أن لفظ الإسلام والإيمان إذا اجتماعا افترقا في المعنى، فدل كل منهما على مسماه ومعناه، قال السفاريني: إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وإذا قرن بينهما احتاج كل واحد منهما إلى تعريف يخصه، فإذا قرن

بين الإيمان والإسلام فالمراد بالإيمان جنس تصديق القلب، والإسلام جنس العمل¹. ومثاله قوله جلّ وعلا: [قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ] [الحجرات 14] فظهر التباين بين معنى الإسلام والإيمان، وحكمه تعالى عليهم بالاسلام دون الإيمان، لظهور الإسلام عليهم قولاً وفعلاً، وغياب الإيمان في القلوب إما من ناحية الشك والريب، وإما من ناحية أنهم إنما أظهروا الإسلام طلباً للسلامة والنجاة. قال الزمخشري: فاعلم أنّ ما يكون من الإقرار باللسان من غير مواطاة القلب فهو إسلام، وما واطأ فيه القلب اللسان فهو إيمان². ومن السنة حديث عمر رضي الله عنه قال: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَحْبَبْتَنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتُحَجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجَبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَحْبَبْتَنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ حَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ³.

الخلاصة: إن ما حققه اهل السنة في فهم القران خلافا لأهل البدع والضلال؛ جاء متوافقا مع ما دلت عليه الآيات البيّنات، ذلك أن مفهوم الإيمان عند أهل السنة قائم

¹ لوامع الانوار البهية للسفاريني 430/1

² تفسير الزمخشري 376/4

³ رواه مسلم 8

على التصديق بالجنان، والنطق باللسان، والعمل بالجوارح والأركان، خلافا للمرجئة الذين قالوا الايمان تصديق وقول، ولا يضرّ مع الإيمان معصية. وخلافا للخوارج الذين كفّروا أهل المعاصي من المؤمنين بالذنوب. وقال ابن الجوزي معلقا على حديث لا يزيي الزاني حين يزيي وهو مؤمن، فيه تأويلان:

أحدهما: أنه ينزع الإيمان منه. قال عكرمة: قلت لابن عباس: كيف ينزع الإيمان منه؟ قال: هكذا، وشبك بين أصابعه ثم أخرجها، فإن تاب عاد إليه هكذا، وشبك بين أصابعه. ووجه هذا أن المعصية تذهله عن مراعاة الإيمان، وهو تصديق القلب، فكأنه ينسى من صدق به.

والثاني: أنه لا يزيي وهو كامل الإيمان¹.

وعليه فإن ما جاء في السور الثلاث دلّ على أن كل مسمى للمؤمن والمحسن والتقي، دلّ على التصديق وهو الايمان، والعمل وهو الاسلام، فإن جاء ذلك في إطار المحبة الخالصة كان هو الإحسان، وفي ذلك دلالات ومسائل:

الأولى: أن العمل القلبي وعمل الجوارح كلٌّ لا ينفصل، ولا ينصلح العمل إلا إذا انضبط بحسن الأداء. دلّ على ذلك المسميات الثلاثة المتقون والمؤمنون والمحسنون، من خلال ارتباط المسميات الثلاثة بالصفات نفسها، وفي حديث عمر رضي الله عنه، قال: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»²، واستشعار معية الله لا تتحقق إلا عن محبة وخوف، وهما صفتان لازمتان في المؤمنين، وبهذا استحق هؤلاء ولاية الله ومحبتهم كما أخبر فقال: [إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ

¹ كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي 436/2

² رواه مسلم 36

اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ [آل عمران 68]، ثم أعلن الله محبته لهم بصريح اللفظ في أكثر من آية منها قوله تعالى: [فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ] [آل عمران 148]. وكذلك في قوله سبحانه وتعالى: [بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ] [آل عمران 76].

ومحبة الله على درجتين كما قال ابن رجب:

إحدهما: فرض: وهي المحبة المقتضية لفعل أوامره الواجبة والانتهاء عن زواجره المحرمة والصبر على مقدوراته المؤلمة، فهذا القدر لا بد منه في محبة الله، ومن لم تكن محبته على هذا الوجه فهو كاذب في دعوى محبة الله، كما قال بعض العارفين: من ادعى محبة الله ولم يحفظ حدوده فهو كاذب، فمن وقع في ارتكاب شيء من المحرمات أو أدخل بشيء من فعل الواجبات فلتقصيره في محبة الله، حيث قدم محبة نفسه وهواه على محبة الله، فإن محبة الله لو كملت لمنعت من الوقوع فيما يكرهه. وإنما يحصل الوقوع فيما يكرهه لنقص محبته الواجبة في القلوب، وتقديم هوى النفس على محبته، وبذلك ينقص الإيمان، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن "

والثانية فضل مستحب: أن ترتقي المحبة من ذلك إلى التقرب بنوافل الطاعات والانكفاف عن دقائق الشبهات والمكروهات، والرضى بالأقضية المؤلمة¹.

ومحبة الله سبحانه وتعالى تقود إلى تحقيق عبادته على ما يقبل ويرضى سبحانه، إذ العبادة المنخلعة عن المحبة والخضوع له لا تحقق المقصود، كذلك لو تساوت محبة غيره مع محبته، ولهذا حذر عباده من ذلك فقال جلّ وعزّ: [وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا

¹ فتح الباري لابن رجب 52/1

يُجِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ [البقرة 165]، والمحبة هنا هي العلاقة القلبية التي تربط بين محبّ ومن يجب وفيها مسائل لا يجب إغفالها:

اولا: أن المحبة في قلوب الناس أنواع: فمنها محبة شهوة ولذة ومنها قوله سبحانه وتعالى: [زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَاِبِ] [آل عمران 14] ، ومنها محبة مصلحة ومنفعة وهي في قوله تعالى: [قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ] [الانعام 63-64] ، ومنها محبة خوف ورجاء، وبهذا يتحقق أن المحبة إما أن تكون دائمة أو تكون منقطعة، فمحبة الشهوة والمنفعة والخوف منقطعة بانقطاع أسبابها. وحقيقة محبة العبد لربه سبحانه دائمة بلا انقطاع، ذلك لأنس العبد بربه وما يختلج قلبه في حضرة الملكوت في الخلوات، وهو ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: " وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ "1، وهو ديدن الأصفياء من الأولياء كما قال ابراهيم ابن أدهم رحمه الله: " لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من السرور والنعيم إذا جاللدونا على ما نحن فيه بأسيا فهم أيام الحياة على ما نحن فيه من لذة العيش وقلة التعب "2. وكذلك لدوام حاجة المؤمن الى ربه وعدم انقطاع آلاء الله على عباده في الدنيا، ثم هم أشد حاجة الى رحمته في معادهم، وكما هي محبة انتفاع فهي محبة خوف وخضوع لأمره تعالى رجاء العفو وخوف العقاب لما علموه من عظيم عفوه عن المنيبين اليه.

¹ رواه احمد 12292، والنسائي 3939، والبزار 6878، والحاكم، والطبراني في الاوسط 5203، والبيهقي في الكبرى

13454، وابو يعلى 3482، وعبد الرزاق 7939، وصححه الذهبي والارناؤوط والالباني

² حلية الأولياء لابي نعيم 370/7

ثانيا: أن المحبة على ضربين والثالث ظاهره منها مع مخالفة حقيقته لها:

الأول: المحبة المتبادلة بين حبيين يجب بعضهما بعضا، وهي أرفع المقامات وأجلها وأعلاها، وهو ما جاء في مواضع كثيرة من الكتاب والسنة، ومنها قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ] [المائدة 54]. وفي الحديث عن أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ"¹.

الثاني: الحب من طرف واحد، وهو أن يجب أحد أحدا آخر دون أن يُحبه الآخر، وهذا لا يكون إلا في علاقة البشر ببعضهم، فالله عدل قسط، لا يردّ عن بابه حبيبا، ولا يُكافئ بالإحسان إلا إحسانا.

الثالث: ادعاء المحبة: وهو ما يغلب على أهل الإرجاء ممن سبق من أهل الكتاب ومن انتهجوا نهجهم في هذه الأمة، قال سبحانه: [وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَعْزُبُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ

¹ رواه البخاري 6502

يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ [المائدة 18]. والناس في هذه المحبة صنفان:

محبة كمال: وهي المحبة التي تحقق كمال العبادة باستشعار الذل والافتقار الى المحبوب جلّ وعلا، وفي الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَفَ فِي النَّارِ»¹. وهذه المحبة هي التي توصل العبد إلى ما يُحِبُّ الله منه من طاعته والتقرب اليه، كما في الحديث القدسي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْتَطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»². فعلم حقيقة حبهم وصدق حبهم له سبحانه وتعالى، وخضوعهم لهم طاعين مختارين رغبا ورهبا، فبادلهم بحبهم مع عدم الكمال فيه بمحبته التي لا يعتورها نقص أو خلل. وكمال المحبة لا يقف عند حدود الإداء واللذة، بل يتجاوزها الى الحسرة والألم على التفريط، أو غياب القرب والأنس به، ذلك أنهم أدركوا أن عباداتهم وطاعتهم وقرباتهم هي استحقاق له سبحانه، وأنه محبوب لذاته، وأن الحرمان من مناجاته، والقيام بين يديه، هو عذاب لأهل طاعته في الدنيا، لا يحسه غيرهم. كما

¹ متفق عليه، رواه البخاري 16، ومسلم 43

² رواه البخاري 6502

أنه عذاب لأهل معصيته في الآخرة كما أخبر: [كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ
[المطففين 15]].

وروي أن طالب علم سأل شيخه فقال: كم ذا نعصي الله ولا يعاقبنا، قال الشيخ: بل قل كم ذا يعاقبنا الله ونحن في غفلة عن عقابه، فكم من وقت أضعناه في غير ازدياد من الطاعات، أو انشغال بالأمور التافهات، وكم من محروم من قراءة القرآن، وكم من معذب بالغفلة عن ذكر الرحمن، وكم من مغبون بترك قيام الليل وانشغاله بالتلفاز والألعاب، كل هذه عقوبات غفل عنها الغافلون، ونام عنها العاصون، ولو أحبوا ربهم كما ينبغي لانشغلوا به عن غيره، واشتاقوا إليه في خلواتهم، وذكره في جمعهم واجتماعاتهم، وقاموا بين يديه يناجونه في ليالاتهم. وقد أحسن الشافعي¹ إذ قال:

تعصي الإلهَ وَأَنْتَ تُظهِرُ حُبَّهُ هَذَا مَحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعٌ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لِأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمِحْبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعٌ
فِي كُلِّ يَوْمٍ يَتَدَبَّرُكَ بِنِعْمَةٍ مِنْهُ وَأَنْتَ لِشُكْرِ ذَاكَ مُضِيعٌ

حب جمال: وهو حب الرجاء المرتبط بالخشية، فلا ينفك في قلب المؤمن أحدهما عن الآخر، فهو في رجاء لعفو ربه سبحانه، مؤمل بحسن ظنه بالله، فيعمل وفق أمره رجاء النجاة، خائف أن يقصر به عمله، حاله في ذلك حال الملائكة كما صح من حديث سلمان رضي الله عنه أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " يُوضَعُ الْمِيزَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَوْ وُزِنَ فِيهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ لَوَسِعَتْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ لِمَنْ يَزِنُ هَذَا؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقًّا

¹ ديوان الشافعي ص 91، إعداد وتعليق وتقديم محمد ابراهيم سليم، الطبعة مكتبة ابن سينا بدون تاريخ، مكتبة ابن سينا، مصر

عِبَادَتِكَ، وَيُوضَعُ الصِّرَاطُ مِثْلَ حَدِّ الْمَوْسَى فَيَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: مَنْ يُجِيزُ عَلَيَّ هَذَا؟
فَيَقُولُ: مَنْ شِئْتَ مِنْ خَلْقِي، فَيَقُولُ: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ¹. وكذلك
يقول أهل الإيمان اعترافاً بالتقصير، وخوفاً من سوء المصير، عن أنس رضي الله عنه أَنَّ
النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَى شَابِّ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ: «كَيْفَ بَجْدِكَ؟»،
قَالَ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَرْجُو اللَّهَ، وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو وَأَمَنَهُ
مِمَّا يَخَافُ»²

¹ أخرجه الحاكم 8739، وقال الذهبي صحيح على شرط مسلم وصححه الالباني في السلسلة الصحيحة 941
² رواه الترمذي 983، وابن ماجة 4261، والبزار 6874، والنسائي في الكبرى 10834، وابو يعلى 3303، وصححه
الالباني في السلسلة الصحيحة 1051، وحسين سليم اسد والعراقي في تخريج احاديث الاحياء

الايان والدنيا فراق أم اتفاق:

ان الايمان لا يتحقق الا اذا اخضعت الدنيا لإرادته، حيث ان حب المال طبيعه اهل الدنيا، [زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ] [آل عمران 14] وتعلق القلب بشيء من متاع الدنيا فيه هلكة، لأنه مانع من كمال الايمان، ولهذا قال سبحانه وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ [البقره 194]

وقد ربط الله سبحانه وتعالى في كثير من آيات القرآن الصلاة والايان بالآخرة بالانفاق لتوجيه الأنظار الى مسائل ثلاث هي:

اولا: إفراغ القلب من الدنيا وانقطاعه عنها عند اداء العبادة.

ثانيا: أن الجهد البدني الذي يؤديه الإنسان ابتغاء مرضاة الله يكتمل ببذل الدنيا لنفس الغاية، إذ اليقين بأن الباقي هو ما انفقوا وادخروا عند الله يبذله ارضاء الله سبحانه، وفيه إعلان الحرص على الآخرة وأن الدنيا وسيلة لتحقيق الفوز بما عند الله في الآخرة، وليست هي هدف لذاتها عند أهل الإيمان. ومنه حديث عائشه رضي الله عنها أَنَّهُمْ دَبَّحُوا شَاةً، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا بَقِيَ مِنْهَا»؟ قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا قَالَ: «بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا»¹ وفي حديث مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الشَّخِيرِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقْرَأُ: أَهْلَاكُمْ التَّكَاثُرُ، قَالَ: " يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبَسْتَ

¹ رواه أحمد 24240، والترمذي 2470، والحاكم 7193، وابن أبي شيبة 9816، وصححه الالباني والأرنؤوط وأحمد شاكر والذهبي

فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟¹

ثالثا: ان اليقين بالآخرة يقود الى استشعار رقباه الله سبحانه و معيته سواء اثناء العباده او خارجها، ومنه قول جبريل عليه السلام قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»²

وما ينبني على هذه المسائل يصل بالعبد الى مقام الرضا والقبول، فيصبح القلب متعلقا بالرب سبحانه معتصما به، لا يفعل الا ما يرضيه، ولا يراه الا حيث احب. وبهذا يحقق الصفات الأخلاقية المنبثقه عن هذا الايمان؛ والتي وردت في سوره المؤمنون او سوره الفرقان وغيرهن من سور القرآن.

¹ رواه مسلم 2958

² رواه مسلم 8

ايام الحصاد

قالوا في الأمثال من زرع حصد ومن سار على الدرب وصل، والمؤمنون في الدنيا يزرعون زرعهم حتى اذا ما جاء الوعد الحق كان يوم الحصاد الكبير؛ ليجنو ثمار ما قدموا. لكن كرم الله سبحانه أكبر من ان يكون حصادهم حصادا واحدا، وان كان قد جعل جزاء اهل الكفر والنفاق وفاقا، متوافقا مع عملهم، فما زرعوه سيحصدوه كما زرعوه. اما الذين امنوا فقد اخبر سبحانه ان اجرهم وحصادهم سيكون جزاءً من ربك عطاءً حساباً [النبا 36]، وانهم يحصدون جزوا منه في الدنيا، ثم يكون الجزاء الاوفى في الآخرة.

وفي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى كَرَجُلٍ اسْتَعْمَلَ عَمَلًا، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ الْيَهُودُ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ، ثُمَّ عَمِلَتِ النَّصَارَى عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ، ثُمَّ أَنْتُمْ الَّذِينَ تَعْمَلُونَ مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى مَغَارِبِ الشَّمْسِ عَلَى قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ "، فَغَضِبَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، وَقَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلًا وَأَقْلُ عَطَاءً، قَالَ: «هَلْ ظَلَمْتُمْ مِّنْ حَقِّكُمْ شَيْئًا؟» قَالُوا: لَا، فَقَالَ: «فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنَ أَشَاءُ»¹

البشائر الثلاث:

الأولى: بشائر الدنيا:

أبى الله سبحانه الا ان يتم نعمته على المؤمنين فكما جعل لبعض اهل الكفر عذابا في الدنيا بما اسرفوا واستكبروا، فكذلك جعل ثوابا عاجلا للمؤمنين لتطمئن قلوبهم ومن ذلك:

¹ رواه البخاري 557

اولا: الصلاة على المؤمنين

قال سبحانه يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا [الاحزاب] [41-43] وصلاته على عباده رحمة بهم ومغفرته لذنوبهم وتكفيره لسيئاتهم. عن سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا أُمَامَةَ، إِنِّي رَأَيْتُ فِي مَنَامِي أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تُصَلِّي عَلَيْكَ كُلَّمَا دَخَلْتَ، وَكُلَّمَا خَرَجْتَ، وَكُلَّمَا قُمْتَ، وَكُلَّمَا جَلَسْتَ. قَالَ أَبُو أُمَامَةَ: "اللَّهُمَّ غُفْرًا دَعَوْنَا عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ لَوْ شِئْتُمْ صَلَّتَ عَلَيْكُمُ الْمَلَائِكَةُ، ثُمَّ قَرَأَ: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا } [الأحزاب: 42]¹.

قال الشيخ آل سعدي: أي: من رحمة بالمؤمنين ولطفه بهم، أن جعل من صلاته عليهم، وثنائه، وصلاة ملائكته ودعائهم، ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل، إلى نور الإيمان، والتوفيق، والعلم، والعمل، فهذه أعظم نعمة، أنعم بها على العباد الطائعين، تستدعي منهم شكرها، والإكثار من ذكر الله، الذي لطف بهم ورحمهم، وجعل حملة عرشه، أفضل الملائكة، ومن حوله، يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا فيقولون: { رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِيَ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } فهذه رحمة ونعمته عليهم في الدنيا.²

¹ رواه الحاكم 3565، وصححه الذهبي وقال على شرط مسلم

² تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص 667 للشيخ عبد الرحمن ال سعدي

وقال الشيخ الشعراوي: الصلاة هي الدعاء، والدعاء لا يكون إلا بطلب الخير للداعي، ولا يدعو إلا قادر على هذا الخير، وعليه كيف نفهم هذا المعنى؟ أيدعو ربنا نفسه تبارك وتعالى؟ قالوا: إذا كانت نهاية الصلاة طلب الخير، وهذا الخير إذا طلب حصل، فالحق سبحانه هو الداعي، وهو الذي يملك مفاتيح الخير كله، فهو الذي يُصَلِّي عليكم، وهو الذي يعطيكم، وهو الذي يرحمكم¹.

ثانيا: قبول توبتهم ومغفرة ذنوبهم:

قال سبحانه: وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [الانعام 54]، وهذه المغفرة الناتجة عن استغفار المؤمنين تظهر ثمرتها عطاء وبركة في الأرزاق والأموال والأولاد، قال سبحانه وتعالى: [فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا] [نوح 12]

ثالثا: محو السيئات وزيادة الحسنات:

ولا يقف قبول التوبة عند حدود مغفرة الذنب، بل تتعداها لفضل أعظم بيته في قوله: [إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا] [الفرقان 70]، فأبي فضل بعد هذا الفضل، وأي فوز بعد هذا؟! ثم جعل مجرد فعل الحسنة منهم ذهاب للسيئات، قال سبحانه: [وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُزُقًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ] [هود 114]، ولا يقف هذا الأمر عند حدود مغفرة الذنب بل يتعداه الى أن يكون لطفاً في تركها، قال

¹ خواطر الشيخ الشعراوي 19 / 12066

تعالى: وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ [العنكبوت 45] ونزلت في أبي اليسر عمرو بن غزية الأنصاري، ونص الحديث عند الشيخين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، قَالَ فَنَزَلَتْ: {أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} [هود: 114] قَالَ: فَقَالَ الرَّجُلُ: أَلِي هَذِهِ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «لِمَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ أُمَّتِي»¹.

وقال الرازي: احتج من قال إن المعصية لا تضر مع الإيمان بهذه الآية وذلك لأن الإيمان أشرف الحسنات وأجلها وأفضلها. ودلت الآية على أن الحسنات يذهبن السيئات، فالإيمان الذي هو أعلى الحسنات درجة يُذهب الكفر الذي هو أعلى درجة في العصيان، فلأن يقوى على المعصية التي هي أقل السيئات درجة كان أولى، فإن لم يفد إزالة العقاب بالكلية؛ فلا أقل من أن يفيد إزالة العذاب الدائم المؤبد.

وما قصده الرازي بقوله هم مرجئة الأشاعرة الذين قالوا إن العمل لا يدخل في مسمى الإيمان، وأن العمل ليس من حقيقة الإيمان الذي يترتب على تركه كفر، وأثبتوا العذاب على فاعل الذنب دون الخلود في النار، وقالوا أن من ترك العمل كله وترك أعمال القلب كلها، كالخوف والرجاء يعتبر عاص ولا يعتبر كافراً، ويعدون التوسل بأهل القبور والنذور لها وسؤال الأموات ما لا يقدر عليه إلا الله من الذنوب والمعاصي، وبهذا خالفوا أهل السنة.

رابعاً: الحياة السعيدة في الدنيا:

قال سبحانه: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً

¹ متفق عليه، رواه البخاري 526، ومسلم 2763

وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [النحل 97]، فالمؤمن في حياته مطمئن راض بما قدّر الله سبحانه عليه، فتراه رغم الأسى والضنك قانعا سعيدا، بخلاف المعرض عن ربه، الساخط على أقداره، فنفسه لا تشبع، وقلبه دائم الخوف والقلق من تقلّب الأقدار لا يهنأ بعيش. قال الرازي: المشتغل بعبادة الله وبمحبة الله مشتغل بحب شيء يمتنع تغييره وزواله وفناؤه، فكل من كان إمعانه في ذلك الطريق أكثر وتوغله فيه أتم كان انقطاعه عن الخلق أتم وأكمل، وكلما كان الكمال في هذا الباب أكثر، كان الابتهاج والسرور أتم، لأنه أمن من تغير مطلوبه، وأمن من زوال محبوبه، فأما من كان مشتغلا بحب غير الله، كان أبدا في ألم الخوف من فوات المحبوب وزواله، فكان عيشه منغصا وقلبه مضطربا¹. وقد جاء واضحا بأن مقصود الحياة الطيبة لا يقتصر على الآخرة فحسب بل هو شامل للدنيا والآخرة كما في قوله تعالى: وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى [طه 124].

خامسا: رفع العذاب:

فقد اقتضت سنة الله قبول توبة العبد وإيمان المؤمن قبل حضور الأجل ووقوع العذاب، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ عَبْدِهِ مَا لَمْ يُعْرَغْ"²، فإذا جاء العذاب ورأوا الآيات فاتهم المتاب، قال تعالى: [يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَضِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ] [الانعام 158] ولهذا خاب فرعون وخسر، كما خسر من سبقه ممن وقع بهم العذاب، ذلك أنه ما آمن إلا لما استيقن العذاب، قال تعالى: [وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا

¹ تفسير الرازي 316/17

² رواه احمد 6408، والنيرمذي 3537، وابن ماجه 4253، والحاكم 7659، وابو يعلى 5609، والهيثمي في الموارد 2449، وصححه الذهبي والألباني والارناؤوط واحمد شاكر

حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ [يونس 90-91]، ودليل نجاة من آمن قبل العذاب ما أخبر به الله سبحانه عن قوم يونس عليه السلام: فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنْتَ فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ [يونس 98].

سادسا: التمكين في الارض:

وسنة التمكين في الأرض سنة باقية مستمرة، ولهذا جاء البلاغ القرآني على لسان الأنبياء في خطابهم لأقوامهم مؤكداً على حقيقة أن الأرض لله ومن ذلك ما قاله موسى عليه السلام لقومه: قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ [الأعراف 128]، ثم جاء تحقيق الوعد الإلهي بناء على تحقيق شروط التمكين ومقوماته، ومنه قوله سبحانه [وَأَوْزِنْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ [الاعراف 137]. فإذا ما حقق أهل الإيمان شرط التمكين تحقق لهم الوعد، [وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [النور 55].

سابعا: افاضة الخير عليهم:

[وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوِّنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [النحل 41-42]

ثامنا: دفاع الله عنهم:

قال الله تعالى: [إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ حَوَّانٍ كَفُورٍ * أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلْمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ] [الحج 38-39] وفي الحديث عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَكِنِ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»¹. ومن عاداه الله خاب وخسر، ومن ينصر الله ينصره الله تعالى، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ [محمد 7]

تاسعا: رضى الله سبحانه عنهم ونزول سكينته على قلوبهم:

قال سبحانه: [لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَعَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا] [الفتح 18-19].

هذه بشائر الله وعاجل فضله وجزاؤه لعباده المؤمنين في الدنيا، تثبتنا لهم وتأكيدها على ان اهل الايمان منصورون، وكما حقق لهم موعدهم في الدنيا فسيحقق لهم وعده في الآخرة، قال تعالى: [إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ] [غافر 51] وما يناله المؤمن من عاجل الخير في الدنيا هو مقدمة وعدٍ مؤكد ومحقق باذن الله [أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ

¹ رواه البخاري 6502

يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ] [القصص 61]

الثانية: بشائر عند الموت:

وتأتي البشارة الثانية للمؤمن عند موته، فما من محطه من محطات وجود المؤمن الا خير وراحة، ومهما لقي من العنت والبلاء فانه يجد معه لذة الصبر، وسلسيل الرحمة، ويرد اليقين. وعندما يأتي امر الله تتوالى بشائر الفرح وعظيم كرم الله لينال عند موته فيوضات جديدة ومن ذلك:

أولاً: البشارة بالأمن والفرحة ودخول الجنة:

قال تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ] [فصلت 30]

ثانياً: الرحمة واللفظ والسلام عند قبض الروح:

قال تعالى: [الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ] [النحل 32]

ثالثاً: جمال حضور ملك الموت وملائكة الوفاة: وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهُهُمْ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتْهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، (1) اخْرُجِي إِلَى مَعْفَرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ ". قَالَ: " فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْفَطْرَةُ مِنْ فِي السَّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى

يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطِيبٍ نَفْحَةٍ مِسْكٍ وَجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ " قَالَ: " فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُزُّونَ، يَعْنِي بِهَا، عَلَى مَلَأَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ بِنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَنْفِثُونَ لَهُ، فَيَفْتَحُ هُمْ فَيَشِيعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أَعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى " . قَالَ: " فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ، فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي (1) السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَاللِّسْوَةَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ " . قَالَ: " فَيَأْتِيهِ مِنْ رُوحِهَا، وَطِيبِهَا، وَيُفْسَخُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّةَ بَصَرِهِ " . قَالَ: " وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرَّيْحِ، فَيَقُولُ: أَبَشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ (2) بِالْحَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ (3) حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي، وَمَالِي "1.

الثالثة: بشائر المحشر:

تتوالى الخيرات على أهل الايمان حيثما حلوا وحيثما ارتحلوا، صدقوا الله فصدقهم، وآتاهم ما وعدهم، وما انتقلوا من الدنيا الا وقد امتلأت قلوبهم يقينا بأن القادم اجمل وافضل. المؤمنون في المحشر تتفاوت درجاتهم، يتفاضلون بما قدموا، وبما عملوا، فهناك السبعة

¹ رواه احمد 18534، وابن ابي شيبة 12059، وعبد الرزاق 6737، صححه الالباني والارناؤوط

الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله. و هناك أناس على مناير من نور، ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء على مكانتهم من الله، لا يفزعون اذا فزع الناس، ولا يحزنون اذا حزنوا. وهناك أناس يناديهم ربهم سبحانه اين المتحابون بجلالي اليوم اظلمهم في ظلي يوم لا ظل الا ظلي.

ولا شك ان المحشر هو بدايه دخول المراحل الاصعب في حياه الناس، حيث فيه الحساب والقضاء، ودفع الحقوق، ثم الجزاء فالناس فيه في خوف ورجاء وحزن؛ الا من شاء الله. واكثر ما يُبين حقيقة مشاعر الناس في هذا اليوم هي الوجوه، لذلك أكثر القرآن من ذكر ضفة الوجوه عند الحديث عن المحشر لما فيه من التعبير الصادق عن نفسية صاحبه، فقال سبحانه [يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ] [آل عمران 107].

وأول ظهور بشائر الفرح عندما يخاطب الله اهل المحشر قائلا: هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [المائدة 119]، فينفجر الفرح في قلب المؤمنين في يوم طاشت فيه العقول، وتملك الرعب القلوب. ورغم ما عند المؤمن من اليقين بصدق وعد الله تعالى لما علمه من آيات ربه في الدنيا إلا أنه في خوف ووجل ورجاء، يصحبه الرجاء.

ومن جميل الكلام ما أجاب به الشيخ أحمد ديدات رحمه الله تعالى أحد سائليه ممن ضلوا الطريق والمنهج فقال: ما هو شعورك لو اكتشفت بعد موتك أن هذا الذي تؤمن به مجرد سراب لا حقيقة فيه، وانك تركت لذة الدنيا طمعا في شيء غير موجود؟ فقال الشيخ ديدات رحمه الله تعالى: بالتأكيد سيكون أفضل من شعورك عندما تكتشف

أن ذلك حقيقة.

ذلك أن المؤمن بامتناعه عن الرغائب والم لذات المحرمة رجاء رحمة الله سعيد مسرور، حتى لو كانت النتيجة مجرد عدم دخول النار مع الحرمان من نعيم الجنان. فمجرد النجاة من العذاب فوز وسعادة، قال تعالى: **فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ** [آل عمران 185].

ولكن كرم الله عظيم، وفضله ورحمته أكمل لعباده، وما وعدهم به لا يُخلفه، وها هو البلاغ يأتيهم بردا وسلاما، **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** [يونس 26].

وحقيقة الإحساس في قلوب الناس في ذلك اليوم العظيم؛ أنه رغم التطمينات والبشائر فلا احد يعلم يقينا ما هو صائر اليه، إلا من نال حظا من الامن، فأنزل الله سكينته على قلبه في هذا الموقف الذي تنخلع له القلوب. فما يخرج اهل المحشر من شدة إلا والتي بعدها اشد منها. حتى اذا ما جاء ربك والملك صفا صفا، وكشف عن ساق، وأمروا بالسجود، فسجد الساجدون ممن مرغوا جباههم في الدنيا ذلا لمولاهم، اتقاء لهذا اليوم واهواله، وجيء بجهنم، ولم يعد من أهل المحشر إلا وشخص بصره، وارتعد جسده، وجهنم تقرب، والقلوب تضطرب، واذا بالخير يأتي، وتبديل الأماكن. لماذا نقلوا من أماكنهم؟! إلى أين يذهبون بأهل الإيمان؟!!!

ويأتيهم الجواب: **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ** [الانبياء 101-103]

ويأتي أحد أشد مواقف المحشر رعباً وخوفاً، ويظهر الأمر كأنما طيور تحجب وجه السماء. وترنوا الأبصار، إنها الصحف تتطاير، وتتصلب الأجساد، كل ينتظر أن يصله كتابه. الجميع تخفق قلوبهم في وجل، كأنما هي طول الحرب تدق. وتحطّ الصحف رحالها في أيدي أصحابها. البكاؤون يومئذ كثير وزغاريد الفرح تنطلق هناك من أولئك الذين حطّ كتبهم رحالها في أيمنهم، فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَّ * إِيَّيَّ ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّ] [الحاقة 19-20]

ويعلوا النداء وكل يُنادى باسمه، إنه الحساب!! كيف سيكون؟! هل يحاسبون فرداً فرداً؟! وهل يناقشون في كل ما ورد في صحفهم؟! الإنس والجن، البهائم والحشرات، الهوام والزواحف، الطيور والملائكة، كل كائن منذ بدء الخليقة الى يوم القيامة، كلهم سيحاسب، وكلهم سيُسأل. لم يرد نص في كيفية حساب كل الخلائق، ولكن ما ورد نصاً أن كل مخلوق يعرض على ربه فيسأله، [فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقْصُنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ] [الاعراف 6-7] ويؤتى بالبهائم والدواب فيقضي بينها، قَالَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَتَوَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلْحَاءِ، مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ»¹. وفي حديث الحاكم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: « إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَدَّتِ الْأَرْضُ مَدَّ الْأَدِيمِ وَحَشَرَ اللَّهُ الْخَلَائِقَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ وَالذَّوَابَّ وَالْوُحُوشَ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمَ جَعَلَ اللَّهُ الْقِصَاصَ بَيْنَ الذَّوَابِّ حَتَّى تَقْصَّ الشَّاةُ الْجَمَاءُ مِنَ الْقَرْنَاءِ بِنَطْحَتِهَا فَإِذَا فَرَعَ اللَّهُ مِنَ الْقِصَاصِ بَيْنَ الذَّوَابِّ قَالَ لَهَا: كُونِي تُرَابًا، فَتَكُونُ تُرَابًا فَيَرَاهَا الْكَافِرُ فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا »².

¹ رواه مسلم 2582

² رواه الحاكم 8716، وصححه الالباني في السلسلة الصحيحة 607/4

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسِبُ إِلَّا هَلَكَ» قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، أَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا} [الانشقاق: 8] قَالَ: «ذَلِكَ الْعَرَضُ يُعْرَضُونَ وَمَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكَ»¹.

وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في حساب العبد المؤمن قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيُّ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: {هُؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَّا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [هود: 18]»².

وكما يسأل الله سبحانه الناس فرادى وجماعات فكذلك سؤال الرسل، [يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ] [المائدة 109]، وقد يتسائل سائل فيقول: كيف يُجيبُ الرُّسُلُ بأنه لا علم لهم رغم أن الله أهلك بعض الأقسام بمشهد من رُسُلهم كما حصل مع قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، وقد أجاب أهل التفسير بإجابات متباينة فذهب الزمخشري رحمه الله تعالى إلى أنهم يعلمون أن الغرض بالسؤال توبيخ أعدائهم، فيكلون الأمر إلى علمه وإحاطته بما منوا به منهم وكابدوا من سوء إجاباتهم، إظهاراً للتشكى واللجأ إلى ربه في الانتقام منهم، وذلك أعظم على الكفرة وأفت في أعضادهم وأجلب لحسرتهم وسقوطهم في أيديهم، إذا اجتمع توبيخ الله وتشكى أنبيائه عليهم. ومثاله أن ينكب بعض الخوارج على السلطان خاصة من خواصه

¹ متفق عليه، رواه البخاري 4939، ومسلم 2876

² متفق عليه، رواه البخاري 2441، ومسلم 2768

نكبة قد عرفها السلطان واطلع على كنهها وعزم على الانتصار له منه، فيجمع بينهما ويقول له: ما فعل بك هذا الخارجي وهو عالم بما فعل به، يريد توبيخه وتبكيته، فيقول له: أنت أعلم بما فعل بي تفويضاً للأمر إلى علم سلطانه، واتكالا عليه، واطهاراً للشكاية، وتعظيماً لما حل به منه»¹.

وردّ الرازي ما ذكره جمع من المفسرين من أنه من هول ذلك اليوم يفرعون ويذهلون عن الجواب، ثم يجيبون بعد ما تثوب إليهم عقولهم بالشهادة على أمهم، فقال أنّ هذا الجواب وإن ذهب إليه جمع عظيم من الأكابر فهو ضعيف، لأنه الله تعالى قال في صفة أهل الثواب لا يجزئهم الفرع الأكبر وقال أنّ من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فكيف يكون حال الأنبياء والرسل أقل من ذلك، ومعلوم أنهم لو خافوا لكانوا أقل منزلة من هؤلاء الذين أخبر الله تعالى عنهم أنهم لا يخافون البتة، وخلص إلى ترجيح الأصح ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما أنهم إنما قالوا لا علم لنا لأنك تعلم ما أظهروا وما أضمرنا ونحن لا نعلم إلا ما أظهروا فعلمك فيهم أنفذ من علمنا².

ولا شكّ في صواب قول ابن عباس، إلا أنّ من يمكن أن يخفى حاله ممن قد يكون كتم إيمانه خوفاً من أهل الكفر هم قلّة بين كثرة، فطاهم العذاب مع أهل الكفر. وعليه فيحتمل الأمر أن تكون إجابة الأنبياء بردّ العلم إلى علامّ الغيوب إنصافاً هؤلاء القلّة المؤمنة. وقد يكون سبب ذلك أن الأنبياء بعثت إلى أقوامها خاصة، فوقع العذاب على من كفر، ونجا من آمن وبقيت فيهم دعوة نبيهم، فمن ذريتهم من آمن ومنها من كفر بعد ذلك، فهؤلاء وإن كانوا من أقوام الأنبياء إلا أن الأنبياء لم يعلموا حالهم، فكانت

¹ تفسير الكشاف للزمخشري 690/1

² تفسير الرازي 457/12

إجابتهم عدم علمهم بعد موتهم بالغالب الأعم ممن تلى من أقوامهم، وبهذا تتوافق إجابة الأنبياء مع حقيقة الحال، وهو ما نفهمه من إجابة نبي الله عيسى عليه السلام ربه سبحانه بقوله: [وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ] [المائدة: 117] فدل على عدم علم ما بعد انتقاله عنهم والله تعالى أعلى وأعلم.

واما المؤمنون في ذلك اليوم بعد ان أيقنوا بالنجاة، وعلا البشر وجوههم، فينتظرون ما أكرمهم الله به من تكليف بأن يكونوا شهداء الله على الناس، [وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا] [البقرة: 143] ويشرحها النبي صلى الله عليه وسلم فيقول " يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: هَلْ بَلَغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقَالُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ: { وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } [البقرة: 143] فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } [البقرة: 143]"¹

كل هذا لا يمنع ان يسأل الله سبحانه خلقه كلهم واحدا واحدا في لحظة واحدة، وما كان مستحيلا بحق الخلق فلا يستحيل على الله سبحانه، فهو على كل شيء قدير. ومن آياته أن ترك للناس فيما أوصلهم اليه من العلم في عصرنا آيات وآيات، فقد يستر الله تعالى للبشر - رغم قصورهم وضعفهم - اختراع آلات كثيرة تجعلنا موقنين بأن الله سبحانه قدير على ما لا يمكن تصوره، فكيف وقد أصبح أمامنا مثال واضح له. ففي

زماننا يستخدم البشر في تنقلاتهم جهاز دليل الطرق - جي بي اس - يستخدمه ملايين البشر في لحظة واحدة، وكلّ منهم له طريقه وغايته، ومع هذا فهذا الجهاز الضئيل يقود كل واحد الى وجهته، ويكلمهم كلهم معا بنفس الصوت، وبلغات مختلفة، فإن كان هذا فعل المخلوق، فلا شك أذن بأن فعل الخالق سبحانه أعظم وأكمل. ولما كانت مسألة المحشر والحساب من الغيب؛ فإن المسلم لا ينحو مناهج أهل الضلال. بل يسير على ضوابط الشرع في التعامل مع الغيبات، ولا يتألى على الله بقول وهو لا يعلم صدقه من كذبه. فالقاعدة تقول أن الغيب لله سبحانه، نؤمن به كما جاء عن الرب سبحانه بلا كيف، نثبت ما أثبت الله لذاته أو أثبته من الغيبات، وننفي ما نفاه عن ذاته أو من الغيبات، ونتوقف فيما سكت عنه الشارع ولا نقول شيئا على الله بغير علم، ذلك أن القول على الله بغير علم من أكبر الذنوب. ، وهذا ما خصه الإمام مالك بقوله في صفات الله سبحانه: أمرّوها كما جاءت بلا كيف، وقد أجاب من سأله عن الاستواء قائلا: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعه، وذلك للتوقف عن الخوض في ما لم يصلنا به دليل.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: " المحرمات نوعان: محرم لذاته لا يباح بحال، ومحرم تحريما عارضا في وقت دون وقت، قال الله تعالى في المحرم لذاته {قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن} [الأعراف: 33] ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال {والإثم والبغي بغير الحق} [الأعراف: 33] ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه، فقال {وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا} [الأعراف: 33] ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه، فقال {وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون} [الأعراف: 33] فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثما، فإنه يتضمن الكذب على الله، ونسبته إلى ما لا يليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفي ما أثبته وإثبات ما نفاه، وتحقيق ما أبطله وإبطال ما حققه، وعداوة

من والاه وموالاة من عاداه، وحب ما أبغضه وبغض ما أحبه، ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله. فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله منه، ولا أشد إثماً، وهو أصل الشرك والكفر، وعليه أسست البدع والضلالات، فكل بدعة مضلة في الدين أساسها القول على الله بلا علم¹.

وتتألق وجوه المؤمنين وهم يقتربون من خاتمه العناء ليعيشوا سعادة الأبد، [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا] [مريم 96].

إن كان الودّ بين الناس موصول بوشائج القرابة والمصالح والهوى، وإن كان ظاهر الودّ مع الله بفعل الصالحات والتقرب بنوافل القربات، وكل ذلك بفضل الله تعالى ومنه وكرمه، كما في الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أَحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ². وما يجعله الله لعباده المؤمنين من الودّ الموعود يعتبر الأعلى مقاما، والأوثق وشيجة، والأعظم خيرا، فهو المحبة الظاهرة في نعمائه سبحانه، وكمالها فيما يجري على السنة أهل الإيمان من التسبيح جريان النفس، ولما كان غاية المحب لقاء الحبيب، فقد جاءت الكرامة من الله عز وجل لأهل وده؛ بأن يُشرفهم بلقائه والنظر إلى وجهه الكريم. عن صهيب الرومي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ³ "

¹ مدارج السالكين لابن القيم 378/1 غ

² متفق عليه، رواه البخاري 3209، ومسلم 2637

³ رواه مسلم 181

وتظهر لهم الجنة تتألق بما أعد الله فيها لأصفيائه، [وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ حَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ] [ق 31-35]

فترى وجوه المؤمنين ضاحكة مستبشرة، يالها من وجوه اضفى عليها أثر الضوء وأثر السجود روعة وبهاء، [وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ] [الغاشية 8-9] هكذا يتحقق لهم وعد رهم، وبشاره نبيهم صلى الله عليه وسلم، بما سيكونون فيه من خير وسلام وأمن في هذا اليوم، رغم كافة ما يمر على الناس فيه من فزع وهلع، لتأتي مرحلة ما قبل نهاية اليوم العظيم، يشهد أهل المحشر رعبا يفوق كل رعب، حين يُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ، فَيَكُونُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بِأُمَّتِهِ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا الرُّسُلُ، وَكَلَامُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيْبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟ " قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: " فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظْمِهَا إِلَّا اللَّهُ، تَخَطَّفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْتِقُ بَعْمَلِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُجْرَدَلُ ثُمَّ يَنْجُو"¹.

إنَّ مروره صلى الله عليه وسلم بشاره جديدة، وطمأنينة لأهل الإيمان أن لا تخافوا، فلن يقع في هذه النار إلا أهلها ويساق الناس الى الصراط، وكل ما جاء مؤمن لاح له من الجهة الاخرى وجه يعرفه ويألفه ويحبه، إنه محمد صلى الله عليه وسلم، ماذا يفعل؟! لماذا ينتظر؟! لماذا لا يذهب ويدخل الجنة؟! ويسير المؤمن على الصراط خائفا ورجلا، ويسمع صوت النبي صلى الله عليه وسلم رب سَلِّمْ سَلِّمْ. فيعرف المؤمنون فيم وقوف نبيهم صلى الله عليه وسلم. ويخسر الذين خالفوه وتركوا سنته فهل يدركون ماذا فعلوا

¹ متفق عليه، رواه البخاري 806، ومسلم 182

أنفسهم؟! يا لطول الحسرة...!! ولكن اتى ينفع الندم.

ونجا المؤمنون، وانتصر الإيمان، ووقفوا ينتظرون، ويتقدمهم نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم، يسير بهم نحو أبواب الجنة، يا لعظمه هذا الرجل ويا لجميل صنعه لقد كان خير دليل لهم ليصلوا الى بر النجاة، وكما كان إمامهم وأمامهم في الدنيا، ها هو مرة أخرى إمامهم وأمامهم نحو النعيم والخلود، [فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا] [الانسان 11]

وعلى أبواب الجنة الثمانية افواج من ملائكة الرحمة تستقبل الأفواج القادمة بالتهنئة والترحاب ينادونهم [أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أُوْرثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ] [الأعراف 43]

ويأتي النبي صلى الله عليه وسلم مستفتحاً أبواب الجنة، وهناك يستقبله أمين الجنة وحامل مفاتيح أبوابها، إنه رضوان خازن الجنة، تغمره الفرحة وهو يرى هذه الوجوه الناضرة فيقولُ الْحَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فيقولُ: بِكَ أَمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ" ¹.

ها قد اجتمع المؤمنون مهاجرين وأنصار، ومن تبعهم بإحسان، المعذبون في الأرض جاءوا ليحصلوا على ما وُعدوا وليتسلموا جائزتهم. [وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ] [الحج 58-59]

تفاوت واختلاف

لم يكن البشر يوماً من الأيام منذ بدايه الخلق الى نهايه الحياة الدنيا مجرد آلات متشابهة، ولم يكن الايمان يسير فيهم على وتيرة واحدة، بل يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي والمخالفات، ولما كان الأجر على قدر المشقة، ولكل مجتهد نصيب، فقد تفاوتت الأجور، واختلفت المنازل تبعاً للعمل والايمان. وقد قيل رب درهم سبق ألف درهم و من أنفق مع حاجته الى ما أنفق ليس كمن أنفق عن سعة.

ولقد ذكر سبحانه اوصافاً مختلفه للاجور في الجنة. والاختلاف في الوصف يدل على التنوع والتعدد. فقد قال سبحانه: [إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا] [الاسراء 9]، بينما نجد انه وصف أن الكتاب يبشر بأجر له وصف آخر، قال سبحانه: [قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا] [الكهف 2] وفي كثير من آيات البشارة [وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا] [المائدة 9]

وقد وصف ربنا سبحانه وتعالى جزاءه للمؤمنين بأنه أجر، وفي آيات أخرى ذكر بأنه فضل، وما بين الفضل والأجر اختلاف كبير. فالاجر استحقاق وجزاء مقابل عمل او خدمه والفضل عطاء وهبه دون استحقاق، قال سبحانه بعد ان اخبر عما اعد للمؤمنين في قوله: [حَسْبُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا] [الاحزاب 44] ثم اتبع ذلك [وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا] [الاحزاب 47]، فما كان من أجر جزاء العمل داخل في الفضل، إذ لو قيس العمل بما أنعم الله على المؤمن من نعماء الدنيا من الصحة، والمال، والولد، لكان ما آتاه الله اكثر مما عمل وقدم، وعليه يكون الثواب في

الآخرة زيادة فضل على فضل، ولهذا جاء وصف الاجر والثواب والفضل بكلمات متباينة (عظيمًا، كبيرًا، كريمًا)

ومن عظيم فضل الله سبحانه، وجزيل عطائه لاوليائه، أنه اشار الى مسأله تفوق خيال البشر، اذ أخبر سبحانه أن كل ما يشاء اهل الجنة فهو لهم. قال سبحانه وتعالى: [هُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ] [ق 35] فكان أهل الإيمان أجرهم متجدد مرتين بما يشاؤون وقتما شاءوا، ثم بعد ذلك يزيدهم الله من فضله ما شاء، وما شاءه لهم من الفضل أعظم مما شاءوا لأنفسهم.

جنة أم جنتان ام جنان!!!؟

الجنة سلعة الرحمن وهي سلعة غالية كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ»¹. قال ابن القيم في نونيته:

يا سلعة الرحمن لست رخيصة	بل أنت غالية على الكسلان
يا سلعة الرحمن ليس ينالها	في الألف إلا واحد لا اثنان
يا سلعة الرحمن ماذا كفؤها	إلا أولو التقوى مع الإيمان
يا سلعة الرحمن سوقك كاسد	بين الأراذل سلفة الحيوان
يا سلعة الرحمن أين المشتري	فلقد عرضت بأيسر الأثمان
يا سلعة الرحمن هل من خاطب	فالمهر قبل الموت ذو إمكان
يا سلعة الرحمن كيف تصبر الـ	حُطَّاب عنك وهم ذوو إيمان

¹ رواه الترمذي 2450، والحاكم 7851، وصححه الذهبي والالباني

يا سلعة الرحمن لولا أنها
 ما كان عنها قط من متخلف
 لكنها حجبت بكل كريهة
 وتناولها الهمم التي تسمو إلى
 فاتعب ليوم معادك الأدنى تجد
 وإذا أبت ذا الشان نفسك فات
 حجبت بكل مكاره الإنسان
 وتعطلت دار الجزاء الثاني
 ليصد عنها المبطل المتواني
 رب العلى بمشيئة الرحمن
 راحاته يوم المعاد الثاني
 همها ثم راجع مطلع الإيمان

ومما يلفت النظر ان الله سبحانه قد ذكر الجنة بصيغ متعددة، فقال سبحانه: [وَأَمَّا
 مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ] [النازعات 40-
 41]. وكذلك أخبر عن دخولهم اليها فقال: [وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا
] [الزمر 73] وكما ذكرها مفردة فقد أكثر من ذكرها جمعاً، فقال سبحانه [إِنَّ الَّذِينَ
 آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ] [لقمان 8] ولا تكاد تجد آية ذكر فيها
 الجنات جمعاً الا ورافقها ذكر الأنهار، قال سبحانه: [وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ
 مِنَ اللَّهِ قِيلًا] [النساء 122]

وذكر الجنة مفردة أو جمعاً مسألة لا غرابه فيها، بل هي مسألة معتادة فقد يُذكر الاسم
 مفرداً مع اشتماله على جمع، كما نقول البيت او الدار و معلوم بداهة ان كل بيت او
 دار فيها غرفة أو أكثر، وقد يقال للغرفة بيت. وقد تقول البستان للبستان متعدد الفواكه
 والثمار، وفي نفس الوقت تقول هذا بستان فيه بساتين من فاكهة كذا وكذا، لكن ما
 يلفت النظر هو ان تُذكر الجنة او الجزاء بالثنية كما في سورة الرحمن في قوله تعالى: [
 وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ] [الرحمن 46]. وأما ما في الجنيتين من أسرار فحريّ بأن

يسبر الانسان غورها ويستكشف ما فيها في آيات الرحمن سبحانه، وليس هاهنا محل عرضها، وكما ذكر الجنة والجنات والجنان، فقد ذكر ربنا سبحانه الغرف، فقال بعد ان ذكر صفات عباد الرحمن [أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا] [الفرقان 75] وكما ذكرها مفردا ذكرها جمعا، فقال: [وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرٍ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ] [العنكبوت 58-59] وفي هاتين الايتين لفته كريمة، ذلك أن ذكر الغرف جاء مقرونا بصفة لازمة لمن يسكنها، وهي صفة الصبر، فلما ذكر الغرفة مفردة قال بما صبروا وعندما ذكرها جمعا اتبع ذلك بآيه اخرى فقال الذين صبروا. ومن لوازمها ايضا التقوى وكلاهما صفتان لازمتان من لوازم أهل الإيمان لتحقيق كمال الإيمان، قال سبحانه: [لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَبْنِيَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ] [الزمر 20]. وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم هذه الغرف فقال: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرْفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكُؤُكَبَ الدَّرِيِّ الْعَايِرَ مِنَ الْأَفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ» قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ، قَالَ «بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رَجُلٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ»¹.

إن الإغراق في التفاصيل في العادة يكون لإزالة المبهم، وتوضيح الصورة لتكون اقرب للتصور، إلا في مسألة الجنة. فكلما ازداد التفصيل كلما ازدادت المسألة تعقيدا، واصبح التصور اكثر صعوبة، ذلك أن الله سبحانه وتعالى وقوله الحق قال: [فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ] [السجده 17]. وقد يقول قائل إن الذي أخفى هو قرة الأعين وليس كل ما في الجنة. وقد يقول آخر كيف نجمع بين ما

¹ متفق عليه، رواه البخاري 3256، ومسلم 2831

وصف الله سبحانه وتعالى به الجنة وما فيها وبين حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله: «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا حَظَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَأَقْرَعُوا إِنْ شِئْتُمْ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ»¹. ولقد رأى آدم الجنة وما فيها، وكذلك في الحديث عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جِبْرِيلَ إِلَى الْجَنَّةِ فَقَالَ: انظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا "، قَالَ: «فَجَاءَهَا وَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا»، قَالَ: " فَرَجَعَ إِلَيْهِ، قَالَ: فَوَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا فَانظُرْ إِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا "، قَالَ: " فَرَجَعَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خِفْتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ"². فكيف نوفق بين هذا وذاك؟

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن كافة ما ذكر من الأوصاف إنما تشابه في الإسم دون الصورة الحقيقية له، ودليله قول ربنا سبحانه: [وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوبُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَهُمْ فِيهَا أزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ] [البقرة 25].

الوجه الثاني: ليس كل ما في الجنة خفي على الناس، فقوله تعالى " فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ " أو قوله " أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا حَظَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ " فعامية ما هو لأدنى مراتب أهل الجنة يمكن أن يرى

¹ متفق عليه، رواه البخاري 3244، ومسلم 2824

² رواه الترمذي 2560، والنسائي 3763، والحاكم 71، وصححه الذهبي والالباني واحمد شاكر

أو يُسمع عنه بنصوص الآيات أو فيما أخبر به الأنبياء، واختصل الله سبحانه لأهل الجنة شيئاً لم يره أحد ولا يعلم به أحد إلا هو سبحانه، ودليله قوله: [هُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ] [ق 35]. فهم لا شك يعلمون ما يشاءون لكنهم لا يعلمون ما هو المزيد حتى يأتيهم.

الوجه الثالث: تجدد الخير على أهل الجنة، فمما صح من الأحاديث تبدل الأحوال الى خير منها باستمرار ومنه حديث أنس بن مالك، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقًا، يَأْتُوهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، فَتَهْبُ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ، فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدْ اِزْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُ هُمْ أَهْلُوهُمْ: وَاللَّهِ لَقَدْ اِزْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ، وَاللَّهِ لَقَدْ اِزْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا¹. فكما تبدلت أحوالهم بهاء وجمالاً يستغربه أهلهم في الجنة فكذلك فإنهم رغم دخولهم الجنة، يرون في كل حين خيرات لم يروها ولم يكونوا يعرفونها، وكلما ذهب منها شيء، حلّ عليه بشما لا يخطر على بالهم.

وحكمة تشابه الأسماء لكي يعلم الانسان ما هو مقبل عليه من النعيم فتطمئن نفسه، ويصبرها عن محارم الله وشهوات الدنيا طمعا لما هو خير منها عند الله تعالى. ولو أخبر عن أسماء غير معلومة لاستحالت المعرفة. لأن العقل البشري غير قادر على الحكم على ما لا يعلم صورته، ولو اختفت الصورة، فالاسم نائب عنها. فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم ان ثمار الجنة كالقلال وأن ما تأكل منها يزداد حلاوة على حلاوته، ويعود كما كان. كل هذا غير خاضع لتصور، ولو حدث التصور فهو لا يعبر عن حقيقته ما هو موجود. ولهذا قال سبحانه: [مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ

¹ رواه مسلم 2833

أَسِنٍ وَأَنْهَارٍ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٍ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٍ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى
وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ [محمد 15]

مرحبا بضيوف الرحمن

قضى الله أن اهل الجنة اذا استقروا فيها فهي مقامهم، لا يتحولون عنها، ولا يخرجون منها، يدخلونها وفودا باستقبال حافل. قال سبحانه: [وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ] [الزمر 73]. واذا كان اول دخول اهل الجنة سلام ، فلا بد ان يحل السلام في قلوبهم من اللحظة الاولى لدخولهم فيها. ذلك ان اهل الجنة متفاوتون في الأجر والمكانة. فكان لا بد ان تنزع من النفوس اي نزعة يمكن أن تنغص أو تكدر عليهم شيئا من سعادتهم. فينزع الله من قلوبهم كل شهوة تسبب الغل، كالطمع والحسد، ومشاعر الحزن. وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فتحل السكينه والفرح. ومن اعتاد حمد الله وشكره فلا يفارقه الحمد. فإذا دخلوا الجنة قالوا [الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَبَّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ] [الاعراف 43]

كل كلمة، كل نداء، كل خير لا بد لهم من شكره. هم في أجمل حالاتهم. السننهم تلهج بالحمد. فلما سمعوا نداءات البشارة، شعروا بعظيم ما هم فيه، وما هم مقبلون عليه، [وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ] [الزمر 74] ويلتقي الأحبه بعد طول فراق وعناء، في مستقر الرحمة و دار النعيم، حيث [دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ] [يونس 10] وكيف لا يحمدون وهم فيما اشتهدت انفسهم

خالدون [إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ] [53-51]، كل ما أمرهم ربهم سبحانه بالامتناع عنه في الدنيا اصبح متاحا لهم، ومباحا لهم في الآخرة، [جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ] [فاطر 33] [وَحَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةٌ وَحَرِيرًا * مُتَكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَقْطُوفُهَا تَذْلِيلًا * وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِانِّيَّةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ فَوَارِيرًا * فَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ تَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا] [الانسان 13-22]

وتخفق القلوب بالشكر وتلهج الالسنه بالحمد [وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ] [فاطر 34 35]

يتكرر موعدهم مع رؤيه الرب سبحانه - رغم انكار البعض لرؤيته سبحانه يوم القيامة- الا ان حديث النبي صلى الله عليه وسلم اصدق من تأويلاتهم، فلا يحجب الله عن رؤيته إلا الكافرين كما أخبر سبحانه وتعالى: [كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ] [المطففين 15] و لا ينتهي الحديث عن نعيم الجنة، فهناك أصحاب الجنتين يتفيعون ظلال افنائهما، وعينان تجريان فيهما بالماء العذب الرقراق، ومن كل فاكهة فيها زوجان. يصفهما ربنا سبحانه في سورة الرحمن ويصف مجلس أهل الإيمان [مُتَكِنِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ] [الرحمن 54]

ومن دون هاتين الجنتين جنتان أخريان، مدهامتان لا تختلفان كثيرا عن الجنتين اللتين ذكر، ففيهما الفاكهة والنخل والرمان وعينان من الماء و خيرات حسان وفيهن الحور العين والارائك الوثيره لكنهما ليستا كسابقتهما.

ما هو سرهما!!! ولماذا هما مرتبتان!!! ألم يحدثنا سبحانه عن أصحاب الغرف!!! ان هذا التميز والاختلاف في نعيم الجنة دعوة للمؤمنين للاستجابة لنداء الرب سبحانه، [وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ] [آل عمران 133].

ومن اراد الزيادة فليلبس ثوب الخشيه والخوف، فلمن خاف مقام ربه جنتان، وفي هذا فليتنافس المتنافسون، أن تكون في الجنة فقد حققت الفلاح، في اي موضع من الجنة كنت فقد افلحت. وهناك اناس لم يدخلوها، ينظرون الى من فيها من بعيد، [وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ] [الاعراف 46] ورغم انهم لم يدخلوا الجنة فقد فازوا. هكذا اخبر الله سبحانه: [كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ] [آل عمران 185] فأول الغنيمه النجاة من النار، والطاعه نجاة، والحسنات بالعشرات، والسيئات آحاد، فمن غلبت آحاده عشراته فلم ينج فلا يلومن الا نفسه.

و يخبر نبينا صلى الله عليه وسلم بحديث اخر اهل الجنة خروجا من النار ودخولا الجنة فيقول: " حَتَّىٰ إِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ مِنَ النَّارِ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ، مِمَّنْ كَانَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوهُمْ، فَيَعْرِفُوهُمْ بِعَلَامَةٍ

آثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ ابْنِ آدَمَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيُخْرِجُوهُمْ قَدْ امْتَحَشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءٌ يُقَالُ لَهُ مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحَيَاةِ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، وَيَبْتَمَى رَجُلٌ مِنْهُمْ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، قَدْ فَشِنِي رِيحُهَا، وَأَحْرَقَنِي ذِكَاؤُهَا، فَاصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ، فَلَا يَزَالُ يَدْعُو اللَّهَ، فَيَقُولُ: لَعَلَّكَ إِنْ أَعْطَيْتَكَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ، فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، فَيَصْرِفُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ، ثُمَّ يَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ: يَا رَبِّ فَرِّئِنِّي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: أَلَيْسَ قَدْ زَعَمْتَ أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ، وَيَلْكَ ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ، فَلَا يَزَالُ يَدْعُو، فَيَقُولُ: لَعَلِّي إِنْ أَعْطَيْتَكَ ذَلِكَ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ، فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، فَيُعْطِي اللَّهَ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاقِيقَ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهُ، فَيَقْرُبُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا رَأَى مَا فِيهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: رَبِّ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَوْلَيْسَ قَدْ زَعَمْتَ أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ، وَيَلْكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لَا تَجْعَلْنِي أَشَقَى خَلْقِكَ، فَلَا يَزَالُ يَدْعُو حَتَّى يَضْحَكَ، فَإِذَا ضَحِكَ مِنْهُ أَذِنَ لَهُ بِالذُّخُولِ فِيهَا، فَإِذَا دَخَلَ فِيهَا قِيلَ لَهُ: تَمَنَّ مِنْ كَذَا، فَيَتَمَنَّى، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: تَمَنَّ مِنْ كَذَا، فَيَتَمَنَّى، حَتَّى تَنْقَطِعَ بِهِ الْأَمَانِيُّ، فَيَقُولُ لَهُ: هَذَا لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ " قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «وَذَلِكَ الرَّجُلُ آخِرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا»¹ وفي هذا الحديث أبلغ رد على من قال بخلود أهل الكبائر في النار، فلا يخلد فيها إلا أهل الشرك. وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ»، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ. فَيُخْرِجُونَ مِنْهَا قَدِ اسْوَدُّوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ، أَوْ الْحَيَاةِ - شَكَّ مَالِكٌ - فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي جَانِبِ السَّيْلِ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً»².

¹ متفق عليه، رواه البخاري 806، ومسلم 182

² متفق عليه رواه البخاري 22، ومسلم 184

فطوبى لأهل الايمان إيمانهم، وتعس إهل الخسران بما فاتهم من خير الدنيا والآخرة، فاللهم
أحينا مؤمنين، وأمتنا مسلمين، والحقنا بالصالحين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب
العالمين.

26 رجب 1444هـ

الموافق 17 شباط 2023

المراجع

القران الكريم

التفاسير:

- 1- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، (المتوفى: 310هـ)، تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد شاكر، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000 م، مؤسسة الرسالة
- 2- القرطبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي (المتوفى: 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الطبعة: الثانية، 1384هـ - 1964 م، دار الكتب المصرية - القاهرة
- 3- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني (المتوفى : 1393هـ)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، طبعة عالم الفوائد، 1415 هـ - 1995 م دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان،
- 4- الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر التيمي الملقب (المتوفى: 606هـ)، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، الطبعة: الثالثة - 1420 هـ دار إحياء التراث العربي - بيروت
- 5- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الطبعة: الثانية 1420هـ - 1999 م، دار طيبة للنشر والتوزيع
- 6- البغوي، محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود الشافعي (المتوفى : 510هـ)، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق : عبد الرزاق المهدي، الطبعة : الأولى ، 1420 هـ دار إحياء التراث العربي -بيروت.
- 7- الشعراوي، محمد متولي (المتوفى: 1418هـ)، تفسير الشعراوي - الخواطر، طبعة 1997م بدون رقم، مطابع أخبار اليوم.
- 8- الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، (المتوفى: 538هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الطبعة: الثالثة - 1407 هـ دار الكتاب العربي - بيروت.
- 9- الاصفهاني، الراغب أبو القاسم الحسين بن محمد (المتوفى: 502هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، الطبعة: الأولى - 1412 هـ دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت.

- 10- البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي (المتوفى: 685هـ)،
أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الطبعة: الأولى -
1418 هـ دار إحياء التراث العربي - بيروت
- 11- القنّوجي، أبو الطيب محمد صديق خان الحسيني البخاري (المتوفى: 1307هـ)، فتح البيان
في مقاصد القرآن، تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، الطبعة: بدون، 1412 هـ -
1992 م، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت.
- 12- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر (المتوفى: 1376هـ)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام
المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الطبعة: الأولى 1420 هـ - 2000 م، مؤسسة
الرسالة
- 13- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود (المتوفى: 510هـ)، معالم التنزيل في تفسير القرآن،
تحقيق: محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، الطبعة:
الرابعة، 1417 هـ - 1997 م، دار طيبة للنشر والتوزيع - الرياض.
- 14- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي (المتوفى : 1393هـ)،
التحرير والتنوير، الطبعة: بدون، 1984 هـ الدار التونسية للنشر - تونس
- 15- القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق (المتوفى: 1332هـ)،
محاسن التأويل ، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الطبعة: الأولى - 1418 هـ دار
الكتب العلمية - بيروت.
- 16- الخطيب، عبد الكريم يونس (المتوفى: بعد 1390هـ)، التفسير القرآني للقران، الطبعة:
الاولى، 1970م - 1390 هـ دار الفكر العربي - القاهرة
- 17- الألوسي ، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (المتوفى: 1270هـ)، روح المعاني في
تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، الطبعة: الأولى، 1415
هـ دار الكتب العلمية - بيروت
- 18- النسفي، حافظ الدين أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود (المتوفى: 710هـ)، تفسير
النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، تحقيق: يوسف علي بدوي، محي الدين ديب
مستو، الطبعة: الأولى، دار الكلم الطيب - بيروت
- 19- ابن باديس، عبد الحميد محمد الصنهاجي (المتوفى: 1359هـ)، تفسير ابن باديس (في
مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، تحقيق: أحمد شمس الدين، الطبعة: الأولى،
1416هـ - 1995م، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان.

- 20- ابن جزري، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد الكلبي الغرناطي (المتوفى: 741هـ)،
التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق: د. عبد الله الخالدي، الطبعة: الأولى - 1416 هـ شركة
دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت.
- 21- الشافعي، محمد بن ادريس المتوفى (204هـ - 820م)، تفسير الشافعي، وتحقيق: د.
أحمد بن مصطفى الفرّان، الطبعة الأولى: 1427 - 2006 م، دار التدمرية - المملكة العربية
السعودية.
- 22- الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم (المتوفى: 751هـ)، التبيان في أقسام
القرآن، تحقيق: محمد حامد الفقي، بدون طبعة وبدون تاريخ، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- 23- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (المتوفى: 1250هـ)، فتح القدير، الطبعة: الأولى -
1414 هـ دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت.

الحديث الشريف:

- 1- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي (المتوفى: 256هـ)، صحيح البخاري،
تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الطبعة: الأولى، 1422هـ دار طوق النجاة
- 2- ابن الحجاج، أبو الحسن مسلم النيسابوري (المتوفى: 261هـ)، صحيح مسلم، تحقيق:
محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت
- 3- ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد (المتوفى: 241هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل،
تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م،
مؤسسة الرسالة
- 4- السُّجِسْتَانِي، أبو داود سليمان بن الأشعث (المتوفى: 275هـ)، سنن أبي داود، تحقيق: محمد
محيي الدين عبد الحميد، طبعة المكتبة العصرية، صيدا - بيروت
- 5- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرَةَ بن موسى بن الضحاك، المتوفى: 279هـ)،
سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض،
الطبعة: الثانية، 1395 هـ - 1975 م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر
- 6- ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (المتوفى: 273هـ)، سنن ابن ماجة،
تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي
الحلبي
- 7- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، (المتوفى: 303هـ)، السنن
الصغرى للنسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الطبعة: الثانية، 1406 - 1986، مكتب
المطبوعات الإسلامية - حلب

- 8- البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو العتكي (المتوفى: 292هـ)، مسند البزار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد وصبري عبد الخالق الشافعي، الطبعة: الأولى، (بدأت 1988م، وانتهت 2009م)، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة
- 9- الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن التميمي السمرقندي (المتوفى: 255هـ)، سنن الدارمي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، ذالعرية السعودية
- 10- الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر البغدادي (المتوفى: 385هـ)، سنن الدارقطني، تحقيق: شعيب الارنؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم، الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2004 م، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان
- 11- الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه المعروف بابن البيع (المتوفى: 405هـ)، المستدرک علی الصحیحین، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة: الأولى، 1411 - 1990، دار الكتب العلمية - بيروت
- 12- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد اللخمي الشامي، (المتوفى: 360هـ)، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الطبعة: الثانية، مكتبة ابن تيمية - القاهرة
- 13- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد اللخمي الشامي، (المتوفى: 360هـ)، المعجم الاوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، طبعة دار الحرمين - القاهرة
- 14- ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد العبسي (المتوفى: 235هـ)، مصنف ابن ابي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الطبعة: الأولى، 1409هـ، مكتبة الرشد - الرياض
- 15- الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر (المتوفى: 807هـ)، موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان، تحقيق: محمد عبد الرزاق حمزة، طبعة: دار الكتب العلمية
- 16- الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد الأزدي الحجري المصري (المتوفى: 321هـ)، شرح مشكل الآثار، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الطبعة: الأولى - 1415 هـ 1494 م، مؤسسة الرسالة
- 17- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين الخُسرُوردي الخراساني، (المتوفى: 458هـ)، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الطبعة: الثالثة، 1424 هـ - 2003 م، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان
- 18- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين الخُسرُوردي الخراساني، (المتوفى: 458هـ)، السنن الصغیر، تحقيق: عبد المعطي أمين قلجی، الطبعة: الأولى، 1410 هـ - 1989 م، جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي - باكستان

- 19- التميمي، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلية (المتوفى: 307هـ)، مسند أبي يعلى، تحقيق: حسين سليم أسد، الطبعة: الأولى، 1404 - 1984، دار المأمون للتراث - دمشق
- 20- الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الحميري اليماني (المتوفى: 211هـ)، مصنف عبد الرزاق، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة: الثانية، 1403، المجلس العلمي - الهند
- 21- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين (المتوفى: 1420هـ)، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، الطبعة: الأولى ما بين 1415هـ - 1422هـ / 1995م - 2002م، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض
- 22- ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن النمري القرطبي (المتوفى: 463هـ)، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الطبعة: الأولى، 1414 هـ - 1994 م، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية.
- 23- ابن مهران، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (المتوفى: 430هـ)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الطبعة: الأولى 1409هـ - 1988م، دار الكتب العلمية - بيروت
- 24- الإشبيلي، أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن (المتوفى: 582 هـ)، الجمع بين الصحيحين، بعناية: حمد بن محمد الغماس، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1999 م، دار المحقق للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية.
- 25- البغوي، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن الفراء الشافعي (المتوفى: 516هـ)، شرح السنة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - محمد زهير الشاويش، الطبعة: الثانية، 1403هـ - 1983م، المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت.
- 26- الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد الأزدي الحجري المصري (المتوفى: 321هـ)، شرح معاني الآثار، تحقيق: محمد زهري النجار - محمد سيد جاد الحق، الطبعة: الأولى - 1414 هـ، 1994 م، عالم الكتب.
- 27- ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي، الدارمي، البُستي (المتوفى: 354هـ) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الطبعة: الثانية، 1414 - 1993، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- 28- العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي (المتوفى: 741هـ)، مشكاة المصابيح، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة: الثالثة، 1985، المكتب الإسلامي - بيروت
- 29- ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق السلمي النيسابوري (المتوفى: 311هـ)، صحيح ابن خزيمة، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، بدون طبعة وبدون تاريخ، المكتب الإسلامي - بيروت.

- 30- البخاري، ابو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي (المتوفى: 256هـ)، الأدب المفرد تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة: الرابعة، 1418 هـ - 1997 م، دار الصديق للنشر والتوزيع.
- 31- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء الشافعي (المتوفى: 516هـ)، شرح السنة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط-محمد زهير الشاويش، الطبعة: الثانية، 1403هـ - 1983م، المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت.
- 32- الجوهرى، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، المالكي (المتوفى: 381هـ)، مسند الموطأ للجوهري، تحقيق: لطف بن محمد الصغير، طه بن علي بو سريح، الطبعة: الأولى، 1997م، دار الغرب الإسلامي، بيروت
- 33

التخريج والزوائد

- 1- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين (المتوفى: 1420هـ)، صحيح الجامع الصغير وزياداته، طبعة المكتب الإسلامي
- 2- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين (المتوفى: 1420هـ)، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، الطبعة: الثانية 1405 هـ - 1985م، المكتب الإسلامي - بيروت
- 3- ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (المتوفى: 852هـ)، المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، التحقيق: رسالة علمية جامعة الامام محمد بن سعود، الطبعة: الأولى، 1419هـ دار العاصمة، دار الغيث - السعودية
- 4- المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين البرهانفوري ثم المدني فالمكي (المتوفى: 975هـ)، كنز العمال، تحقيق: بكرى حياني - صفوة السقا الطبعة: الطبعة الخامسة، 1401هـ/1981م، مؤسسة الرسالة
- 5- العراقي، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين (المتوفى: 806هـ)، تخريج احاديث إحياء علوم الدين = المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، الطبعة: الأولى، 1426 هـ - 2005 م، دار ابن حزم، بيروت - لبنان
- 6- ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (المتوفى: 852هـ)، تغليق التعليق، المحقق: سعيد عبد الرحمن موسى القزقي، الطبعة: الأولى 1405، المكتب الإسلامي، و دار عمار عمان - الأردن.
- 7- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين (المتوفى: 1420هـ)، التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان، الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2003 م، دار با وزير للنشر والتوزيع، جدة - المملكة العربية السعودية.

- 8- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين (المتوفى: 1420هـ)، صحيح السيرة النبوية، الطبعة: الأولى، بدون تاريخ، المكتبة الإسلامية - عمان - الأردن.
- 9- الزيلعي، جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف (المتوفى: 762هـ)، نصب الراية لأحاديث الهداية، تحقيق: محمد عوامة، الطبعة: الأولى، 1418هـ/1997م، مؤسسة الريان للطباعة والنشر - بيروت - لبنان/ دار القبلة للثقافة الإسلامية- جدة - السعودية.
- 10- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين (المتوفى: 1420هـ)، صحيح الجامع الصغير وزيادته، الطبعة: الثالثة، 1408 - 1988، المكتب الإسلامي، بيروت - لبنان.
- 11-

شروح الحديث

- 1- ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (المتوفى: 852هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، طبعة محب الدين الخطيب 1379هـ، دار المعرفة - بيروت، 1379
- 2- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليميني (المتوفى: 1250هـ)، نيل الأوطار، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، الطبعة: الأولى، 1413هـ - 1993م، دار الحديث، مصر
- 3- ابن رجب، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد السلامي، الحنبلي (المتوفى: 795هـ)، جامع العلوم والحكم، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - إبراهيم باجس، الطبعة: السابعة، 1422هـ - 2001م، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- 4- المناوي زين الدين محمد عبد الرؤوف بن علي (المتوفى: 1031هـ)، فيض القدير شرح الجامع الصغير، الطبعة: الأولى، 1356، المكتبة التجارية الكبرى - مصر
- 5- النووي، محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف (المتوفى: 676هـ)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، الطبعة: الثانية، 1392، دار إحياء التراث العربي - بيروت
- 6- الوَلَوِيُّ محمد بن علي بن آدم بن موسى الإثيوبي، شرح سنن النسائي المسمى «ذخيرة العقبى في شرح المجتبى» الطبعة: الأولى، سنوات النشر: 1416 هـ - 1996 م - 1424 هـ - 2003 م، دار المعراج الدولية للنشر [ج 1 - 5]، - دار آل بروم للنشر والتوزيع [ج 6 - 40].
- 7- الصنعاني، عز الدين أبو إبراهيم محمد بن إسماعيل الحسن الكحلاني (المتوفى: 1182هـ)، سبل السلام، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ، دار الحديث.
- 8- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (المتوفى: 597هـ)، كشف المشكل من حديث الصحيحين، تحقيق: علي حسين البواب، بدون طبعة وبدون تاريخ، دار الوطن - الرياض.

- 9- العظيم أبادي، أبو عبد الرحمن، شرف الحق محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، الصديقي، (المتوفى: 1329هـ)، عون المعبود شرح سنن أبي داود، الطبعة: الثانية، 1415 هـ دار الكتب العلمية - بيروت.
- 10- الحُسَيْنِي، ابن حَمَزَة برهان الدين إبراهيم بن محمد الحنفي الدمشقي (المتوفى: 1120هـ)، البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف، تحقيق: سيف الدين الكاتب، بدون طبعة وبدون تاريخ، دار الكتاب العربي - بيروت
- 11- المنتقى شرح الموطأ
الباجي، أبو الوليد سليمان بن خلف التجيبي القرطبي الأندلسي (المتوفى: 474هـ)، الطبعة: الأولى، 1332 هـ مطبعة السعادة - بجوار محافظة مصر.
- 12- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري القرطبي (المتوفى: 463هـ)، الاستذكار، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، الطبعة: الأولى، 1421 - 2000، دار الكتب العلمية - بيروت

العقيدة:

- 1- ابن أبي العز، صدر الدين محمد بن علاء الدين علي بن محمد (المتوفى: 792هـ)، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: أحمد شاکر، الطبعة: الأولى - 1418 هـ وزارة الشؤون الإسلامية، والأوقاف والدعوة والإرشاد.
- 2- عبد الحميد، عبد الله الأثري، الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة، مراجعة وتقديم: الدكتور عبد الرحمن بن صالح، الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2003 م، مدار الوطن للنشر، الرياض
- 3- السفاريني، شمس الدين أبو العون محمد بن أحمد بن سالم الحنبلي (المتوفى: 1188هـ)، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرّة المضية في عقد الفرقة المرضية، الطبعة: الثانية - 1402 هـ - 1982 م، مؤسسة الخافقين ومكبتها - دمشق
- 4- الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم (المتوفى: 751هـ)، طريق الهجرتين وباب السعادتين، الطبعة: الثانية، 1394هـ دار السلفية، القاهرة، مصر.
- 5- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ)، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، الطبعة: السابعة، 1419هـ - 1999م، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان.
- 6- الحَلِيمِي، أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن حلیم البخاري الجرجاني، (المتوفى: 403 هـ)، المنهاج في شعب الإيمان، تحقيق: حلمي محمد فودة، الطبعة: الأولى، 1399 هـ - 1979 م، دار الفكر.

- 7- ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي (المتوفى: 795هـ)، كلمة الإخلاص وتحقيق معناها، تحقيق: عماد طه فرة، الطبعة: الأولى 1408 هـ، دار الصحابة للتراث - طنطا - مصر.
- 8- ابن تيمية، قي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم الحراني (المتوفى: 728هـ)، الاستقامة، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، الطبعة: الأولى، 1403، جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة.
- 9- ابن قيم، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الجوزية (المتوفى: 751 هـ)، نونية ابن القيم (الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية)، تحقيق: محمد العريفي، ناصر الحنيني، عبد الله الهذيل، فهد المساعد الطبعة: الأولى، دار عالم الفوائد

الفقه

- 1- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ)، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ط 1416هـ/1995م، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية.
- 2- المجلسي، محمد بن محمد سالم الشنقيطي (1206 - 1302 هـ)، لوامع الدرر في هتك أستاذ المختصر - شرح «مختصر خليل» 110/1، تحقيق: دار الرضوان، الطبعة: الأولى، 1436 هـ - 2015 م، دار الرضوان، نواكشوط - موريتانيا
- 3- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، (المتوفى: 450هـ)، الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض - الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1999 م، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان
- 4- الموسوعة الفقهية الكويتية، الطبعة الثانية 1404هـ، دارالسلاسل - الكويت.
- 5- ابن الهمام، كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي (المتوفى: 861هـ)، فتح القدير، بدون طبعة وبدون تاريخ، دار الفكر
- 6- البابرتي، محمد بن محمد (المتوفى: 786هـ)، العناية شرح الهداية، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ، دار الفكر.
- 10- أمين، علي حيدر خواجه أفندي (المتوفى: 1353هـ)، درر الحكام في شرح مجلة الأحكام، تعريب: فهمي الحسيني، الطبعة: الأولى، 1411هـ - 1991م، دار الجيل.
- 11- الطيار، عبد الله بن محمد بن أحمد، وَبَلِّ الْعَمَامَةَ فِي شَرْحِ عُمْدَةِ الْفِقْهِ لِابْنِ قُدَامَةَ، الطبعة: الأولى، (1429 هـ - 1432 هـ)، دار الوطن للنشر والتوزيع - الرياض.

12- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين (المتوفى: 1420هـ)، جلاباب المرأة المسلمة، الطبعة: الثالثة، 1423هـ - 2002 م، دار السلام للنشر والتوزيع

اصول الفقه

- 1- الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم (المتوفى: 751هـ)، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تعليق وتخريج الأحاديث والآثار: أبو عبيدة مشهور بن حسن وأبو عمر أحمد عبد الله أحمد، الطبعة: الأولى، 1423 هـ دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية
- 2- القرافي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس المالكي الشهير ب (المتوفى: 684هـ)، الفروق = أنوار البروق في أنواع الفروق، تحقيق: عمر حسن القيام، طبعة مؤسسة الرسالة.
- 3- ابن اللحام، علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عباس البعلي الدمشقي الحنبلي (المتوفى: 803هـ)، القواعد والفوائد الأصولية ومايتبعها من الأحكام الفرعية، تحقيق: عبد الكريم الفضيلي، لطبعة: بدون طبعة، 1420 هـ - 1999 م، المكتبة العصرية.
- 4- الحكمي، حافظ بن أحمد بن علي (المتوفى: 1377هـ)، معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، الطبعة: الأولى، 1410 هـ - 1990 م، دار ابن القيم - الدمام.
- 5- السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (المتوفى: 771هـ)، الأشباه والنظائر، الطبعة: الأولى 1411هـ - 1991م، دار الكتب العلمية.
- 6- البغدادي، الخطيب أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي (المتوفى: 463هـ)، الفقيه و المتفقه، تحقيق: أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، الطبعة: الثانية، 1421هـ دار ابن الجوزي - السعودية.
- 7- آل بورنو، أبو الحارث الغزي محمد صدقي بن أحمد بن محمد، الوجيز في إيضاح قواعد الفقة الكلية، الطبعة: الرابعة، 1416 هـ - 1996 م، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان.
- 8- الآمدي، أبو الحسن سيد الدين علي بن أبي علي بن محمد الثعلبي (المتوفى: 631هـ)، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، الطبعة بدون طبعة وبدون تاريخ، المكتب الإسلامي، بيروت- دمشق- لبنان.
- 9- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (المتوفى: 911هـ)، الأشباه والنظائر، الطبعة: الأولى، 1411هـ - 1990م، دار الكتب العلمية.

10- الجويني، أبو المعالي ركن الدين عبد الملك بن عبد الله (المتوفى: 478هـ)، كتاب التلخيص في أصول الفقه، تحقيق: عبد الله جولم النبالي وبشير أحمد العمري، الطبعة: بدون، وبدون تاريخ، دار البشائر الإسلامية - بيروت.

السيرة والتاريخ:

- 1- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ)، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، الطبعة: الأولى 1408، هـ - 1988 م، دار إحياء التراث العربي.
- 2- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين الخُسْرُو جَرْدِي الخراساني، (المتوفى: 458هـ)، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، الطبعة: الأولى - 1405 هـ دار الكتب العلمية - بيروت.
- 3- الصالحي، محمد بن يوسف الشامي (المتوفى: 942هـ)، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الطبعة: الأولى، 1414 هـ - 1993 م، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.
- 4- ابن هشام، جمال الدين أبو محمد عبد الملك الحميري المعافري، (المتوفى: 213هـ)، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، الطبعة: الثانية، 1375هـ - 1955م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
- 5- ابن عساکر: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (المتوفى: 571هـ)، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، الطبعة: بدون، 1415 هـ - 1995 م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- 6- ابن مهران، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (المتوفى: 430هـ)، دلائل النبوة، تحقيق: الدكتور محمد رواس قلعه جي، و عبد البر عباس، الطبعة: الثانية، 1406 هـ - 1986 م، دار النفائس، بيروت.

معاجم اللغة:

- 1- الهروي، أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري (المتوفى: 370هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، الطبعة: الأولى، 2001م، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- 2- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، (المتوفى: 395هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الطبعة: بدون طبعة، 1399هـ - 1979م. دار الفكر.

- 3- نكري، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد (المتوفى: ق 12هـ)، دستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، تعريب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، الطبعة: الأولى، 1421هـ - 2000م، دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت.
- 4- الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريني الحنفي (المتوفى: 1094هـ)، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت
- 5- الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف (المتوفى: 816هـ)، كتاب التعريفات، تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الطبعة: الأولى 1403هـ - 1983م، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
- 6- ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري (المتوفى: 606هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، ط 1399هـ - 1979م، المكتبة العلمية - بيروت، 1399هـ - 1979م
- 7- ابن منظور، أبو الفضل، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي، الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: 711هـ)، لسان العرب، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ الناشر: دار صادر - بيروت
- 8- الفيومي: أبو العباس أحمد بن محمد بن علي، (المتوفى: نحو 770هـ)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، بدون طبعة وبدون تاريخ، المكتبة العلمية - بيروت.
- 9- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي (المتوفى: 321هـ)، جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، الطبعة: الأولى، 1987م، دار العلم للملايين - بيروت.
- 10- أنيس، إبراهيم - منتصر، عبد الحليم - الصوالحي، عطية - م أحمد ، حمد خلف الله، المعجم الوسيط، الطبعة: الرابعة، 2004م، مجمع اللغة العربية - مكتبة الشروق الدولية.
- 11- الحَمِيدِي، أبو عبد الله بن أبي نصر محمد بن فتوح الأزدي الميورقي (المتوفى: 488هـ)، تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، تحقيق: الدكتورة: زبيدة محمد سعيد عبد العزيز، الطبعة: الأولى، 1415 - 1995، مكتبة السنة - القاهرة - مصر.
- 12- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن مهران (المتوفى: نحو 395هـ)، معجم الفروق اللغوية، تحقيق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة: الأولى، 1412هـ مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم».
- 13- الحربي، أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق [198 - 285]، غريب الحديث، تحقيق: د. سليمان إبراهيم محمد العايد، الطبعة: الأولى، 1405، جامعة أم القرى - مكة المكرمة

التراجم والطبقات

- 1- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (المتوفى: 571هـ)، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، طبعة 1415 هـ - 1995 م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- 2- الطبري، محب الدين أبو العباس، أحمد بن عبد الله بن محمد، (المتوفى: 694هـ)، الرياض النضرة في مناقب العشرة، تحقيق: محمد بدر الدين النعساني الحلبي، الطبعة الأولى، بدون تاريخ، محل السادات محمد أمين الخانجي - الأستانة ومصر.
- 3- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (المتوفى: 256هـ)، التاريخ الكبير، الطبعة: بدون رقم وبدون تاريخ، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الدكن.
- 4- ابن مهران، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى الأصبهاني (المتوفى: 430هـ)، معرفة الصحابة، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، الطبعة: الأولى 1419 هـ - 1998 م، دار الوطن للنشر، الرياض.
- 5- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن الشيباني الجزري، (المتوفى: 630هـ)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود، الطبعة الأولى 1415 هـ - 1994 م، دار الكتب العلمية.

-6

الرقائق والتزكية والاذكار

- 1- الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم (المتوفى: 751هـ)، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد المعتمد بالله البغدادي، الطبعة: الثالثة، 1416 هـ - 1996 م، دار الكتاب العربي - بيروت.
- 2- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (المتوفى: 597هـ)، التبصرة، الطبعة: الأولى، 1406 هـ - 1986 م، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- 3- الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم (المتوفى: 751هـ)، اغاثة اللفهان من مصايد الشيطان، تحقيق: محمد حامد الفقي، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- 4- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (المتوفى: 597هـ)، المدهش، تحقيق: د. مروان قباني، الطبعة: الثانية، 1405 هـ - 1985 م، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

- 5- ابن رجب، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: 795هـ)، لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، الطبعة: الأولى، 1424هـ/2004م، دار ابن حزم للطباعة والنشر
- 6- ابن تيمية، قي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم الحراني (المتوفى: 751 هـ)، أمراض القلب وشفائها، الطبعة: الثانية، 1399هـ المطبعة السلفية - القاهرة.

الشعر والأدب

- 1- المتنبي، ابو الطيب أحمد بن حسين الجعفي (المتوفى: 354هـ - 965م)، ديوان المتنبي، الطبعة: 1403هـ - 1983م، دار بيروت للطباعة والنشر- لبنان
- 2- الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس المطلبی القرشي المكي (المتوفى: 204هـ)، ديوان الشافعي، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، الطبعة الثانية، 1405 هـ - 1985م، مكتبة الكليات الأزهرية، الأزهر - القاهرة.
- 3- إقبال، محمد، ديوان محمد إقبال، اعداد سيد عبد الماجد الغوري، الطبعة: الثالثة، 1428هـ - 2007م، دار ابن كثير دمشق - بيروت.
- 4- ابن المعتز، ابو العباس عبد الله بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد العباسي، المتوفى (296 هـ)، ديوان ابن المعتز ص333، تحقيق: محيي الدين الخياط، الطبعة: بدون طبعة، الناشر: عبد الباسط الأنسي
- 5- الجبوري، د. يحيى، شعر المتوكل الليثي، الطبعة: بدون، مكتبة الأندلس - بغداد.
- 6- ابراهيم، حافظ، ديوان حافظ ابراهيم، تحقيق احمد امين، احمد الزين، ابراهيم الابياري، الطبعة: الثالثة 1987، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- 7- الحمداني، ابو فراس الحارث بن أبي العلاء سعيد بن حمدان بن حمدون، ديوان أبي فراس الحمداني، تحقيق خليل الدويهي، الطبعة الثانية، 1414هـ - 1994م ، دار الكتاب العربي - بيروت.

متفرقات:

- 1- قطب، سيد معالم في الطريق، تحقيق: علي بن نايف الشحود، الطبعة: الأولى، 1430 هـ - 2009 م، دار الشروق.
- 2- <https://faith-matters.org/images/stories/fm-reports/a-minority-within-a-minority-a-report-on-converts-to-islam-in-the-uk.pdf>
- 3- خالدي، د. مصطفى و فروخ، د عمر، التبشر والاستعمار في البلاد العربية، الطبعة: الثانية 1956م - 1375هـ المكتبة العصرية - صيدا - بيروت.
- 4- رمضان، محمد عطا سعيد، خلاصة التحقيقات في الرد على الشبهات والتصورات، الطبعة: بدون، وبدون تاريخ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

الفهرس

رقم الصفحة	الموضوع
4	الاهداء
5	المقدمة
7	هذا هو الطريق
13	المؤمنون
19	النفس المطمئنة
24	النفس اللوامة
26	النفس الأمارة بالسوء
30	الإيمان
32	كلمة الايمان ثابتة لا تتغير
34	كلمة التوحيد
39	شروط كلمة التوحيد
42	الاسلام اسم والتزام
55	الايمان صفة وامتياز
60	المتقون
65	أهل الخوف والخشية في القرآن الكريم:
91	معالم في سوق مفتوح
95	خصائص وميزات أهل الإيمان
145	مقومات الداعية
164	معالم أساسية في دعوة الرسل
169	المرأة - تلك الحقيقة الإيمانية سلطان
189	المرأة في العالم الغربي:
214	حجاب المرأة المسلمة
222	سنن لا تتغير
228	قاعدة درء المفساد وأهميتها في الفهم الإيماني
236	النتائج المترتبة على ترك الأمر بالمعروف على الأفراد والأمم
240	البلاء والابتلاء

250	البناء الإيماني
287	تناقضات مؤمن
289	أكل ما نهى الله عنه
292	الربا والمال الحرام وشراء البيوت بالقروض الربوية
305	النملة تتفوق على الهدد:
314	بين الإجتماع والافتراق
326	الايمان والدنيا فراق أم اتفاق:
328	ايام الحصاد
328	البشائر الثلاث سلطان بشارات الدنيا
335	بشائر عند الموت
336	بشائر المحشر
347	تفاوت واختلاف
348	جنة أم جنتان أم جنان
353	مرحبا بضيوف الرحمن
358	المراجع